

# الماضى لم يأتى بعد

تأليف

محمد الشافعى

طبعة ٢٠١٧

الشافعي، محمد.

الماضي لم يأتى بعد: / محمد الشافعي - .- الجيزة: أطلس للنشر  
والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٦ .

٤٣٢ ص، ٢٠ سم

تدمك: ٣ ٤٨٥ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ - العنوان

# الماضى لم يأتى بعد

تأليف

محمد الشافعى



## (١)

لم يهتم (سامر) أبداً لطول رحلته التي قد تستغرق منه أياماً يبحر خلالها جواً بين عدة مطارات دولية ومحلية، فمن الخرطوم إلى القاهرة ومنها إلى كازابلانكا، ومن (كازا) يطير داخلياً إلى مدينة أكادير المغربية الساحلية، وفي مطار أكادير يلتقيه أحد المعارف الذي تطوع أن يُقِّله بسيارة دفع رباعي إلى الشخص المراد لقاءه في رحلة لا يعلم كُنْهها حتى الآن.

إنه مستعد للذهاب إلى القطب الجنوبي ذاته إذا كان في ذلك خَلْأصه، فمنذ شهور وهو في معاناة ولا يعرف ما الذي يعانيه بالضبط، تارة يشعر بصداق يشطر جمجمته حقيقةً لا مجازاً! وتارة يجد دموعه تنساب رقراقة غزيرة وبدون أن يعرف لها سبباً، (سامر) الذي كان يَعْتَزُّ بأن الله قد وهبه أسناناً كأَسنان سمك القرش ويفخر بأنه لم يَزُرْ طوال سنوات عمره الأربعين طبيباً واحداً للأسنان؛ إذا به هذه الأيام يشكو آلاماً مفاجئةً بها وتَسُوْساً في بعضها بل ويفقد ضرسين في هذه المدة القصيرة.

وكل هذا يهون بجوار حالات الكآبة والاكتئاب الذَّين صارا مسيطرين على تفكيره ونفسيته بعد فترة من حط رحاله في أسبانيا.. نعم هي بالتأكيد أيام أسبانيا وزواج أسبانيا؛ لم يسمع نصيحة من حَذَّره من (بثينة) ومن الزواج منها.



(سامر كُتبي) لم يعتد النوم في فراشٍ باردٍ منذ أن كان في ال ٢٥ من عمره، وقت أن تَخَرَّجَ في جامعة (الملك عبد العزيز) في مدينة جدة، وسافر فور ذلك إلى السودان ليبدأ فيها أولى خطواته كتاجرٍ شابٍّ، بدأها بتصدير رُؤوسِ الماشية من السودان إلى دول الخليج، ثم تنوعت تجارته وتقافزت محطاته التجارية إلى مصر فالمغرب فلبنان فسائر البلاد العربية عدا بلده الأم سوريا التي لم يرها طوال حياته، ومنذ أن عرفت قدماء طريق التجارة عرفت يدها طريق عقود الزواج والطلاق. هو لا يعيش امرأة في الحرام أبداً، ولا يجمع بين زوجتين، ولا يصبر على حالة العزوبية لأكثر من شهر. ولأن الله قد وهبه نعمتي المال والجمال وحرَّمه من نعمة الإنجاب؛ فقد تزوج وطلق عدد ما لا يذكر!

وتتَقَلَّبَ بين أحضان زوجاته ومحطاتهن المترامية في أنحاء العالم بغير مشاكل تذكر، إلى أن هبطت تجارته أرض أسبانيا التي بدأ فيها نشاطه الأخير منذ قرابة العام كتاجر يعمل في تصدير زيت الزيتون، وكَسِمَسَارٍ للعقارات في مدينة (مايوركا) وتعرف خلال ذلك إلى (بثينة)، وخلال لقائين اثنين كان كل ما فيهما يمتلئ بالآخر إعجاباً ورغبةً، وفيها وجد كل ما يشبع قلبه و عقله وجسده...

لكن الشيء الذي لم يحسب حسابه هو أن (بثينة) إن أحببت فهي تحب حب امتلاك والتصاق، تلتصق به ليلاً وتأبى أن تتفصل عنه بقية اليوم، تريد أن تشاركه حتى في مكالماته الهاتفية، سواء أكانت مكالمات عمل أو تلك الخاصة بأمه أو أخته التي استقرت بالسعودية وتزوجت

فيها، فكيف لزوجة كهذه أن تتركه يعيش حياة الطير المهاجر التي اعتادها؟

لقد كان يظن أن حنينها للإنجاب سيطفئ على حبها له كما طفى من قبل على قلوب من سَبَقَتْها من زوجات، لكن (بثينة) كانت مختلفة في كل شيء، و من حَذَرِه منها؛ لم يخبره أنها إذا عشقت عشقت بجنون لا يتورع عن فعل أي شيء .

في البداية كانت تغضب حين يسافر وحده متحججاً أنه سفرٌ قصيرٌ مشحونٌ بالعمل فلا مجال لاصطحابها فيه، ثم تحول الغضب إلى اتهامات له بخيانتها أثناء سفره، اتهامات مصحوبة باتصالات هاتفية لا تتقطع منذ أن يطأ صالة السفر في المطار، فإذا أغلق هاتفه لاجتماع عملٍ أو لرغبةٍ في النوم؛ فهو إذن متهم بأنه في أحضان زوجة أخرى أو بين ذراعي عشيقته.

فَكَرَّ مراراً أن يطلقها رغم أنه أحبها؛ فهي لم تكن الحب الوحيد في حياته والذي ينتهي بالطلاق... كل القرارات العاطفية المؤلمة تُنْغِزُ القلب بشدة في مرَّاتها الأولى، و بعدها يخف الألم حتى يزول الإحساس به، و بالتدريج يكتسب القلب مناعة التكرار.

وفجأة توقفت (بثينة) عن غيْرِتِها، و بدأت بعدها أعراض معاناة (سامر) في الظهور. ولم يحتج لكثير فطنة كي يدرك أن (بثينة) قد قررت أن تريح بالها وأن تَسْحَرَ له بمحبتها، كان يظن أن وطأة ذلك السحر ستكون في القلب فقط، لكن يبدو أن صانع السحر قد أفرط في مقادير طبخته!

سألها... واجهها... صرخ فيها... ضربها... وهي لم تزد إلا إنكاراً و  
دموعاً، لو كان رجلٌ آخرٌ غير (سامر) لربما صدق دموعها، لكنه رجلٌ  
عركته التجارة و النساء و الترحال بين قارات العالم لأكثر من ١٥ عاماً.



في أول رحلة له إلى السودان ذهب إلى الشيخ (جعفر) ذلك  
الشيخ الذي طالما صلى وراءه في سنواته التي قضاها في السودان ولم  
تقطع صلته به بعد ذلك. كان باب مسجد الشيخ (جعفر) يزدحم  
عادة بعد صلاة العشاء كل يوم و يشتد زحامه بعد صلاة الجمعة، تلك  
الأوقات التي يخصصها الشيخ لطالبي الرقية والعلاج، وكم اهتزت  
جنبات المسجد بصرخات بعضهم أثناء الرقية حتى يُخيل إليك أن  
الجدران ستتصدع منها، وقتها يهرع أربعة من مساعدي الشيخ الأقوياء  
ويمسكون بالمصاب؛ حتى يفرغ الشيخ من رقياه.

قصَّ (سامر) كل التفاصيل على الشيخ (جعفر) الذي استمع إليه  
في سكينه ثم طلب منه أن يسترخي تماماً و يغمض عينيه، وبدأ الشيخ  
يقرأ آيات متفرقات من سورة البقرة ثم انتقل فجأة إلى فواتح سورة  
الصافات ثم سكت فجأة...فتح (سامر) عينيه لما طال سكوت الشيخ؛  
فوجده يتفصد عرقاً و عيناه مغروقتان بالدموع!

- مالك يا شيخ (جعفر)؟ سأله (سامر)

سكت الشيخ ولم يجب لفترة ثم قال:

- هو سحر أسود بكل تأكيد، لكنه سحر سفلي ثقيل لم يَمُرَّ عليّ مثله من قبل إلا مرة واحدة، يومها أخذتني الحمية أنني لها واستمررتُ في رقيائي، لم أبه لصرخات المصاب لكنني أفقتُ على صيحات المساعدين.

- أمعقول ما تقوله يا شيخ؟ وماذا صنَّعت؟

- ما كان لي أن أعدو قدري، ما زدت على أن توقفت و نصحت أهل المصاب أن يذهبوا به إلى الشيخ (يحيى) في صنعاء باليمن! وبالفعل ذهب (سامر) إليه، و لم يستفد منه أكثر من أن قال له الشيخ (يحيى):

- لا شك أن هذا السحر من عمل (أورهايون) و أنه قد عقِد لك باستعمال قطرات من سائلك المنوي أو قطرات من دمك.

- ومن هو هذا ال (أورهايون)؟

- ساحر رهيب يعيش في المغرب.

- هل أذهب إليه ليفك سحري؟

- إذن تكفر بربك إن التجأت إلى ساحر مثله، يا بُنيَّ علاج السحر لا يكون إلا بالقرآن.

- فماذا أصنع يا شيخ (يحيى)؟

- عليك بالشيخ (سيدي محمد البرغواطي) في جنوب المغرب...



لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها (سامر) اسم الشيخ (البرغواطي) إنه نفس الشيخ الذي ذهب إليه قبل ذلك أحد نُسبائه السعوديين، فأسرة (سامر) تقيم بالمملكة العربية السعودية منذ الستينيات وقت أن عمل والده بالتدريس في جامعة (أم القرى) ولم يعد بعدها إلى سوريا، وهناك وُلِدَ (سامر) وإخوته، وتزوجت إحدى أخواته هناك. ابن أخي زوج تلك الأخت، شاب سعودي نأبه أرسله والده لدراسة الطب في الهند- دراسة الطب في تلك البلاد لها آفاق مختلفة من الخبرة والممارسة...

فجأة؛ أصاب هذا الشاب فيروسٌ غريب، ولم تفلح كل المحاولات لعلاجِه هناك في الهند، وأعادَه أهله بالطائرة رأساً إلى مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض، صارحهم الأطباء بأن الشاب في حكم الميت سريرياً، وأنهم لا يعرفون حتى تحديد نوع ذلك الفيروس...أمُّ هذا الشاب لم تتقبل هذا الكلام أبداً، رفضت غريزة الأمومة عندها الاستسلام، خاطبت أهلها في المغرب، كانت كالغريق الذي يتعلق بأي قشة، نقلوه بسرير المستشفى إلى مطار الرياض ومنه إلى المغرب، وبعد رحلة طويلة دخل الشاب ممدداً على سريرِه إلى مسجد الشيخ (البرغواطي) ليخرج بعد ثلاثة أيام يمشي على قدميه!

لو طلب وقتها الشيخ (البرغواطي) من أهل الشاب وزنه ذهباً لفعَلوا، لكنه رفض أن يتقاضى منهم (سنتيماً) واحداً، وبعد إلحاح منهم قال لهم:

- كل ما تجود به نفوسكم ضعوه في أعمال الخير في أي مكان.

الهدية الوحيدة التي قبلها الشيخ من والد الشاب كانت قارورة  
عطر ثمينة من دهن العود الفاخر الممزوج بخلاصة الورد الطائفي،  
وعدة دعوات لتأدية فريضة الحج وهبها الشيخ (البرغواطي) لبعض  
أهله.

وأفاق (سامر) من خواطره و ذكرياته على صوت مضيئة طائفة  
مصر للطيران تطلب منهم ربط الأحزمة استعداداً للهبوط في مطار  
كازابلانكا.

...

## ( ٢ )

عادت (سلمى) إلى منزل أسرتها في حي المعادي الراقي بالقاهرة بعد رحلة سفاري إلى البحيرة المسحورة و وادي حيتان بالقرب من مدينة الفيوم الرابضة في وسط مصر، كانت (سلمى) هي المسئولة هذه المرة عن تنظيم هذه الرحلة تبع أسرتها الجامعية (أسرة السندباد)؛ أسرة- بالضبط كما يقول اسمها- تهتم بكل ما هو رحلات.

وتجاوز أعضاء هذه الأسرة الرحلات التقليدية المعتادة إلى بورسعيد أو الأقصر وأسوان أو شرم الشيخ... إلخ، وإنما مدّت آفاقها إلى ما هو أبعد، بداية مع رحلات السفاري في صحراوات مصر المختلفة وإلى سيوة وجبل الطور والصحراء الشرقية، ثم تخطت ذلك إلى ارتياد الأماكن غير المشهورة عند مرتادي الرحلات في مصر مثل سهل حشيش ورأس شيطان وشرم الناقة، و وادي قولان و وادي دجلة، ومحمية أبو جالوم ومحمية الصحراء البيضاء، وغيرها.

كما ينظمون فيما بينهم بعيداً عن إدارة الجامعة رحلات إلى أوروبا يسمونها رحلات التسكع و الصعلكة... المعضلة تكون فقط في استخراج تأشيرة الشنجن إلى أوروبا، ومعظم أعضاء الأسرة تجاوزوا هذه المعضلة بسبب كثرة سفرياتهم خارج مصر، ثم بعد التأشيرة تكون كل الأمور سهلة؛ تذاكر الطيران يتم إيجاد أرخصها على مواقع sky-scanner أو kayak أو expedia أو غيرها، ويزورون أكثر من دولة في الرحلة الواحدة، ويتقلون بطريقة الأوتوستوب أو بالقطار الدولي

بين دول أوروبا والذي أحياناً تكون تذاكره مخفضة للطلبة، ويحجزون المبيت في أي هوستيل - نُزُل شباب أو أرخص موتيل يمكن إيجاده، والطعام هو آخر شيء يفكرون فيه، رحلة لا تتجاوز تكلفتها الألف يورو من أولها لآخرها .

بعضهم يدّخر لسنة كاملة لاستكمال هذا المبلغ و بعضهم لا يمثل له هذا المبلغ رقماً يذكر، لكنه يطير إليها فرحاً بحب المغامرة الجماعية والتسكع مع شلة الصعاليك كما يسمون أنفسهم .

لا وقت لدى (سلمى) للراحة بعد عودتها برغم رحلتها المرهقة هذه، دخلت شارعها الذي لا يزال يحتفظ بهدوئه و رونقه في حي (المعادي القديمة) برغم ما بُنيَ فيه من أبراج سكنية مكان بعض الفيلات، صعدت إلى شقتهم التي تتغيب عنها أغلب اليوم في أنشطتها المتزاحمة، أَلقت حقيبتها الجاهزة دائماً لأي سفر واحتضنت أمها، وقبّلت أباهما الغاضب منها عادةً بلا سبب سوى ما يراه تحرراً منها وانطلاقاً زائدين، ومازحت أخاها الصغير على عَجالة ثم أَلقت بجسدها على سريرها .

ساعة واحدة ثم أفاقت، قفزت إلى الحمام و أخذت حماماً سريعاً ومنه إلى المطبخ حيث مزجت الأرز مع الخضار مع قطع اللحم في طبق واحد، والتهمت الكل على عَجالة من ليس لديه وقت لطقوس موائد الغداء .

هي الآن تقود سيارتها الصغيرة في طريقها إلى مركز ساقية  
الصاوي الثقايف؛ لحضور ندوة عن تفاقم ظاهرة التحرش الجنسي  
واللفظي في الشارع وأسبابها وطرق مواجهتها، بعض أصدقائها أعضاء  
في حركة (امسك تحرش) لكنها ترى أن هذا مجرد مُسكِّن سطحي  
يشبه تناول حبة لتسكين الصداع بدون علاج أسبابه.

في طريقها للندوة عرجت على إحدى صديقاتها؛ كي تلتقط منها  
نسخاً من المحاضرات التي فاتتها خلال أيام رحلة الفيوم و بحيرتها  
و حيتانها...

هكذا هي حياتها لا تكاد تلتقط فيها أنفاسها، ما بين الجامعة  
ورحلات داخلية وخارجية و ندوات وأنشطة اجتماعية، إنها تحمد  
اللّه على نعمة الهواتف الذكية؛ فالفراغات البينية في جدولها اليومي  
المزدحم هو الوقت المتاح لديها لتصفح بريدها الإلكتروني أو متابعة  
آخر الأخبار أو الفعاليات عبر الواتساب والفيسبوك، وأصبحت تعتمد  
كثيراً على برامج S Planner و Evernote و Dropbox، لذلك فإن  
أهم ما في حقيبة يدها هو شاحن المحمول و الباوربانك.

(سلمى) نشيطة و متحركة منذ نعومة أظافرها، لكنها لم تصبح  
بكل ذلك الجدول المزدحم إلا منذ سنتين، أحياناً ما تسأل نفسها: هل  
هي أصبحت كذلك لأنها أحببت هذه الدرجة العالية من النشاط وتحس  
فيه بمعاني الوجود؟ أم أن هذا كان هو ردة فعلها النفسية بعد قطع  
العلاقة مع (هشام)؛ الحب الأول والصدمة العاطفية الأولى أيضاً؟

إنها لا تزال تذكره، وتفكر فيه كل ليلة برغم مرور هاتين السنتين، لا تصدق أن حبهما الكبير الذي بدأ منذ مقاعد المدرسة الثانوية بسنواتها الثلاث واستمر في السنة الجامعية الأولى يمكن أن يتوقف هكذا ببساطة!

فجأة قرر(هشام) السفر إلى أمريكا في صيف السنة الجامعية الأولى كما يحاول الكثير من الطلبة، وبالفعل نجح في السفر إلى هناك وهو يعد (سلمى) - ودموعهما تملأ أعينهما - بأنه الصيف فَحَسَبَ ثم يعود إليها قبل بداية العام الدراسي الجديد .

كانا يتحدثان كل يوم على برامج الدردشة المختلفة ثم بدأت الاتصالات تتباعد منه بِحَجَجٍ شَتَّى، وفجأة انقطعت كل اتصالاته، كادت تُجَنُّ من الظنون السيئة التي راودتها بشأن مكروه أصابه، وبعد أسبوعين رَقَّ قلبه لهفتها عليه وأرسل لها رسالة تحمل كلام الشباب إياهم من عينة: أتمنى لك التوفيق مع من يستطيع إسعادك، وأنا طريقي طويل ولا أستحقك... إلخ. هذه المقاطع المحفوظة كأنها موسيقى الختام لنشرة الأخبار؛ متى تسمعها تدرك أن النشرة - أقصد العلاقة - قد انتهت.

تلقت (سلمى) الصدمة بشكل مختلف، لم تبتك ولم تكتتب أو تغلق على نفسها باب حجرتها، جاءتھا الصدمة بأعراض عكسية؛ فصارت على ما هي عليه الآن من نشاط يستهلك كل وقتها وطاقتها، لا تريد أن تتذكر أنها فكرت يوماً أن تهب (هشام) فرصة التجول داخل حديقته ومداعبة بعض ثمارها، إنها تحتقر نفسها كلما تذكرت ذلك، وصاحَبَ

ذلك كُفِّرُ شديداً منها بالحب فأغلقت قلبها وأصمَّتْ أذنيها عن أي طارق جديد يحاول التسلل منهما، وحوَّلت نفسها إلى داعية تنشر كُفْرَها بالحب بين صديقاتها وتُعدِّدُ لهن الأمثلة الدالة على صدق عقيدتها والتي تتكرر أمامهن كل يوم.

ولأنَّ (سلمى) لا تؤمن إلا بالزواج عن طريق الحب فقد أغلقت كتاب الزواج أيضاً، حتى أنها طلبت بعد ذلك من والدتها أن تعطيها تلك القلادة المتوارثة بين نساء عائلة أمها المَقْدِسِيَّةِ الجدور... فمنذ أكثر من عشرة أجيال من الأمهات - و قبل أن يهاجر أحد الأجداد الأوائل من القدس إلى مصر - و كل أم تهدي هذه القلادة إلى ابنتها الكبرى قبل زفافها .

إنها قلادة مثيرة للحيرة؛ فلا تدري أهى قلادة أم سبحة، و حَبَّاتُها ال ٣٣ مثيرة للإعجاب بلونها العاجي الصايفي و بنقوشها المتقنة الغربية الغير مفهومة، و تتوسط هذه الحبات قطعة من حجر اليشب الأخضر محفورة بنقشٍ غامضٍ كالطلسم لكنه جميل .

ولما سألت (سلمى) أمها عن معنى النقوش و هل لها علاقة بالقدس أو بفلسطين أجبتها أنها لا تعرف، وأمها و جداتها كذلك لا يعرفن سوى أنها قلادة متوارثة بين الأمهات منذ أجيال بعيدة، وهناك حكاية تقول أنه قد عثر عليها في إحدى الحفريات في القدس أيام الحروب الصليبية ثم اشتراها أحد الأجداد بعد ذلك بزمناً وأهداها لزوجته... لم يُصدِّقُ الجَدُّ بالطبع تلك الحكاية التي حكاها له التاجر بائع القلادة، لكن الناس مولعون بتناقل القصص والأساطير.

وكتمت الأم حزنها على حال ابنتها لكنها أهدتها القلادة شفقةً  
بها؛ فهي ابنتها الوحيدة ووارثة القلادة على كل حال و عنداً في الزواج  
أو حباً منها للقلادة الجميلة؛ قررت سلمى ذات ليلة أن ترتدي القلادة  
فوضعتها حول عنقها وسرعان ما غطت في نوم عميق.



## ( ٣ )

كعادتها كانت (سالمة) أول من استيقظ من أسرتها الكبيرة قبل الفجر بمدة يسيرة، أوقدت سراج الزيت في غرفتها و حملته وهبطت به من الطابق العلوي في الدار، اتجهت إلى الحمام فوجدت الجارية (صُبح) وقد أشعلت موقد الحمام وبدأت في تدفئة الماء، وبوجوه لا يزال يملؤها النعاس تبادلنا تحيات الصباح، ثم أخذت (سالمة) إبريقاً نحاسياً ملأته بالماء الدافئ وصعدت به ثانية، وضعته و معه طست نحاسي صغير على باب غرفة والديها ونقرت الباب بلطف حتى فتحت والديها، تبادلنا الصباح وتركنا لأمها مهمة صب ماء الوضوء لوالدها ثم ذهبت هي لإيقاظ باقي إخوتها وأخواتها .

منهم من سيسارع بالوضوء كي يدرك صلاة الفجر في المسجد مع الوالد، ومنهم من ستسارع إلى المطبخ كي تساعد (سالمة) في تجهيز الفطور والذي بدأت الجارية (صُبح) في إعداده بالفعل .

مع الشروق يكون الجميع قد انتهى من إفطاره، فيخرج الأب (الحاج محمد البكري) ممتطياً عربته الأنيقة التي يجرها زوج من الخيل الأصيلة مصطحباً ابنه الأكبر الذي ناهز الثانية والعشرين، وبدأت مفاوضات والديه معه في أمر الزواج منذ أعوام، حتى وصلت إلى حد الغضب منه ولكنه لم يتحمس للزواج بعد، فيعرجان أحياناً على بستان نخيلهم القريب من أطراف مدينتهم (مدينة رشيد) النائمة في سلام على فرع النيل المسمى باسمها عند التقائه بالبحر الأبيض،

فيشرفان على الأعمال فيه إن كانت هناك أعمال، أو يكتفيان بنظرة  
اطمئنان عليه وعلى المزارعين فيه، ثم يوليان وجهيهما ثانية شطر  
سوق رشيد؛ حيث يباشران عملهما اليومي في حانوت الوالد الخاص  
بتجارة التمور والحبوب، و يذهب باقي الإخوة الصبيان إلى مدارسهم  
أو كتاتيبهم في حين تبقى (سالمة) مع أمها وأخواتها البنات لرعاية أمور  
الدار.

ستكون (سالمة) أكثر أخواتها نشاطاً وعملاً برغم أنها أكبرهن  
سناً، لكنها تفعل ما في وسعها لتشغل عقلها عن أحزانه، إنها برغم  
جمالها الواضح و بياضها الناصع الذي ورثته عن جدتها المقدسية  
إلا أنها قليلة الحظ في هذه الدنيا - أو هكذا يعتبرونها - فقد تأخر  
الخطاب في طرق بابها إلى أن ناهزت السابعة عشرة من عمرها، حتى  
بدأت أمها في السعي لاكتشاف إن كانت ابنتها قد رُصدت بعمل أو  
سحر، فمن هي في مثل جمالها وحسبها لا يمر عليها عامها الخامس  
عشر إلا وهي تنتظر مولوداً!

ولم تصدق الأم كلام العرافين بمعاذة ابنتها حتى جاءها بالفعل  
من الخطاب من يطلب يدها ويليق بها. وطار البيت و بيوت الجيران  
والأحبة بالفرح لسالمة ولأسرتها المحبوبة بالفعل بين أهالي رشيد،  
وزُقت (سالمة) إلى عريسها الصياد الشاب الذي يعمل ريساً على  
مراكب والده... لكن ما هي إلا شهور قليلة و ابتلع البحر عريس (سالمة)  
وابتلع معه فرحتها.

ولم تَرِثْ (سالمة) من فقيدها من يحمل بصمته في أحشائها، وحمل البحر عريسها في جوفه قبل أن تحمل هي منه، وكأنها كانت هي السبب في تأخر الحمل خلال تلك الأشهر الممدودات؛ فصَبَّ أهل زوجها عليها اللوم، إذ لو كانت تحمل منه ولداً في رحمها لربما عوضهم ذلك عن فقد ابنهم.

وبدلاً من أن يكون تأخر الحمل نعمة على وليدٍ نجا من أن يولد يتيماً أصبح نقمة على (سالمة)؛ إذ تشاءمت منها أمهات العرسان، بل ربما لو كانت تحمل جنيناً في بطنها لضمنت أن يبادر أهل زوجها إلى تزويج أرملة من أحد أبنائهم كي يراعي ابن الفقيد مع أولاده.

وهكذا صارت (سالمة) أرملة جميلة دون العشرين و لم تكتسب من زواجها المشؤم إلا تلك القلادة التي أهدتها إليها أمها ليلة زفافها؛ سيراً على العادة المتوارثة بين أمهات تلك الأسرة، إذ تهدي كل أم إلى ابنتها الكبرى قبل زفافها تلك القلادة المتوارثة عبر أجيال من الأمهات.

إنها قلادة عجيبة فلا تدري أهي قلادة أم سبحة، وحياتها الـ ٣٣ مثيرة للإعجاب بلونها العاجي الصافي وما فيها من نقوش متقنة وغريبة غير مفهومة، وتتوسط هذه الحبات قطعة من حجر اليشب الأخضر محفورة بنقش غامض كالمطلسم لكنه جميل...

تتوارث الأمهات قصة أسطورية عن هذه القلادة وأنها عثر عليها أيام الحملات الصليبية تحت أنقاض بعض الحفريات واشتراها أحد الأجداد المقدسين من أحد التجار وأهداها لزوجته، وحملت هذه

الأسرة هذه القلادة و هذه القصة معها عندما نزحوا من القدس  
واستوطنوا مصر، وتوارثت الأمهات القلادة حتى وصلت إلى (سالمة)  
التي أشفقت عليها أمها أن تستردها منها حتى بعد أن خُطِبَت أختها  
(توحيدة) الأصغر منها .



## ( ٤ )

أخيراً حطت طائرتة الخطوط المغربية ب (سامر) أرض مطار مدينة (أكادير)، وعلى بوابة الخروج وجد في انتظاره ذلك الشاب من أقارب سلفته أخته التي تعيش في السعودية.. شاب خدوم تطوع مشكوراً لاصطحاب (سامر) إلى حيث يلقي الشيخ (محمد البرغواطي)، كما تطوع من قبل لاصطحاب الشاب السعودي - ابن قريبتة - الذي جاء مسجد الشيخ ممدأ على ظهره وخرج منه يمشي على قدميه كأن لم يمسه سوء .

استقل (سامر) والشاب المغربي سيارة دفع رباعي استأجرها الشاب بسائقها لتقلهم إلى حيث يلقون الشيخ، فسأله (سامر) بعد أن استقلوا السيارة و انطلقت بهم:

- هل هي رحلة طويلة؟

- لا أبداً، إننا في طريقنا إلى مدينة تزنييت وهي لا تبعد عن هنا إلا أقل من ١٠٠ كيلو متراً، لكن الشيخ (البرغواطي) لا يقيم داخل تزنييت نفسها، إنما اختار أن يبني مسجده على أحد أطرافها كأنه يختلي بنفسه أو كأنه يتعرض للهواء النقي الذي يحمل عبير المحيط الأطلسي القريب من المدينة.

هزَّ (سامر) رأسه وحمد الله أنه قد اقترب من غايته، فهو على سفر متصل منذ يومين تقريباً، وعلى وقع اهتزاز السيارة غفلت عيناه

قليلاً و لم يشعر إلا ويد الشاب توقظه أن قد اقتربنا من مسجد الشيخ، صحا (سامر) وجال ببصره في المكان من نافذة السيارة، الهدوء يلف كل شيء و الهواء يكاد فعلاً يحمل أريج الأطلسي رغم أنه يبعد عنهم أكثر من عشرة كيلومترات، و المكان صحراوي تتناثر فيه البيوت البعيدة عن بعضها، و على ضفة الطريق تتناثر عدة دكاكين و أحد المقاهي و محلات لخدمة المسافرين أو لإصلاح السيارات. و انحرفت السيارة عن الطريق و توغلت قليلاً داخل المكان و صعدت تبة صغيرة ترتفع عن باقي المكان كأنها تشرف عليه، ثم توقفت أمام باب المسجد. نزلوا ثلاثتهم و وجدوا على باب المسجد أحد الشباب يرحب بهم، يبدو من هيئته و جلبابه و غطاء رأسه أنه أحد مساعدي الشيخ، قادهم الشاب إلى داخل المسجد و غاب لدقيقة و عاد يحمل صينيّتي طعام، و سألهم:

- من منكم الشاكي؟

فأشاروا لسامر فوضع أمامه الصينية التي لا تحمل لحمًا ولا أي منتج من منتجات الألبان، ثم قدم الصينية الأخرى لمُرافقيه.

لقد التزم (سامر) حرفياً بالتعليمات و لم يتناول أي لحم ولا منتج ألبان لمدة أسبوع، و ظل طوال أيام الأسبوع على طهارة - هو أصلاً بعيد عن زوجته منذ شهر تقريباً، و بعد الغداء قادهم الشاب المساعد إلى إحدى الغرف الملحقة بالمسجد ليلتقوا بالشيخ (البرغواطي)...

رجل خمسيني متوسط القامة له لحية قصيرة قد غزاها بعض الشيب، يملؤه الوقار وله عينان نفاذتان، أحس (سامر) عندما التقت عيناه بهما وكأنهما تخترقان عظامه. جلسوا جميعهم أمام الشيخ وبدأ (سامر) يقص عليه حكايته والشيخ يستمع إليه منصتاً ويقاطعه أحياناً ببعض الأسئلة، حتى إذا فرغ (سامر) مما لديه التفت الشيخ البرغواطي إلى شابٍ يجلس على يمينه وملامحه تشبه ملامح الشيخ كثيراً، وقال له:

- (حسن)؛ هل أنت لها؟

فأجابه الشاب:

- بإذن الله يا أباي.

وتوجس (سامر) وحدث نفسه: هل جئت إلى هنا لكي يتدرب عليَّ المبتدئون؟

قام (حسن) وجلس أمام (سامر) ووضع يده على رأسه بدأ يقرأ بعض آيات من القرآن ثم توقف وقال (لسامر):

- منذ متى وأنت تلبس قميصك هذا؟

استغرب (سامر) لكنه أجاب:

- منذ يومين تقريباً.

- حسنٌ جداً، اخلعه!

خلع (سامر) قميصه في استسلام وهو ينظر متعجباً إلى (حسن) الذي قام و أحضر دلواً فيه بعض الماء وأدخل يده فيه أخذ يقلب الماء بأصابعه وهو يقرأ بعض آيات من القرآن، ثم قال لسامر:

- توضعاً من الماء وهو داخل الدلو ودع الماء يتساقط من وضوئك داخله.

فعل (سامر) ذلك وبعد أن انتهى من وضوئه أعطاه (حسن) مجموعة عيدان صغيرة، وكل عود مربوط حوله خيط رفيع قال له:

- امسك العيدان بيمنك وضعها على قلبك و أغمض عينيك.

فعل (سامر) كما قال (حسن) الذي أخذ يقرأ من جديد و يده فوق رأس (سامر)، ثم قال له بعد أن فرغ من قراءته:

- أعطني العيدان.

نظر (حسن) في العيدان فوجد عودين منهما وقد انقطع الخيط الذي يلف كل واحدٍ منهما، أمسك (حسن) بالعودين وقال:

- هذا سحر محبة و ذاك سحر أذى... غريبة أن يجمع من سحر لك بين المحبة والأذى، الآن نبدأ العلاج بإذن الله... الآن غطّي فوهة دلو الماء بقميصك ولفه حوله بإحكام ثم احتضنه بقوة.

فعل (سامر) ذلك فقال له (حسن):

- أغمض عينيك واسترخ تماماً.

ثم أخذ حسن يقرأ ويقرأ و صوته يعلو بالقراءة أحياناً وينخفض أحياناً أخرى، ثم أخذ يدعو الله بأسمائه الحسنى و يناجيه بما قال أنه اسمه الأعظم ثم سكت...وقال ( لسامر ):

- ارفع قميصك و انظر داخل الدلو.

شهق (سامر) و هو يرى في الماء داخل الدلو سروالاً داخلياً له وأحد جواربه، وتذكر أنهما كانا مفقودين منه وتذكر أنه فقد هذا السروال بعد ليلة كانت له في أحضان زوجته (بثينة).

- هل هذه الأشياء لك؟

سأله (حسن)، فقال (سامر) و صوته لا يكاد يخرج منه: نعم.

- ارفعها من الماء.

ففعل (سامر) ذلك فإذا به يرى تحتها عدة أحجار صغيرة لم تكن هي أيضاً في الدلو قبل أن يضع عليه قميصه، رفع (سامر) الأحجار وتأملها فوجد اسمه و اسم (بثينة) منقوشين بدقة غريبة على كل حجرٍ منهم .

- هل تعرف الأسماء المنقوشة على الأحجار؟

- نعم ، اسمي و اسم زوجتي التي أخبرتكم عنها.

-حسناً، هذه هي مادة السحر الذي صنع لك، الآن تحرق السروال والجورب و تدقُّ هذه الأحجار حتى تفتتها ثم تنثرها في الهواء.

نظر الشيخ (البرغواطي) إلى ابنه (حسن) في رضا و هو يبتسم  
ثم قال (لسامر):

- مبروك يا ولدي، ولكن خذ حذرك فيما بعد وتخير لفراشك  
و داوم على الأذكار وقراءة سورة البقرة...الآن يمكنك أن تطلق زوجتك  
بغير أن يصيبك بأس.



## ( ٥ )

خرج (نواف) من بوابة فيلته الفاخرة القابعة في حي الخزامى الراقى في (الرياض) ثقّله سيارته الفارهة عبر الشوارع الفسيحة إلى مطار الملك خالد، وبينما سائقه مشغول بالتركيز في الطريق كان هو يسترجع في رأسه مشادة الليلة المنصرمة مع زوجته (نوف).

هي اعتادت أن تفتعل معه المشاجرات في كل مرة يسافر فيها إلى بيروت) وهو لا يرى أي سبب منطقي في مشاحناتها تلك، هي تعلم أنه متزوج هناك في بيروت وتعلم أن زوجته اللبنانية تدير له مشاريعه السياحية المتناثرة في لبنان وغيرها... لكن (نوف) لم تقتنع أبداً أنه تزوجها فقط لخبراتها الإدارية في المشروعات السياحية.

لماذا تغار منها ؟ هكذا سأل (نواف) نفسه، إن الزواج بأكثر من زوجة أمر عادي في السعودية، بل كانت بعض الزوجات يخطبن لأزواجهن بأنفسهن إذا استشعرن نية الزوج في الإقدام على تلك الخطوة! فتضمن بذلك على الأقل أكبر قدر من التفاهم مع ضررتها.

لماذا تغار (نوف) إذن و الزوجة الثانية (كوليت) لا تجاورها في ربوع المملكة بأسرها؟

هل غارت لما شاهدت صورتها معه مصادفة؛ فوجدتها فاتنة ينبغي أن تُزيّن صورتها أغلفة مجلات الموضة والجمال؟

لا أظن...

هكذا قال لنفسه...

(فنوف) أساساً نموذج صارخ للجمال العربي و فتنة الشرق،  
من أول شعرها الأسود الثقيل اللامع الذي يمتد في خطوط حريرية  
طويلة تساب حول بشرة حنطية صافية كالمرآة المصقولة، تغلف قواماً  
ممشوقاً تلتف تضاريسه في عناية و سحر و لا هو بالنعيف ولا هو  
بالممتلئ، وتتراص ملامح وجهها في تناسق بديع، و تشع بينهما جوهرتي  
عينها كأصدق ما تكون عليه عيون غزال (المهأ) حين توصف بهما  
عينا غادة حسناء!

هي تعلم أنه يعيش جمالها العربي الأصيل، و تعلم حجم المنافسة  
التي دخلها مع عدد من أعيان شباب الرياض عليها حتى فاز بيدها  
من دونهم، منافسة لم يكن سلاحه الوحيد فيها ثراءه و نسبه، قال ذلك  
لنفسه و هو ينظر إلى وجهه في المرآة التي تتوسط صالون السيارة،  
ويتأمل لثوانٍ ملامحه القسيمة و لِحْيَتِهِ الخفيفة التي تبدو وكأنها  
مرسومة بالليزر في إيقان.

هو لم يقتنع بكلام (نوف) و مقارناتها بين حياته المحافظة في  
الرياض وتضييقه عليها كما تدعي و بين حياته المنفتحة - كما تقول  
هي - مع زوجته (كوليت) و خارج المملكة عموماً...

هل نَسِيتِ يا (نوف) أنك سيدة سعودية؟ خَاطَبَهَا (نواف) في  
بأله...

أنتِ بطبعك فتاة محافظة و تأبين خلع الحجاب عن رأسك، أو حتى خلع العباءة عندما تسافرين للخارج كما يفعل ذلك كثيرات غيرك وإنما تكتفين بإظهار وجهك.

هل تنتقدين تسامحي مع (كوليت) في مظهرها؟ وتقارنين ذلك بأنني لا أسمح لك بالسفر خارج المملكة في الأيام التي أغيب فيها عنك لمباشرة أعمالي؟ بين تساهلي في النقاش مع (كوليت) التي تحتد عليّ أحياناً كما تتخيلين من مكالماتي معها و بين صرامتي معك؟

أنتِ تُسمِّين ذلك تناقضاً و أنا أسميه مرونةً، فحياتي المحافظة هي الأساس الذي تربينا عليه في مجتمعنا، أما حياتي الأخرى فهي مسايرة للعالم، وهذا التساهل مني في النقاش مع (كوليت) إنما هي مناقشات خاصة بالعمل والمرونة شيء أساسي فيه.

وتذكّر (نواف) أحداث المشادة السريعة التي دارت بينهما بالأمس عقب رفضه لسفرها:

- أنت تغيب بالأسابيع وخلالها يقتلني الملل.
- أنا لا أغيب عبثاً، هذه متطلبات العمل.
- إمّا أن تأخذني معك إلى بيروت وإمّا أن تدعني أسافر عند أخي في لندن هذه الأيام.
- وأنا لا أقبل أن تشترطي عليّ، لا بيروت ولا لندن.
- أنا لا أشرط عليك، أنا أكاد أحتق من تضيقك عليّ.

ثم بدأ صوتها يختق و تحتد عباراتها وتتداخل كلماتها في بعضها كما هو المعتاد أن يحدث منها كلما تكلمت وهي غاضبة، ولم يكن عنده أي استعداد لسماع هذا اللغط الغير مفهوم من الأصوات؛ فهو مشحون بما فيه الكفاية طوال اليوم، فوضع يده تلقائياً على فمها ليوقف هذه الحشرجات التي لا يفهمها، بينما ظننت هي أنه يمنعها حتى من حقها في الكلام والاحتجاج، وأحست كأنها تختنق فنفضت يده بعيداً عن فمها في عنف، فانقطعت السبحة الثمينة التي لا تفارق أصابع يده وانفردت حباتها في الأرض...

نظر (نواف) في غيظ إلى حبات سبخته وهي تتدحرج على الأرض في كل اتجاه، فأقسم على (نوف) ألا تغادر- ليس فقط الرياض - بل حتى الفيلا حتى يعود من بيروت، وأن تُعيد حبات السبحة إلى ترتيبها التي كانت عليه...

إنها تعلم مدى اعتزازه بهذه السبحة، إنها سبحة مثيرة للحيرة؛ فلا تدري أهي سبحة أم قلادة، وحباتها الـ ٣٣ مثيرة للإعجاب بلونها العاجي الصافي ونقوشها المتقنة الغريبة الغير مفهومة، و تتوسط حباتها قطعة من حجر اليشب الأخضر محفورة بنقش غامض كالطلسم لكنه جميل...

وابتسم (نواف) في أسى وهو يتذكر ذلك اليوم البعيد الذي أهدها فيه جدّه هذه المسبحة، وأخبره يومها أنه اشتراها منذ زمن بعيد - وهو بعد شابٌ صغيرٌ - من حانوت صغير لعجوز هندي في مدينة (أحمد أباد) في إحدى رحلاته التجارية القديمة إلى الهند، وقص

عليه كيف سَخِرَ منه أهله؛ أنه صدق كلام التاجر الهندي العجوز  
عندما أخبره أنها سبحة مسحورة يعود تاريخها لمئات السنين، لكن  
أحداً لم يستطع أن يفسر تلك النقوش، ولا أن يدَّعي أنها نقوش بلا  
معنى من شدة إتقانها، وانتبه نواف إلى صوت سائقه وهو يخبره في  
أدب بوصولهم إلى بوابة صالة السفر.



## ( ٦ )

أخذت (نوف) تذرع غرفة نومها ذهاباً وإياباً و دوراً حول نفسها، تحس أن جدران غرفتها تكاد تطبق على أنفاسها برغم مساحتها الواسعة التي تقارب مساحة شقة صغيرة.. ها هو (نوف) يقسم عليها من جديد ألا تبارح سجنها - تقصد قصرها - حتى يعود من السفر، إنها ما غضبت منه مرة، أو شكّت له الملل؛ إلا و سألها:

- وماذا ينقصك حتى تكونين أسعد النساء؟

يقولها وعيناه تدوران في أرجاء القصر وكأنه يقول لها انظري لقصرك ولحياتك المترفة...

حياتي المترفة؟

هل هذا غاية ما تتمناه الزوجة؟ هل هذه هي الوعود الرومانسية التي ملأت بها أذناي أيام الخِطْبَة وأيام المِلكَة؟

وسرحت (نوف) بذكرياتهما في تلك الأيام، لقد اختارت (نوف) من بين من تنافسوا عليها؛ ليس لأنه أكثرهم مالاً وأرفعهم حساباً. فكلهم كانوا أنداداً له في ذلك؛ ولكن لأنه عرف كيف يغزو قلبها من بينهم... وصل لرقم جوالها - لا تدري كيف - وملاًه برسائل و وعود عاطفية عذراء حاملة تذيب مشاعر أي فتاة.

وبعدها جاءت هدية من لندن على أنها من صديقتها (مرام) التي سافرت بعد الدراسة الثانوية لتكمل دراستها الجامعية هناك مع أهلها، وإذا بها تفاجأ أن الهدية من (نواف)...كيف أرسلها من لندن؟ كيف عرف بأمر صديقتها (مرام)؟ لم تسأل تلك الأسئلة بعد أن تعلمت أنه واسع الحيلة، لكنها توقفت عند اختياره لهدية تناسب فعلاً أن تكون من صديقة لصديقتها، ولمستها اعتذاراته الرقيقة عن أنه لجأ لفعل ذلك كي يثبت لها أنه على استعداد لفعل أي شيء من أجلها، أنه يطلب فقط أن تُقنعَ أبيها - عن طريق أمها - أن يكون هو صاحب الفرصة الأولى في زيارتهم في بيتهم من أجل الرؤية الشرعية.

لم يكن (نواف) هو المتقدم الوحيد في هذه الأيام لخطبة (نوف)؛ فخلال ذلك العرس الجميل الذي دُيّنَ إحدى ليالي الرياض والذي حضرته (نوف)، تكلمت عليها أكثر من عشرين أم؛ كل أم تخطبها لابنها، وتكلمت عليها والدة (نواف) ومدحت له جمالها كما لم تمدح فتاة قبلها، فعرف (نواف) أنها هي التي يبحث عنها؛ فهو يعرف ذوق أمه.

وانتهز فرصة الأيام التي يستقضي فيها أهل (نوف) عن الشباب المتقدمين لخطبتها وقرر أن يطرق شباك قلبها كما طرق باب أهلها. وقد كان...وخلال شهور قليلة كانا يطيران بين باريس وجزر الكاريبي ولوس أنجلوس في شهر عسل كامل متكامل الأحلام لتعود بعده إلى أرض الواقع...

إلى زوج يقضي نصف أيامه خارج الرياض بدعوى متابعة

مشاريعه، والنصف الآخر من أيامه التي في الرياض ينفق نهارها في مكتبه، و ليلها فيما يسميها جلسات عمل، أو في أحد بساتين أصدقائه يلعبون (البلوت) بورق الكوتشينة...زوج لا يتسع يومه لأهل بيته إلا ساعة وقت الغداء وساعة أخرى أو أقل قبل النوم.

هل يستطيع أن يفعل ذلك مع هذه ال (كوليت) عندما يسافر إليها؟

قالت (نوف) لنفسها...

(كوليت) التي يظن أنني أغار منها في حين أنني أضع علامات استفهام على (نواف) الذي يضيّق عَلَيَّ بحجة أنه رجل شرقي محافظ، بينما زوجته الأخرى تلبس ما يحلو لها بل و تشرب أحياناً بدعوى أنها مسيحية و قليلٌ من الخمر ليس عندهم بحرام!

الحقيقية أنني لا أغار من (كوليت) ولكن أَحْسُدَهَا، نعم أَحْسُدَهَا، ليس على ما هي عليه من تحرر و لكن على ما هي فيه من حرية، والفرق كبير بين الحرية و التحرر... كما هو بين أن أمارس الرياضة في نادي نسائي مغلق و بين أن أمارسها في نادي مختلط وسط مزاحمة الرجال، وهي في الحالتين ممنوعة.

فحتى الصالة الرياضية النسائية التي كانت تجمعني أنا وصديقاتي نادياً و متففساً أُغلقت بدعوى أنها غير مرخصة و بعد فتاوى تقول بأن فتح باب الرياضة للنساء هو بمثابة فتح باب لخطوات الشيطان! ستؤدي بهن رويداً رويداً إلى التحلل من الأخلاق. لا زلت أذكر أيام

كنت طالبة في مدرسة (مدارس الرياض) و كنا نتساءل؛ لماذا نُحَرِّم من وجود حصص لممارسة الرياضة في حين ندرس في السيرة أن رسول الله قد سبق زوجته السيدة عائشة في الجري مرتين؟

أحسد (كوليت) لأنني وهي زوجتان لنفس الزوج لكن أنا لا أستطيع أن أغادر الفيلا حتى يعود (نواف) بعد يمين الطلاق الذي ألقاه في وجهي بالأمس؛ بسبب سبِّحَتِهِ العزيزة التي قَطَعَتْهَا رَغْمًا عني بعد أن كدت أختنق و هو يضع يده على فمي، بينما (كوليت) تروح وتجيئ بل وتسافر دون أن تستأذنه أحيانًا بحجة مباشرة العمل...العمل؛ نعم؛ لماذا لا أعمل؟ سعوديات كثيرات تعملن بينما يمنعني (نواف) منه و يسخر قائلاً:

- الـ ٧ آلاف أو حتى الـ ١٠ آلاف ريال التي سنتقاضينها من أي عمل أنتِ تتفقين أكثر منها أحياناً في جولة واحدة للتسوق.  
وكأنَّ الإنسان يعمل من أجل المال فحسب.

ودارت (نوف) حول نفسها ثم ألقت بجسدها البَضُّ فوق أحد المقاعد المتناثرة في غرفة نومها، وألقت برأسها الجميل وشعرها الذي يُطَاوِلُ خَصْرَهَا إلى الورا، فوق ظهر المقعد الوثير وسرحت في ذكرياتها البعيدة؛ ذكريات الثانوية العامة و أحلام التفوق فيها، ورغبتها بأن تلحق بأخيها في لندن لدراسة الطب هناك، وكيف غضب والدها المُسِنُّ والذي أنجبها من زوجته الثانية بعد أن تجاوز الخمسين من عمره:

- أي لندن أي طِب؟ بنت في مثل سنك و تسافر لتعيش في بلاد  
الْكُفَّار؟

- أخي يدرس هناك يا أبي، سيكون مَحْرَمِي وسأكون موضع  
رعايته.

- أخوك رجل لا خوف عليه، كما أنه لن يترك دراسته ويتفرغ  
لرعايتك، هل تريدين أن تصبحي مثل بنات الغرب المُنْحَلَّات؟

- وأين تَرَبَّيتي و أخلاقي؟ هل أنا ضعيفة لهذه الدرجة؟

- لا تتعبي حالك، لن تسافري، ثم أي طِب هذا الذي دراسته ٧  
سنوات؟ ونصف خريجاته عوانس؟ أنتِ يَأْتِيكِ الخطاب منذ سنوات.

بَكَتْ...تَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَهَا تَدْرُسَ الطَّبَّ فِي الْمَمْلَكَةِ...سَأَقَتْ  
عليه أعمامها و أخوالها فلم يستجب الأب لشفاعته من رضي منهم أن  
يشفع لها عنده، وبالكاد وافق الأب أن تدرس في إحدى الكليات النظرية  
في جامعة الملك سعود، لأنَّ الدراسة النظرية لا تستغرق سوى ٤ سنوات،  
والذي أفتق الأب بذلك أن شباب الطبقة الراقية هذه الأيام لا يُقْبَلُونَ  
على الفتاة الغير جامعية...إنَّ فتاة في جمال (نوف) و في حَسَبِهَا جديرة  
بعريس يُسْكِنُهَا قَصْرًا...هكذا فكر الأب، فلا بأس إن وافق - على  
مَضَضٍ - على التحاقها بالجامعة مثل بعض بنات أعمامها وأخوالها.

لا الدراسة التي كنت أتمناها ولا الحب الذي كنت أحلم به...  
خاطبت نوف نفسها...

ويحسدونني على حياة الترف التي أحيها، مع أنهم لو خيروني  
لاخترت مثلاً أن أتبادل حياتي مع (نورة) ابنة خالي التي تعمل مُدرّسة،  
وتساهم في تكاليف الحياة مع زوجها الذي يعمل مدرساً أيضاً في  
إحدى المدارس الأهلية وراتبه لا يكاد يصل إلى ٤ آلاف ريال، لكنها  
ما زارتها مرة في بيتها؛ إلا وأحسَّت بالدفء الذي فيه وبالسعادة التي  
تملؤه، هي طبعاً لا ترى زوجها أثناء الزيارة، لكن السعادة كائن حي  
إذا سكن بيتاً فإنك ستسمع ضحكاته بمجرد دخولك باب هذا البيت،  
والزوجة السعيدة تشع عيناها بنظرات الرضا التي لا تُخطئها عينا  
امرأة حالها كحالي.

...

## ( ٧ )

(حسن) ابن الشيخ (محمد البرغواطي) ووريثه في علمه ومجلسه، لكنه لا يزال في بداية ذلك الطريق، فقد أظهر منذ صباه شغفاً بعلوم والده؛ فاجتباه أبوه لذلك من بين أبنائه و بدأ يعلمه ما يصلح لسنته، فحفظ القرآن صبياً و تعلم الرقية الشرعية وهو دون ال ١٥ من عمره، ومارس الرُقِيَّة و فك السحر والمَسُّ وهو دون ال ٢٠، وسمح له أبوه - برغم صغر سنه - بدراسة مجموعة ابن سينا، ومنبع أصول الحكمة، وشموس الأنوار، والجواهر اللماعة وغيرها من الكتب المماثلة، ثم درس كتاب الضمياطي وكتاب الاسترأبازي، وعلمه أبوه كيف يكون على حذر من هذه الكتب ففيها الصالح والطالح، وعلمه كيف يفرق بينهما وينتقي مما فيها، وعلمه أنها علوم شائكة؛ شريفة في نفسها لكن السلامة فيها وعرة، وحذره أنها علوم يشقى بها صاحبها لكن لا بد لها من حامل يحملها!

علومٌ لا تنبغي لمن يطلب بها المكاسب أو المكارم، وإنما لمن يقدر على تحمل ما ورائها من أعباء ومغارم.

علومٌ تطلب صاحبها ولا تكون لمن يطلبها.

ولما اطمأن إلى رسوخ علمه لَقَّنَه السحر الأسود و سحر القبالا وسحر الفودو؛ لا ليمارسها ولكن ليعالجها، كما يتعلم الصيدلي أنواع العقاقير والسموم.

والليلة بعد أن نجح (حسن) في فك سحرِ أسود من أعمال الرهيب (أورهايون) وتعافى (سامر) منه في جلسة واحدة فقط للعلاج؛ فقد طلب منه والده أن يختليا في المسجد بعد العشاء. وكم كانت فرحة (حسن) بذلك غامرة، فلا بد أن (الشيخ البرغواطي) يراه الآن أهلاً لأن يطلعه على (خزائن الأسرار)!

تلك الخزائن المخبوءة في قبو المنزل والذي لا يدخله سوى الشيخ (البرغواطي)، والتي تحوي بين دَفَاتِهَا أسرار بحور هذه العلوم والتي لا يزال (حسن) يسبح على شواطئها الضحلة... لا بد أنها الليلة الموعودة التي طالما حلم بها (حسن) ليبدأ والده في الأخذ بيده إلى الأعماق والأغوار من هذه البحار.

وجلس (حسن) ينتظر قدوم والده، أخذ يتذكر ذلك الحوار الذي دار له مع والده منذ سنة وهو يمهّد له أنه قد اقترب من ولوج مفاتيح خزائن الأسرار:

- هل تذكر ما قلته لك عن طبيعة علومنا هذه؟
- نعم بالتأكيد يا أبتِ.
- قل لي ما تذكره عن طبيعتها.
- نحن لا نُسَخِّرُ الْجَانَّ وَإِنْ كُنَّا نَتَلَقَّى الْمَسَاعِدَاتِ مِنْ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، لَكُنَّا فِي الْأَسَاسِ نُسَخِّرُ قُوَى الطَّبِيعَةِ عَنْ طَرِيقِ قَوَانِينِهَا الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ فِيهَا.

- وما هي هذه القوى؟

- هي قوى ومجالات طبيعية للنجوم والكواكب، وقوى أخرى للنفوس والأرواح، وثالثة للحروف والأعداد... قوى هائلة مُودَعَة فيها، ولها سُنَنها وقوانينها بالضبط كقوانين الفيزياء والكيمياء، من تعلمها بأصولها أطاعته و لكن لها خطورتها وفتنتها.

- عظيم جداً، وماذا تختلف قوانين هذه القوى عن قوانين العلوم المعهودة بين الناس؟

- تختلف بأنها ليست علوماً تطبيقية ولا تجريبية؛ وبالتالي لا يمكن معرفتها بالتجربة والملاحظة، وإنما هي علوم تلقينية متوارثة عن طريق هاروت وماروت و سيدنا الخضر و...

وقاطعه والده محتدأ:

- أنا قلت لك أنها متوارثة عن مَلَكِيِّ بَابِلِ أَوْ عَنْ سَيِّدِنَا الْخَضِرِ أَوْ غَيْرِهِمْ؟

ارتبك (حسن) قليلاً و قال:

- لا لم تقله لي صراحة ولكني استشفيتُ ذلك مما درست من الكتب ولمحته أيضاً من بعض كلامك.

- وأنا سألتك عما تعلَّمته مني بشكل صريح وليس عن تخميناتك.

اكتسى وجه (حسن) ببعضٍ من ملامح الحيرة وسأل أباه:

- إذا لم تكن متوارثة عنهم فَمِمَّنْ ورثاها إذن؟

- أنا لم أنفِ أننا ورثاها منهم و لم أؤكد ذلك، وستعرف كل شيء في وقته...والآن أكمل.

ابتلع (حسن) ريقه ثم قال:

- نحن في عصرنا الحديث و برغم كل ما فيه من تقدم وتقنية إلا أنَّ البشرية لا تعرف إلا القليل من قوانين الكون العلمية والتي بواسطتها وصلنا لكل هذه المخترعات، فلا معنى للشك في وجود هذه القوى الأخرى.

- وما حاجتنا أنا أو أنت لتأكيد هذا المعنى؟

- حاجتنا أن تسخير هذه القوى مرتبط باليقين بوجودها والإيمان بقوانينها، لا نفع لاستحضارها لمن يشك في صحتها وفعاليتها.

هَزَّ الأب رأسه قليلاً ثم قال:

- ليس ذلك فحسب، إن هذه العلوم تحتاج أيضاً لطاقة نفسية معينة لتَحْمُلُها، تحتاج لإيمانيات وقرب من الله، ففيها من الفتوح ما يفتحه الله على أصفياؤه.

- إذن فهذه الطاقات لا تُسَخَّرُ إلا للمؤمن؟

- ليس شرطاً بالطبع، فأبسط مثال لهذه القوى هو الحسد الذي هو طاقة نفوس سلبية، أو كمثال الطاقة الإيجابية التي في الممارسات الروحية كاليوجا أو في التخاطر عن بُعد؛ كل ما سبق يمكن أن يحدث

لمن هو غير مؤمن بالله أصلاً. بل إنك ستجد في قصة (السامري) الذي كان من قوم (موسى) عندما قبض قبضة من أثر الرسول أنه استعمل أحد هذه القوى فأطاعته، فبرغم أنه أخذ شيئاً مباركاً وهو أثر فرس سيدنا (جبريل) في الأرض و استعمله في أكبر معصية وهي الشرك بالله إلا أنها أطاعته؛ لأنها سنة الله التي كتبها.

- حيرتني يا أبي؛ فأني استعداد إيماني إذن و ما لزومه؟

- أنا أحدثك عما هو فوق التسخير أو الاستخدام، أكلّمك عما يمكن أن تسميه البركة، عن أن تتناغم مع هذه القوى في عبوديتها لربها فتصير كأنك منها، تأتيك طائفة بلا تكلف، يكون هواها معك إذا زاحمك فيها غيرك.

وأفاق (حسن) من ذكرياته على صوت أبيه وهو يقول له وكأنه كان يقرأ أفكاره:

- وهذه البركة وهذا التناغم هو بالضبط ما طلبتك من أجله الليلة!

دق قلب (حسن) في عنف؛ فقد حانت اللحظة التي ينتظرها منذ سنوات، ونظر إلى أبيه الذي قال:

- أنت الآن في الـ ٢٥ من عمرك، أتقنت خلالها كثيراً من مبادئ ما أنت مقبل على تعلّمه، ولكن ما ينتظرك يحتاج طاقةً واستعداداً، وهذه العلوم لا تلقى إلا لمن بلغ الـ ٣٢ من عمره وكان أهلاً لحملها.

وأحس (حسن) بقلبه يغور في الأرض و بالدماء تتسحب من رأسه؛  
فقال وصوته يكاد يختنق:

- وكل ما تعلمته يا أبت لا يجعلني أهلاً لحملها؟

- الحكمة غير العقل، والخبرة غير الدراسة، والبصيرة غير  
الذكاء، ولن تتلقى هذه العلوم قبل أوانها؛ فهي أثقالٌ إن طرحت فوق  
كتفي من لا يطيق حملها قصمت ظهره.

- وماذا أصنع طوال هذه السنوات الثمانية؟

- إن ما هو مطلوب منك الآن يا ولدي أشق بكثير مما مضى،  
أن تسمو بنفسك فتؤهلها لتحمّل ما سيُلقي عليها، أن تبحث وراء كل  
نقائصك وتعالجها، أن تُعوّد جسمك الزهد وعقلك التركيز ونفسك  
الرُقيّ وروحك الخلوة، وأعلم أن هذه السنوات الثمانية مليئة  
بالاختبارات الخفية بغير أوانٍ محدد لها ولا سابق إنذارٍ بها، وليس  
أمامك إلا النجاح فيها، ففرصتان فقط للفشل كفيلتان باستبعادك عن  
طريق العلوم هذه.

- أهدأ كل شيء؟ لقد ظننت حين طلبتني الليلة أنني...

قاطعه أبوه من جديد وقال:

- لا تظن أن ما قلته لك أمر يسير، إنها الخطوة الأصعب لو كنت

تدري.

- وخلال هذه السنوات الثمانية، ماهي وظيفتي؟

- اَنْتَقِنَ مَا تَعْلَمُ وَ مَارَسَ مَا تَتَقَنُ وَ سَاعَدَ مَنْ يَحْتَاجُكَ، الْعُلُومُ  
يَا وَلَدِي كَالْبَحُورِ؛ لَا تَصْنَعُ بَحَارًا مَاهِرًا إِلَّا مِمَّنْ يَلْجُ بِسَفِينَتِهِ أَعَالِي  
الْبَحَارِ، مَطْلُوبٌ مِنْكَ أَيْضًا أَنْ تَتَعَلَّمَ بَعْضًا مِنَ الْعِبْرِيَّةِ وَالْفَارْسِيَّةِ  
وَالهِنْدِيَّةِ، فَكَثِيرٌ مِنَ الطَّلَاسِمِ مَكْتُوبَةٌ بِهَذِهِ اللُّغَاتِ.

وتمتم (حسن) في خيبة أمل:

- وهذا كل شيء؟

قام أبوه من مجلسه إيدانًا بانصرافهما وهو يقول:

- وإنه لأمرٌ لو تعلم عظيم.

...

## ( ٨ )

منذ أن ابتكر (جوزيف) الشخصية الكرتونية (العفريت دامون Demon Damon) وهو بعد لا يزال طالباً في الجامعة، ثم باعها لشركة Pixar المتخصصة في إنتاج أفلام الرسوم المتحركة؛ وحياته تغيرت بشكل جذري، وجد نفسه مليونيراً من حصيللة استغلال هذه الشخصية في الفيلم المنتج باسمها، و في بضعة أشهر دخلت خزائنه عدة ملايين من الدولارات كحصته المتفق عليها من شباك تذاكر الفيلم، هذا غير ما يتقاطر فوقها كل شهر من حصيللة بيع البوسترات و التذكارات وحقوق البث التلفزيوني للفيلم.

حدث له كل ذلك و هو بعد لا يزال في سنته الأخيرة في الجامعة حيث كان يدرس الأنثربولوجيا في جامعة مدينته (سياتل)؛ تلك المدينة الأمريكية الساحرة التي تضارع في جمالها أرقى مدن كندا وشمال أوروبا.

وبعد أن كان يفكر في استكمال دراساته العليا في الأنثربولوجيا الذي يستهويه منذ مراهقته قرر أن يدرس ذلك عملياً؛ بأن يسافر مشارق الأرض ومغاربها ليدرستها و لكن من وجهة نظر سياحية أكثر منها علمية، وأن يتخصص في أنثربولوجيا النساء!

(جوزيف) ساحر نساء منذ مراهقته، ساعدته وسامته العالية في مصاحبة فتيات بلا عدد، هو ذوّاقَة أصيل لهن، أما وقد هبطت

عليه الملايين من السماء؛ فقد قرر أن يزور مطابخ الأرض التي تشتهر بإنتاج أشهى صنوف المرأة، الأمر بالنسبة له ليست مجرد شهوة تذوق، بل تتعدى ذلك إلى شغفه في دراسة المرأة، مثلها مثل شغفه بدراسة حضارات الإنسان و ثقافات الشعوب، و كما يجمع تذكارات أثرية أو حضارية أو ثقافية من كل بلد يزوره فإنه يحرص كذلك على جمع تذكارات عاطفية، و تكاد تختمر في عقله نظرية علمية تربط بين ثقافة كل بلد وبين مطبخها الغذائي و بين طعم الحب فيها!

بقيَ ذلك السؤال الذي يحير عقله منذ صباه وقرر أن يترث في الإجابة عليه لعله يعثر على جوابه في رحلة ما إلى بلد ما...أين الله إن كان ثمة إله!

كاد جوزيف أن يكون ملحداً في بداية شبابه، لكن عقله لم يستغ أبداً أن يكون كل هذا الذي نراه حولنا هو محض صدفة أو نتاج تلقائي لنظرية تطور أو انتخاب طبيعي...

قرأ كثيراً عن الجينوم البشري و عن نظرية الانفجار الكبير ونشأة الكون، فتيقن أن هذه الأوركسترا الرهيبة لابد لها من مايسترو يقودها...من مؤلف وضع ألحانها...من صانع وهبها آلاتها الموسيقية المعقدة.

لم يفتتح أبداً أن فرضيات الصدفة والاحتمالات التي يتضاءل احتمال حدوثها حتى يقترب من الصفر أن تكون هي المتكررة دائماً لتكون وراء كل مظاهر الحياة حولنا وفي الكون فوقنا.

العلم وبعد أن ظن أنه قد أحكم تصوراً عقلياً وميكانيكياً للكون  
وللمادة، فوجئ - بعد أن تعمقت دراساته - أنه لا يعلم إلا القليل، لا  
يعلم إلا تجريدات مترجمة في معادلات و رموز، مجرد أوصاف بمحض  
كلمات لا تبلغ أبداً حد اليقين من أي شيء ولا تصف بدقة أي شيء...  
بات العلم لا يعرف هل المادة هي مادة حقاً أم مجرد شكل من أشكال  
الطاقة والموجات.

كل اليقين العلمي يُنسفُ نفساً بمزيد من التعمق في المعرفة،  
أصبحت المعرفة نسبية والعالم كله نسبي بل والإنسان نفسه نسبياً.

أصبح التفسير الوحيد للوجود عند (جوزيف) الذي يقبله عقله  
هو وجود مهندس أعلى لهذا الوجود شديد التعقيد، ولكن أين أنت  
منا أيها المهندس الكبير؟ دائماً ما تساءل جوزيف: لماذا لا تتجلى لنا  
وتريح عقولنا بأجوبة حاسمة؟ لماذا تترك الشر والشك ينهشان أركان  
اليقين بداخلنا؟

نعم...هي معضلات الشر و الظلم التي طالما دفعت عقله بعيداً  
عن فرضية وجود الإله و عن تصديق كلام الأديان لكنه لا يلبث أن  
يعود متسائلاً: إذا كانت كل الكائنات وكنا معهم مجرد خطوات في  
سلم التطور والانتخاب الآلي؛ فما الداعي لوجود المعاني والأحاسيس؟  
ما الحاجة للحب...للخير...للجمال...للفن...للروحانيات؟ كيف نشأ  
الذكاء؟ كل هذه اللاماديات كيف تنشأ من تطور مادي بحت؟ بل ما  
تفسير نزعة التدين الغالبة على كل أجناس البشر؟

هل خلق الله العالم و وضع له قوانينه ثم تركه يعمل آلياً وانصرف  
لشأن آخر تاركاً البشرية تكابد الشرور والأذى؟

ويدور عقل (جوزيف) في متاهات تساؤلاته تلك و في دوامات  
حيرته، فقرر أن يضيف هدفاً آخر إلى أهداف رحلته؛ بحثٌ دقيقٌ عن  
الإله في أرجاء هذا العالم بعد أن عجز عن العثور عليه بين صفحات  
كتب الأديان التي قرأ فيها ولم يقتنع بأي دين منهم.

وهكذا فإن (جوزيف) مليونير أمريكي شاب في منتصف العشرينات  
من عمره يطوف بلاد الدنيا ليجمع من كل بلد تذكراً أصيلاً من  
ثقافتها وقصة حب من مطبخ نساءها و يحمل أسئلةً وجوديةً تبحث  
عن أجوبتها.



## ( ٩ )

استيقظ (يوسف) صبيحة ذلك اليوم الموافق للذكرى ال ٣٥ ليوم مولده، يوم ليس له أي معنى عنده سوى أن يُذكَّرَه بِعَدَدِ عمره الذي يدور في دوائر فراغية تتمحور حول اللاشيء!

نظر (يوسف) لوجهه في مرآة الحمام المغمشة بفعل الزمن المار عليها وبسبب رداءة خاماتها، وأخذ يتأمل ذقنه التي لم يمر على حلاقتها أكثر من أسبوع؛ هل يحلقها اليوم كمظهر وحيد للاحتفال بعيد ميلاده؟ أم يظل على عادته فلا يحلقها إلا مرة كل أسبوعين توفيراً للجنيئات القليلة ثمن أمواس ومعجون الحلاقة؟

كاد أكثر من مرة أن يريح نفسه ويربيها استجابة لكلام شيخ المسجد الذي في حارتهم عن مشروعية إعفاء اللحية، لكنه لا يحب المشاكل، صحيح هو ميال للتدين ويغض بصره ما استطاع ويلتزم بصلاة الجماعة أحياناً في المسجد لكنه من النوع المُسَالِم الذي لا يطيق أن يشتهه في لحيته مُخَبَّر أو يأخذه أمين شرطة إلى قسم البوليس كإجراء للتحريات، خصوصاً وأن ملابسه البسيطة لن توجي لأحد منهم بأن عليهم احترامه، أو أنه قد يكون ابن عائلة فيها من أصحاب المناصب من يذود عن قفاه هذه الإجراءات!

وأخيراً قرر حلاقتها؛ لأنها تعطيه عمراً أكبر مع ملامح وجهه متواضعة الوسامة والتي تستجيب بسرعة لعوامل السن والزمن.

وتأمل يوسف ملامحه بعد الحلاقة، إنها الشيء الوحيد الذي يتغير في حياته، فلا شيء تغير تقريباً منذ تخرجه في كلية الآداب قسم فلسفة بجامعة (القاهرة)، فلم يلتحق بالتجنيد لكونه ابناً وحيداً لوالديه مع أخته الوحيدة (سارة)، وكغيره من أبناء الطبقة الكادحة لم يجد يد الواسطة التي تضعه على السلم الوظيفي لأي وظيفة، فجرب أعمالاً شتى: مدرس بالحصّة، و دروس تقوية للطلبة في المسجد القريب من منزله المتواضع في أحد الحارات المزدهمة في حي (مصر القديمة) في القاهرة، و بائع في محل ملابس... إلى آخر ذلك من أعمال هامشية لا يذكر عددها .

وهكذا يميل مع الحياة يميناً ويساراً حتى يتلقّط رزقه منها، أو على الأقل مصروفه الشخصي اللازم لحياة شاب لا يصح أن يشارك أمه وأخته - التي لم تتزوج بعد - في معاش والدهم الذي يسترهما بالكاد .

لم يُورث لهم الأب بعد وفاته إلا هذا المعاش و الشقة القديمة الضيقة التي تسترهم بين جدرانها، ولم ينفرد يوسف بشيء من ميراث أبيه إلا بتلك السبحة التي كانت لا تفارق يد الوالد حتى وفاته، وكان يعتقد لسبب ما أنها سبحة ذات قيمّة في حين كانت أسرته تعتبر ذلك الاعتقاد نوع من التعويض النفسي عن خسارته التي عاد بها من العراق!

فأيام غزو العراق للكويت كان الأب وقتها يعمل في العراق مدرساً للغة العربية، ووقع الغزو كالصاعقة عليه وعلى كل العاملين المغتربين

هناك، وبدأت سُحْبُ الحرب تتجمع في سماء الخليج العربي، فقرر الأب أن ينفذ بحياته قبل اندلاعها، ولأنه كان يعلم أن الهروب بَرًّا عبر الحدود إلى سوريا محفوف بالمخاطر و بالتفتيش وبالرشاوى، فقد وزع ما بحوزته من نقود بين عدة أماكن سرية، ولسبب ما اقتنع أن هذه السبحة التي كان قد اشتراها من (سوق الهرج) العتيق في بغداد تستحق أن يحملها مع ما استطاع حمله من أمتعة خفيفة، وكما توقع الأب فقد فُقدَ معظم ما كان معه من نقود ونجت السبحة مع ما نجا من أمتعته.

إنها سِبْحَةٌ مثيرة للغيرة فلا تدري أهى سبحة أم قلادة، وحياتها الـ ٣٣ مثيرة للإعجاب بلونها العاجي الصافي وبما فيها من نقوش متقنة وغريبة غير مفهومة، وتتوسط حباتها قطعة من حجر اليشب الأخضر محفورة بنقش غامض كالطلسم لكنه جميل.

وبعد أن أفاق الأب من صدمة الغزو وأحوال رحلة العودة وضياع ثمرة تَعَبِهِ هناك وانقطاع الزرق الذي كان في العراق، وبعد أن بدأت سُحْبُ الأحزان تنقشع من على ملامح وجهه، وبدأ يعرف طعم الابتسام مع الوقت الذي يداوي أي جرح، بعد كل ذلك صارت السبحة هذه موضع تَدْرُّ أسرته:

يا لها من سبحة ثمينة كلفتك سنين عمل في أرض الغربة.

وكان الأب يُصِرُّ - ربما من باب مواساة النفس - أنها سبحة قِيَمَةٌ بل و أثرية مباركة، وصدَّقَ بائع سوق الهَرَجِ عندما أخبره بكل ثقة أنها

سبحة عُثِرَ عليها في مغارة (هاروت و ماروت) التي يبَابل بأرض العراق،  
وأنها - لسبب لم يستطع الأب معرفته - غَفَلَ من وجدها عن قيمتها  
حتى صارت إلى يد الأب، وأصبحت هذه السبحة لا تزارق يد الأب  
وكانه يستعيز بها عن تعب السنين الذي ضاع.

لكن هذا التَدْرُّ تحول بعض الشيء إلى اهتمام عند (يوسف)  
عندما بدأ في دراسة الفلسفة، أحس أن نقوشها قد تكون ذات معنى،  
وعرَضَها على أحد أساتذة قسم الآثار في كلية الآداب؛ فقال له إن  
بعض النقوش عبارة عن أحرف سومرية لكن عدا ذلك ليس له معنى  
يعرفه.

وبعد وفاة الأب ورث (يوسف) هذه السبحة كعادة الأُسَر المصرية  
أن يرث الذكور أغراض الأب الشخصية بينما ترث الإناث مصاغ الأم  
وأغراضها، أصلاً لم يجد (يوسف) من يشاركه الاهتمام بهذه السبحة  
سواءً أمّه أو أخته، وإنما اعتبرت الأم أن ابنها قد ورث من أبيه بعض  
جنونه في الاهتمام بهذه السبحة.

ولم يُفَرِّطَ (يوسف) بسهولة في السبحة برغم أنه عرضها للبيع  
أكثر من مرة؛ عندما كانت تضيق عليه أموره المالية الضيقة أصلاً،  
عرضها على تجار البازات ومحلات العاديات في (حي مصر القديمة)  
حيث يسكن، ثم عرضها على تجار خان الخليلي، فلم يحصل إلا على  
أرقام زهيدة لم تتجاوز الألف جنيه في أكثرها سخاءً، لكنه كان يوقن  
أنها تساوي أضعاف هذا المبلغ.

- آه لو كنت فقط أعرف قيمتها أو ما تعنيه رموزها؟

هكذا كان يسأل نفسه و ينفخ في ضيق، حتى جاءه الفرغ عن طريق صديقه (وليد) الذي يعمل في أحد بازارات مصر القديمة:

- سائح أمريكي؛ شاب صغير لكنه مليونير، لقد اشترى أمامي بَرْدِيَّةَ فرعونية ب ١٠ آلاف دولار، ويبدو أنه قد يهتم بِسَبْحِكَ تلك، لكن الشاب برغم حداثة سنِّه إلا أنه يبدو خبيراً بهذه الأمور و يُفَرِّقُ بسهولة بين البردية الأصلية والمزيفة، لقد زار نصف بلاد العالم كما يقول، كما أنه دارس للأنتروبولوجيا .

- على الله أن أجد من يقدرها حق قيمتها، أنا فعلاً بحاجة لأي مال أبدأ به أي مشروع مهما كان تافهاً .

- ونعم بالله، لكن لي نصيبي وسمسرتي ١٠ ٪ من قيمة البيع، بالمناسبة اسمه (جوزيف) مثل اسمك عندما تُترجمه إلى الإنجليزية.

- حتى و لو كان اسمه (عفركوش) المهم أن يدفع بسخاء ولا يبخسها كتجار العاديات عندنا .

بالفعل أثارَت السبحة اهتمام (جوزيف) و إن كان مثل (يوسف) لم يفهم منها شيئاً، لكنه قال إن نقوشها أصيلة و بديعة و خاماتها واضح أنها عتيقة جداً. وبدون مفاوضات طويلة دفع (جوزيف) ٢٠ ألف جنيهًا مصرياً .

وكأنها طاقة القدر وفتحت بابها (ليوسف)، فاشتري التوكتوك  
الذي كان يحلم بامتلاكه! والآن يمكنه أن يبدأ في ادخار المال كنواة  
لزواجه الذي قد يحدث يوماً ما .

وأخيراً صار يوسف بعد أكثر من عشر سنوات من تخرجه في  
الجامعة... صار من أصحاب الأملاك والمشاريع!



## (١٠)

كان عقل (حسن) لا يتوقف عن التفكير، يكاد يُجَنّ من شدة الفضول؛ لمعرفة ما تحويه خزانات الأسرار هذه، وبعد أن ظن أن جلسته مع والده ستكون الدرس الأول، إذا به يخبره بخبرٍ كالصاعقة؛ أمامك ثماني سنوات من تزكية النفس حتى تتم ال ٣٣ من عمرك، ثم تبدأ في حمل مفاتيح هذه الخزانات!

الفضول يقتله من اليوم فكيف الانتظار طوال هذه الأعوام؟ إنه يود أن يُلقِي ولو نظرة...مجرد نظرة على شكل هذه الخزانات دون النظر في محتواها.

ولكن...ما المانع؟ إنَّ والده ينهاه أن يتعلم ما فيها من علوم وأسرار، حَسَنًا...سننتظر موعد التعليم ذلك، لكن سأكتفي الآن بأن أُلْقِي عليها نظرة فضول من بعيد، تمامًا كما كنت أفعل و أنا صغير عندما ألقى نظرة فضول طفولية على مكتبة أبي، وأدواته فكان يسحبها مني في رفق ويقول لي ستتعلم كل شيء في أوانه، أنا الآن متشوق لتعلم ما في خزانات الأسرار فما الضرر أن ألقى نظرة فضول عليها؟

طرد (حسن) هذا الهاجس من رأسه عدة ليالٍ، حتى استبد به حب الاستطلاع ذات يوم فقرر التسلل إلى هناك وليكن ما يكون... نظرة عابرة لن تضر.

ولكن كيف السبيل إليها؟ إنَّ الخزانات في غرفة القبو المغلقة أسفل المنزل والتي لا يدخلها إلا الشيخ ولا يعرف (حسن) أين مفاتها، حسناً... فليحاول البحث عن المفتاح محاولة سريعة، فإن وُفِّق إليه على الفور فهي إشارة له بالمُضِيِّ قُدُماً في فضوله وإلا فهي إشارة عكسية.

ما هو أوقع مكان يمكن أن يضع فيه الشيخ هذا المفتاح؟

- الأقرب أنه في شكمجية أوراقه الخاصة التي في درج مكتبه الذي في غرفة مكتبته العتيقة... حسناً، إن لم أجد المفتاح فيها سأصرف النظر عن هذا الفضول الذي لا يطمئن إليه قلبي.

واستغل (حسن) فرصة دخول والده للاستحمام فتسلل على وجل إلى مكتبة والده، وعبث في درج المكتب فوجده غير مغلقاً بالمفتاح... فتح الشكمجية وبيد مرتعشة قلب بين محتوياتها؛ فوجد بالفعل مفتاحاً كبيراً يرقد في قاعها، دسه في جيبه وخرج من الغرفة مسرعاً.

نزل (حسن) سلالم القبو ووقف أمام باب الغرفة في تردد وقلبه يكاد يشق صدره من عنف ضرباته، لكنها لحظات قليلة من التردد استجمع خلالها أنفاسه و دس المفتاح في قفل باب الغرفة وفتحته... دفع (حسن) الباب في هدوء مخافة أن يصدر صريراً عالياً كما هو المعتاد من الأبواب الثقيلة التي لا تفتح إلا نادراً لكنه استغرب أن الباب لم يصدر عنه أي صوت.

دخل (حسن) الغرفة و أغلق الباب خلفه وبحث عن مفتاح إضاءة الغرفة لكنه لم يجد للغرفة أي مصابيح لإضاءتها. أضاء كشاف هاتفه

المحمول وأداره في الغرفة مستكشفاً إياها؛ الغرفة بلا مصابيح ولا نوافذ ولا أي فتحات تهوية، والغريب أن هواءها غير فاسد ولا متغير الرائحة بل تفوح منه رائحة أشبه برائحة حبة البركة حينما تحرق كبخور.

الغرفة خالية إلا من صناديق ثلاثة كبيرة تشبه صناديق كنوز قراصنة البحار كما كان يشاهدها في أفلام الرسوم المتحركة وهو صغير.

همّ (حسن) بالانصراف مكتفياً بهذا القدر من الفضول الذي قد لا تُحسّن مَعْبَتَه، لكنه قال لنفسه: وماذا صنعت إذن؟ التفت إلى الصناديق الثلاثة متحيراً ثم اقترب منهم، الصناديق بغير أقفال عليها، مجرد رتاج صغير يفلق غطاء كل صندوق منها.

اختار (حسن) أقرب الصناديق إليه وقرر أن يلقي نظرة خاطفة عما بداخله، فتحه ببطء و نظر بداخله فوجد مخطوطاً ضخماً يبدو عتيقاً جداً، وسبحة غريبة الشكل ذات خرزات عاجية اللون ويتوسطها حجر يشب أخضر وكلهم عليهم نقوش كأنها الطلاس، وقارورة ماء مُحْكَمَة الإغلاق وعدة صخور صغيرة ملساء في غاية الصلابة وشديدة السواد كأنها قرون الخروب.

أمسك (حسن) المخطوط الضخم بتردد فوجده أثقل بكثير مما يوحي به شكله و حجمه، قرأ عنوانه: (زهر آصف) وجد العنوان كأنه محفور بعناية في غلاف الكتاب الجلدي السميك، و مكتوب بحبر غريب

و كأنه يُضيء ذاتياً كأنه حبر فوسفوري، و تحت العنوان الكبير مكتوب بخط أصغر (قال الذي عنده علمٌ من الكتاب).

ولأن الفضول مثل الوحش يسهل أن تقتله وهو صغير ويصعب ذلك كلما تُرك لينمو و يكبر، لهذا أخذ الفضول (حسن) إلى مراحل أكبر؛ فقرر أن يلقي نظرة عابرة داخل الكتاب، فتح غلاف الكتاب بحذر فإذا به يصدر طقطقة ثم صريراً عالياً كأنه يفتح باب حظيرة ضخم صدأت مفاصله.

الصفحة الأولى عبارة عن رسوم باهتة... ما هذا؟ إن الرسوم تتحرك!

هكذا قال (حسن) وهو يجد بالفعل هذه الرسوم تتجمع وتتصاعد في الهواء كأنها دخان، ثم تشكلت على شكل رجل عملاق يطاول برأسه سقف غرفة القبو و ينظر (لحسن) في فضول و يبتسم ابتسامة طفولية ولا ينطق بحرف.

جفل (حسن) قليلاً وهو المعتاد على صرف الجآن والشياطين لكنها لم تسبق أن حضرت له من داخل كتاب!

تمتم (حسن): سلامٌ قولاً...

فوجد المارد يردد: من رب رحيمٍ

استغرب (حسن) للحظات لكنه بدأ يفطن لحقيقة ما يجري فقال:

- وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين.

وسكت، فأكمل المارد: وأعوذ بك رب أن يحضرون.

فبدأ (حسن) يتلو آية الكرسي فوجد المارد يقرأ معه، فتوقف في منتصف الآية و قال له:

- أنت مسلم؟
- أنت يا شيخ (حسن) من تسأل هذا السؤال؟ كيف وأنت ابن كبيرنا و وارث مكانته بإذن الله.
- إذن فأنت...وسكت (حسن) كأنه يستتطق المارد الذي رد عليه بالفعل:
- أنا (برقان) حارس كتاب (زهر آصف) و حامل طلاسم خزانة الأسرار هذه.
- و مم تحرسهم؟
- أحرسهم في حالة إن فتح الخزانة من لا يحق له فتحها، فإمّا نجحت في درئه عنها وإمّا أحرقت الكتاب قبل أن يستولي عليه.
- وأنا فتحت الخزانة والكتاب قبل أن يأذن لي أبي أو يحكم الله لي؟
- لست منهم يا شيخ (حسن)، أنت تعلم جيداً من لا ينبغي لهم الاقتراب منها.

- إذن فعلى الأقل أنا أخطأت في تحضيرك قبل الأوان وسأندم؛  
لأنني لا أعلم القراءة التي تصرفك.

- الأمر أبسط من ذلك، يكفيك أن تفتح غلاف الكتاب ثم تغلقه  
ثانية، و لكن لم العجلة؟ دعني أحدثك عن بعض ما في هذه  
الخزانة من أعاجيب محبوسة، ولست أدري لماذا هي محبوسة  
مع أنها قد تغير وجه الدنيا!

لكن (حسن) فتح الكتاب ثم أغلقه فاختمى المارد بالفعل داخل  
الكتاب، وأسرع حسن بإعادة الكتاب إلى خزانته و إغلاق الخزانة  
والقبو من بعدها، ثم أعاد المفتاح إلى شكمجيته التي كان يرقد داخلها  
في سلام.



## ( ١١ )

الفضول ليس فقط كالوحش ينبغي أن تقتله وهو صغير، بل هو كالفتنة لا بد من وأدها قبل ولادتها، فهذا هو الفضول يأكل صدر (حسن) لمعرفة ما كان يريد المارد أن يحدثه عنه، ولأن يده قد عرفت طريق المفتاح و قدماه عرفت طريق غرفة القبو؛ فلم يكن مُستغرباً أن يعاود الكَرَّةَ في الليلة التالية، ولم يفاجأ به المارد وإنما قال له بعد أن فتح كتاب (زهر آصف) من جديد:

- كنت واثقاً من عودتك، فلا أحد يصبر كل هذه الأعوام على هذه الأسرار المذهلة بينما هي في متناول أصابعه.

سكت (حسن) كأنه يفوت على الجني فرصة الزهو بنفسه، وتذكر أنه ينبغي أن يتعامل معهم من موطن القوة والقيادة، فلم يرد على كلامه ولكنه غير الموضوع قائلاً:

- على غلاف كتابك مكتوب (قال الذي عنده علم من الكتاب)؛ هل في هذا الكتاب بعض من ميراث علم ذلك العالم جليس سيدنا (سليمان)؟ والذي جاءه بعرش (بليقيس) قبل أن يرتد إليه طرفه؟

ظهر الفزع على ملامح المارد وعلى نبرات صوته وهو يقول:

- اسمع يا شيخ (حسن): لا تسألني مالا طاقة لي به، ولا تنتظر مني أن يكون عندي ما عند والدك من علم، إنما أنا مجرد حارس وخدام لهذا الكتاب و لهذه الخزانة.

خيم الصمت بينهما للحظات حتى قطعه المارد قائلاً:

- ما رأيك أن أريك قوة طلسم واحد من طلاسم الكتاب؟

تردد (حسن) قليلاً لكنه ما كان ليفعل كل ما فعل ويصل لهذه النقطة ثم يحجم عن تجربة و لو طلسم واحد مما ينتظره من بحور تلك العلوم، وكأنَّ المارد أحس بموافقته الضمنية فقال له:

- خذ قارورة الماء التي في الخزانة و توضأ من بعض مائها، ثم خذ المسبحة وضعها حول عنقك كأنها قلادة و اقرأ الطلسم الذي في الصفحة رقم (ب ن س) من صفحات الكتاب.

تساءل (حسن) وقد أخذه الفضول:

- وماذا سيفعل ذلك الطلسم؟

- سيريك قوة الحرف والكلمة في استحضار صور الناس وقراءة الأفكار عن بُعد، هذه المسبحة لها أخواتها و قريناتها، سترى في ذهنك صور كل من مرَّت عليهم هذه السبِّحات منذ تاريخ صنعها الذي يعود لأكثر من ألف سنة، ستبَّجر بذلك في الماضي مع كل من اقتناهنَّ من البشر، أو مرَّت عليهم بتسلسل تاريخهم. ومع الوقت ستقرأ الماضي والتاريخ، ولو كانت إحدى هذه المسابح قد مرَّت على شخصية لها وزنها في التاريخ - وهذا شيء متوقع من سبحات قيِّمة كهذه - ربما بذلك تتمكن من قراءة تاريخ العظماء وصناع الأحداث، فتقرأ التاريخ كأنك تعاينه وتقع على حقيقة بعض ما اختلف عليه المؤرخون أو نسَّوه أو حرَّفوه!

انبهر (حسن) بما سمع، وفعلاً أخذ القارورة وبدأ يمسح من مائها على أعضاء الوضوء بأقل كمية ماء ممكنة كما علمه أبوه من قبل، ثم ارتدى السبحة وفتح الكتاب وداً يردد مع المارد طلسم تلك الصفحة.

فجأة اهتز بهما القبو كأن زلزالاً قد ضربه، فتوقف (حسن) ونظر إلى الجني في فضول؛ فوجده لا يقل عنه فضولاً ولا يفهم شيئاً مما يحدث، لحظات واقتحم عليهما الغرفة الشيخ (البرغواطي) ونظر (لحسن) في غضب و قال:

- لقد فشلت في اختبار الصبر الذي كان عليك اجتيازه لتثبت أنك أهل لحمل هذه الأمانات؛ فمن ليس لديه قبسٌ من صبر أيوب قد يصنع بها مصائباً كما فعلتما للتو... ما هذا الزلزال؟ ماذا صنعتما؟  
قَصَّ عليه المارد وهو يرتبك ما قاما به؛ فظهر الاهتمام والهلع على وجه الشيخ (البرغواطي) و قال في غضب:

- بئس الصنيع... هذه عاقبة من يمارس عمالاً لا يحيط به علماً، كان ينبغي عليك يا (برقان) أن تتأكد من باقي القلادات وأنها مستقرة بيد أصحابها سبعة أيام لبلياليهن لم تغادرها إلى غيرهم.

ثم اكتسى وجه الشيخ بالهمّ و قال وهو يفكر:

- هذه الهزة معناها أن شيئاً ما قد حدث.

قال (حسن) وهو يبلع ريقه خجلاً من أبيه:

- ماذا عساه أن يكون قد حدث؟

سكت الشيخ ولم يجبه ثم قال و كأنه يكلم نفسه:

- أي أيام السنة هذه؟...صمت لحظات ثم قال:

- يا لطيف يا خبير، هذا يوم بداية السنة الفلكية في التقويم القديم و تزامن شروق الشمس مع الشروق الاحتراقي لنجم الشعري اليمانية؛ معنى ذلك أن القلائد الأخرى لو كانت غير عاطلة فإن حياة بعض الناس سوف تتغير، ولا بد أن هذا هو سبب هذه الهزة التي حدثت.

التفت الشيخ البرغواطي إلى المارد (برقان) و قال له بلهجة آمرة:

- تطوف الآن في الأرض تبحث وراء قلائد ثلاث مشابهة، ستعرفها من طاقاتها التي تتذبذب حولها لأنها الآن نشيطة، و عليك أن تعرف ما كانت عليه خلال الأيام الخالية.

طار المارد من فوره بينما بقي (حسن) مطرّقاً رأسه في خجل ثم استجمع بعضاً من شجاعته وقال:

- والآن ماذا؟ هل فشلت في الاختبار وانتهى كل شيء؟

رد عليه الأب بعد فترة:

- نطمئن أولاً على عاقبة ما حدث ثم ننظر في أمرك.

ثم أردف بعد فترة:

- لعلك تذكر ما قلته لك من قبل أنك ستمر في مسار طريق العلوم باختبارات كثيرة لتثبت جدارتك بحملها، وقلت لك أن أمامك فرصتان فقط للفشل وبعدهما تُسْتَبَعَد، الآن أنت استنفدت واحدة لكن ليس معنى ذلك أنك ما زلت في الطريق وبقيت أمامك فرصة أخرى، كلا، لا بد أن تصلح - ومعك (برقان) - ما صنعتما .

ثم أدار رأسه الناحية الأخرى وبدأ يقرأ بعضاً من أوراده .

ساعات قليلة وعاد المارد (برقان) وقال في أَسَى:

- السبجات الثلاث كانوا في حالة نشيطة؛ واحدة قَطَعَتْهَا سيدة تُدْعَى (نوف) من يد زوجها (نواف) فتركها لها لتصلحها، والثانية باعها صاحبها (يوسف) لأمريكي يُدْعَى (جوزيف)، و الثالثة أهدتها صاحبته (لبنى) لابنتها (سلمى) التي لبستها حول عنقها كما اعتادت أمهات هذه العائلة منذ أجيال .

خبط الشيخ البرغواطي رأسه وقال و هو يبتسم ابتسامة غضب:

- لا أصدق أن يتزامن حدوث كل ذلك في ليلة واحدة؛ تقرؤون الطلسم في ليلة تزامن شروقي الشمس والشعري، وتنتقل السبجات الثلاثة من صاحب قديم إلى صاحب جديد وكلاهما يحملان نفس نغم الاسم و طاقة حروفه... إن أم (سلمى) اسمها مختلف في نغمه، ستكون (سلمى) محظوظة إذا لم تكن جدتها أو إحدى جداتها الأوائل تحمل نفس نغم اسمها، إن كل مسبحة قد ربطت بين الشخصين وسيصحو كل واحد منهما ليجد نفسه مكان الآخر؛ قد حلَّ في جسده وأخذ حياته بدلاً منه!

قال حسن مذهولاً:

- هل هذا معقول؟ وهل سيدرك كلُّ منهم أنه قد صار شخصاً آخر، أم سيظل هو الشخص الأول في جسد الآخر دون أن يدرك، أم ماذا؟ إنني أكاد أُجَن.

رد الشيخ:

- هو الشخص الأول قد حلَّ في جسد الشخص الثاني وأخذ حياته مكانه، والثاني في جسد الأول وفي حياته أيضاً، وسيكون لزاماً علينا أن نخبرهم بما حل بهم قبل أن يُصدموا به بعد استيقاظهم كي لا يفقدوا عقولهم، وهذا هو دورك يا (برقان).

قال حسن:

- وكيف سيخبرهم (برقان)؟ وكيف عرف أصلاً بما حدث للسبحات في الأيام الماضية؟

نظر (برقان) إلى الشيخ (محمد) فأوماً إليه الشيخ أن احكي ما عندك، فقال برقان:

- إنَّ من يعيش على كوكب آخر و ينظر الآن إلى كوكب الأرض لا يرى ما يحدث الآن على كوكب الأرض، بل يرى ما حدث منذ فترة زمنية تساوي بُعد كوكب الأرض عنه بسرعة الضوء، فلو كان في كوكبٍ يبعد عنا يوماً ضوئياً؛ فإنه يَرى الآن ما حدث عندنا بالأمس، ومن يَبعد أسبوعاً ضوئياً فإنه يرى الآن ما قد حدث عندنا منذ أسبوع،

ومن يبعد شهراً أو سنة يرى ما قد حدث منذ شهر أو منذ سنة حسب بعده الضوئي عنَّا . وما صنعتُه أنني اتصلت عن طريق التخاطر عبر دهاليز و ممرات الفضاء بقرناء لي يعيشون في كواكب تبعد عنَّا بأيام ضوئية متفاوتة، فأخطرتني من كانوا في الكواكب التي تبعد عنا بأيام ضوئية قليلة بهذا الذي أخبرتكم به؛ لأن كل ذلك قد حدث في الأيام القليلة الماضية، وأنا تتبَّعتُ طاقات هذه القلادات وتأكدت مما أخبروني به .

تساءل (حسن) وعقله يجاهد لاستيعاب ما يقال:

- أنت تقول أن قرناءك يبعدون عنا بأيام أو شهور ضوئية، فكيف تتخاطر معهم في التو واللحظة؟

أجاب الشيخ (البرغواطي) هذه المرة و قال:

- التخاطر غير المشاهدة، ما يشاهدونه هو ما يصل لأعينهم بسرعة الضوء بعد أن يقطع ما بيننا وبينهم من مسافات، لكن التخاطر شيء عقلي ووجداني، لا تقيده مسافات و لا تحدده سرعات، يكفي (برقان) أن يعلم بوجود قرين له على أي جِرم سماوي، فيتخاطر معه في التو مهما كان بُعد ذلك الجِرم!

قال (برقان) في فخر و حماس طفولي:

- بل إننا نستطيع أن نتواصل و أن نتلاقى عبر ممرات السماء ودهاليز المجرات...ممرات مختصرة كأنها أنفاق تنقلنا في لحظات بين أطراف المجرات التي يحتاج الضوء لسنين ضوئية طويلة كي يسافر

بينها... إنَّ بعضنا أحياناً حينما يريد أن يتأكد من حقيقة شيء حدث في الماضي فإنه يسلك إحدى تلك الدهاليز؛ لينظر إلى كوكب الأرض من بعيد، فيرى ذلك الماضي على حقيقته ثم يعود إلى الأرض ثانية... وهناك من يتوقع أننا لو عكسنا الرحلة بطريقة ما فإننا قد نرى المستقبل، والبعض منا يحاول...

هنا قاطعه الشيخ (البرغواطي) وقال:

- هيهات... لا تحاولوا ما لن تفلحوا فيه أبداً، الماضي والحاضر والمستقبل كأنه زمنٌ واحد عند خالق الزمن، لكنه سبحانه اختص نفسه بعلم المستقبل، قَيَّدَنَا في أزماننا ليس لنا أن نتجاوزها!

فتح (حسن) فمه مدهوشاً وقد أدرك كم هو جاهل وأن والده كان محقاً في أن يرجئه إلى السن الذي يتحمل فيه ثقل هذه الأمانات، ثم ابتلع ريقه وسأل:

- وكيف سيُخَطَّر (برقان) من تبدلت حياته بما حدث له؟

ابتسم الشيخ البرغواطي ابتسامة خفيفة لأول مرة منذ أن اقتحم القبو، لكنه تداركها بسرعة وارتسم ملامح الجدية من جديد وقال:

- هذه هي الحلقة الأسهل؛ سيكون على (برقان) أن يُخَطَّر كل واحدٍ منهم في منامه برؤيا شديدة الوضوح بما حدث له وبمن يُنْتَظَر أن يكونه بعد أن يصحو من نومه ليجد نفسه مكانه.

هز (حسن) رأسه وقد بدأ يستوعب هذه الدنيا الجديدة عليه

تماماً وبدأ يدرك أصولها، ثم فكر قليلاً وقال:

- ولكن ماذا عن (سلمى)؟ إننا لا نعرف إن كانت هي التي ستصحو أم إحدى جداتها مكانها؟ وإذا كانت إحدى جداتها مكانها فكيف سيُخَطِرُ (برقان) (سلمى) بما حدث لها وهي ستكون قد سقطت في بئرٍ من الماضي السحيق؟

رد عليه أبوه:

- علينا أن ننتظر لنرى من سيصحو في فراش (سلمى)، و بعد أن نعرف من تكون؛ سيكون دور بركان أن يتخاطر مع قرنائه في تلك الكواكب السحيقة البعد عنَّا حتى يصل إلى قرين يتطابق بعد سنواته الضوئية عن الأرض بنفس زمن بعد هذه الجدة في الماضي، ثم يتفضل هذا القرين مشكوراً بإخطار (سلمى) في منامها!

فتح (حسن) فمه بدرجة أكبر هذه المرة وهو مذهول بشكل أشد وقال:

- و هل هذا ممكن؟ يتخاطر جني اليوم مع إنسان الأمس؟

رد الشيخ (محمد):

- ألا يحدث لك أو لي أو لكثير من الناس أن يرى أحدهم في منامه الرؤيا ثم يراها تتحقق بعد ذلك بيوم أو بشهر أو حتى سنة؟ كيف برأيك يحدث ذلك؟

حَكَ (حسن) رأسه بيده في عنف و كأنه يحاول استيعاب ذلك الكلام الذي لا يصدق وقال:

- إذا كان كذلك فإنَّ هؤلاء القرناء يستطيعون تغيير مسار الأحداث بل و مسار التاريخ، و يحذرون أبطال التاريخ مما ينتظرهم في مستقبلهم.

رد الشيخ (البرغواطي) وقال في حزم:

- لا...إنهم مأمورون و في عملهم هذا مقيِّدون، ولا يُؤذَن لهم بما يغير وجه التاريخ، ثم هل رأيت أو سمعت أو قرأت عن إنسانٍ غير مجرى حياته بناءً على رؤيا جاءتة؟ فما بالك أن يتخذ قراراً يغير مسار التاريخ؟

قال (حسن) في اندفاع و كأنه يفكر بصوتٍ عالٍ:

- إذن فهل يمكن أن نكون نحن الآن نعيش في الماضي ويكون أبنائنا وأحفادنا قد ولدوا بالفعل في المستقبل الذي حدث بالفعل؟ هل يكونون هم أيضاً ماضٍ لمستقبلٍ آخر قد أصبح بدوره ماضياً لمستقبلٍ ثالث وهكذا؟ أيكون المستقبل قد أصبح ماضياً و الماضي لم يأت بعد؟ ...

وهنا قاطعه والده في حسم:

- (حسن)! لا تترك عقلك للشطط ولا تحمله فوق ما لا يستطيع فهمه، و علم أن علمي وعلمك وعلم أهل الأرض جميعاً نقطة في بحر علم الله، أن هناك أموراً يستحيل على عقولنا أن تفهمها تمام الفهم.

إن البشرية حتى الآن لا تدرك كينونة النار أو الضوء أو الصوت، تقول هي موجات؛ فما هي الموجات؟ نصِّف خواصها وتذبذبها وندرس قوانين تصف ظواهرها، أما ذواتها فلا ندري عنها، بل إن معظم علومنا مجرد وصف لظواهر ما تدرسه هذه العلوم... مجرد وصف لمجرد قوانين تحكم مجرد ظواهر، لكننا لا ندري ذاتيتها أبداً. هل أدركت الآن لم منعك عن الدخول في عالم خزانات الأسرار قبل الأوان؟

سكتوا جميعاً ثم قطع الأب حبل الصمت و قد غيّر نبرة صوته إلى النبرة الحازمة الآمرة:

- والآن يا (حسن): فرصتك قبل أن تُطرد من طريق العلوم، وأنت يا (برقان) قبل أن تُحرّم من شرف حماية خزانة الأسرار هذه، فرصتكما أن تعيدا كل ما فعلتما بالعكس! بعد عامٍ من الآن حتى يدور الشِعْرَى دورة كاملة و يعود تزامن إشراقه الاحتراقي مع إشراق الشمس، وتكون كل سبحة قد رُدَّتْ إلى صاحبها الأول من صاحبها الثاني، ففتلوا يا (حسن) الطلسم من جديد و أنت ترتدي القلادة؛ ليعود كل واحدٍ منهم إلى شخصيته الأصلية... وادعوا الله أن لا يقرر أحدهم خلال هذه السنة - وتكون حياته الجديدة قد أعجبتَه - فيأبى أن يعود إلى أصله.

قال (حسن) في اندفاع:

- وما ذنبنا إن كان أحدهم قد أعجبتَه حياته الجديدة؟

قال أبوه في غضب:

- ومن أذن لكما من البداية أن تغيرا حياته بحياة بديله؟

قال (حسن):

- فإن رضي الطرفان بحياتهما المتبادلة فيما بينهما؟

سكت الشيخ لثوانٍ ثم قال:

- وقتها يكون لكل حدثٍ حديث، و لكن لا تراهننا على حدوث ذلك، فمن سيرضى بحياته الجديدة خلال سنة قد يندم على ذلك بعد سنين.

والآن يا (برقان) أنت تعرف دورك... أن تُخَطِّرَهُم جميعاً في منامهم بالقصة كاملة، و بما ينتظر كل واحدٍ منهم بعد أن يصحو من نومه.

سكت ثوانٍ ثم أكمل:

- ولا تتس أن تخطرهم أن أمامهم عامٌ كامل يختارون مصيرهم خلاله... قبل أن يعود الشِعْرَى!



## ( ١٢ )

تستطيع أن تتخيل صدمة كل واحدٍ من الأشخاص الستة بالتحول الذي جرى له ...

عندما يرى (نواف) نفسه قد بات في بيروت في أحضان زوجته (كوليت) فيرى في منامه أنه سيصحو و لكن في فيلته التي في الرياض وقد تَبَدَّلَ جسده بجسد زوجته (نوف)! و يصحو بالفعل ليدرك أن ذلك لم يكن كابوساً رآه في منامه؛ بل كابوس حقيقي عليه أن يعيش فيه سنةً كاملةً، وأنَّ عودته متوقفة على عدة ظروف أهمها موافقة (نوف) هي الأخرى على العودة!

أو تتخيل (نوف) بعد أن نامت مقهورة من الحزن لتستيقظ و هي في جسد (نواف) و ضررتها بين أحضانها! لتدرك أن ذلك حقيقة واقعة وليس مناماً صَوَّرَهُ لها عقلها الباطن انتقاماً من قهر زوجها لها .

هل تدرك مقدار الصدمة التي صُدِمَ بها (جوزيف) وهو يفقد جسده الجميل وملايينه وحياته المترفة في (سياتل) الهادئة وخطَّطَ سفره ومغامراته ليجد نفسه مكان (يوسف) الذي ابتاع منه تلك القلادة اللعينة! يصحو ليجد نفسه في أحد أزقة حي مصر القديمة في شقة ضيقة داخل بيت قديم متآكل السلالم، ويتحدث اللغة العربية؛ تلك اللغة التي لم يكن يفهم منها إلا بضع كلمات، وما يعرفه عنها أنها إحدى اللغات السامية القديمة و كُتِبَ بها كتابٌ يقدهس أتباعه ويؤمنون أنه وحيٌّ من السماء؟

وبعد أن كانت علاقته بالمال هي خطاباته البنكية التي تخرطه بحركته المالية أو إخطارات شركة Pixar بأرباحه الجديدة وعدة كروت ائتمان يحملها في جيبه ولا يحمل همًّا للمال؛ هاهو تصبح حياته معلقة - يوماً بيوم - بإيرادات هذه المركبة الهندية العجيبة التي هي في أصلها الأنثروبولوجي الأُحْضُوري كانت خنفساء عملاقة متحجرة ثم تم إحيائها من عصر الديناصورات المنقرضة.

هذه هموم كبيرة (لجوزيف) بدون شك، لكن الهمُّ الأكبر منها بالنسبة إليه أن ينبهر (يوسف) بحياته الجديدة الرائعة فيأبى أن يعود إلى حياته البائسة السابقة - وهذا بدون شك احتمال شبه أكيد... وبعد أن كنت أطيّر بين قارات العالم لأحصل من هنا وهناك على تذكارات أثري قيم أو تذكارات نسائي مثير سأعلّق هنا مكان (يوسف) هذا؛ لأحصل على خازوق الحياة الأكبر! هكذا حدّث (جوزيف) نفسه.

ليتي لم أشتري هذه القلادة ولا أتيت إلى مصر ولا درست الأنثروبولوجي ولا كنت مليونيراً ولا اخترعت شخصية العفريت (ديمون) هذه أصلاً، يبدو أن هذا هو عقاب العفاريت و الجآن لي على سخريتي السابقة ممن يؤمنون بوجودهم، و إصراري على أن كل ذلك من اختراع ميثولوجيا الشعوب القديمة المولعة بالأساطير...ويا له من عقاب موجه!

أما الصدمة عند (يوسف) فهي صدمة عكسية تماماً، عندما يستيقظ ليجد نفسه مليونيراً وسيماً تمتلئ حياته بالنساء وهو الذي لم تتعد علاقته بهن خيالات الفراش الملتهية، و بضع مناكشات مراهقة

توقفت بعد أن عرف طريق المسجد و الالتزام، و شيدت حالته المادية المنتكسة جداراً سميكاً عالياً يحول بينه و بين أي أحلام للزواج.

ليس ذلك فحسب، بل هو الآن أصغر بعشر سنوات ومُتَع الدنيا بين أطراف أصابعه بعد أن كانت علاقته بهذه المتع لا تتجاوز أن يتفرج عليها في شاشة التلفاز ثم يتحسر على نفسه؛ ذلك الشاب الثلاثيني الذي كانت أقصى متعة حصل عليها هي السفر إلى شواطئ مدينة الإسكندرية.

أما الشيء الذي دُهِش به وضحك منه فهو لسانه الجديد وطلاقة في اللغة الإنجليزية وهو من كان يتلغثم فيها حتى في توجيه سائح من السياح الذين يجولون أحياناً في شوارع حي مصر القديمة، فيتلغثم حتى في إخباره أن انعطف يميناً أو يساراً أو اذهب في طريقك مباشرة أو اذهب إلى الجحيم و دعني لهموم الدنيا!

أما صدمة (سالمة) فهي بالتأكيد تفوق ما قبلها من صدمات، صدمة أولى و هي تتبادل حياتها مع حفيذة حفيداتها، وصدمة ثانية وهي تقفز أكثر من قرنٍ و نصف في المستقبل؛ فتصحو لتجد نفسها في دنيا جديدة تماماً و تختلف تماماً عن دنياها في كل تفاصيلها.

لكن المهمة الصعبة التي واجهت (حسن) و (برقان) كانت بعد أن صحت (سلمى) ليجدوها و قد تبادلت مكانها مع جدتها (سالمة)، و يكون دور (برقان) أن يبحث عن التاريخ الذي كانت تعيش فيه (سالمة)، وأن يحسباً كم سنة تفصل بينهم و بينها، ثم يبحث (برقان) عن كوكب

يبعد عن الأرض بمقدار نفس العدد من السنين الضوئية ليجد فيه مارداً يساعده ويخاطر (سلمى) التي ذهبت مكان جدتها ويخبرها طبيعة ما حدث لها ويقص عليها القصة في منامها .

كان (حسن) و (برقان) يدعوان الله ألا يصيب (سلمى) الجنون قبل أن يتم ذلك التخاطر، تخيلها (حسن) وهي تأوي إلى فراشها في القرن الحادي والعشرين لتصحو من نومها في القرن التاسع عشر، وبين أناس لا تعرفهم في بيت غير بيتها و جسد غير جسدها، إذن فلا بد أن يتم ذلك التخاطر في أسرع وقت ممكن .

وكان الله رحيماً بهم جميعاً إذ تم ذلك خلال يوم و ليلة، استيقظت خلالها (سلمى) بالفعل على كابوس رأت خلاله هذه القلادة التي ارتدها حول عنقها و كأن عفاريت خرجت منها، وأخذت تتراقص حولها في دائرة ثم حاولوا سحبها إلى باطن الأرض فقاومتهم بشدة، فتركوها للحظات ثم فجأة حملوها وطاروا بها لأعلى، فانشق سقف الغرفة عنهم ليصعدوا بها في السماوات البعيدة، و هي حائرة بين أن تقاومهم ليتركوها وبين أن تتشبث بهم في نفس الوقت كي لا تسقط من السماء؛ فأخذت تصيح: أعيدوني أعيدوني.

واستيقظت (سلمى) من ذلك الكابوس لتجد نفسها تعيش في كابوس حقيقي أسوأ منه، ولا تفهم شيئاً مما يجري حولها، ولا تدري إن كانت استيقظت في الحقيقة أم ما زالت تغط في كابوسها الثقيل، فأخذت تجري في دار (سالمة) و التي لا تعرفها و تقابل أشخاصاً أول مرة تشاهدهم بينما هم ينادونها في زعر:

- ما بك يا (سالمة)؟ ماذا أصابك يا بنيتي؟

فيزداد صراخها وهي تجري: أعيدوني أعيدوني...

ثم تسقط مغشياً عليها ويدخل عقلها في إغماء طويلة، وكأنَّ عقلها يرفض هذا الذي يراه ويجري حوله، أو كأنه قد اتخذ خط دفاع لا إرادي منه؛ كي يحمي ذاته ولا يفقد صوابه فيقرر أن يدخل في إغماء خيرٌ له من أن يصاب بالخلل أو الجنون.

إغماء كانت نعمة من الله عليها إذ طالت بها حتى تواصل (برقان) مع قرنائته (هلال) و (أبانوخ) الرابضين في كوكب بعيد عن الأرض بعدد السنين التي بين (سلمى) الآن و بين حياتها الأصلية؛ ليخبرها ويخطرها في منامها بكل ما حدث لها، فتفتيق لتجد أمها وأخواتها - في الحقيقة أم (سالمة) وأخواتها - يجلسون بجوارها وينظرون إليها في إشفاق، فلماً بدأت تحرك جفونها أمامهم نادوا باقي أسرتها - تلك الأسرة الجديدة التي سيكون عليها أن تعيش معهم سنة كاملة و ذلك إن كانت محظوظة و لم يطرأ ما يعيق تفعيل الطلسم من جديد.

وبرغم كل ما هي فيه من صدمة و حيرة و خوف من المجهول الذي سقطت فيه، إلا أن المطلوب منها أن تتماسك وأن تعزو ما بدر منها قبل الإغماء إلى كابوس مخيف زارها في منامها، وأن تبدو أمامهم طبيعية ولا تخطئ في ذكر تفاصيل حياتها أو تخلط بين القديم والجديد كي لا يظنوا بها الجنون - هي لا تعرف كيف يعاملون المجانين في ذلك العصر، وعليها أن تتقبل ولو على مضض كل ما سيطلقونه في وجهها من تفاسير لما حدث.

لكن الميزة الوحيدة في ما انتابها من كوابيس وإغماءات؛ أن ذلك  
سيعطيها المبرر أن تأوي لفراشها يوماً أو بضعة أيام حتى تستجمع  
عقلها وتستوعب الصدمة وتفكر كيف ستحيا طوال شهور ذلك  
الكابوس الحي!



## ( ١٣ )

عاد (نسيم أورهايون) مساءً إلى فيلته الواقعة في حي النخيل الراقى في مدينة كازابلانكا، اكتسب الحي اسمه من كثرة النخيل المزروع في فيلات هذا الحي، و فيلا (أورهايون) بالذات يتراص النخيل خلف سورها كأنه سورٌ آخر يحجب الرؤية عن أي عين متلصصة ولو من بعيد .

نزل (أورهايون) من سيارته و أمر سائقه أن يوافيه في الغد تمام العاشرة صباحاً، هَزَّ السائق رأسه علامة على الاستجابة؛ فهو يعلم أن (أورهايون) لا يحب الكلام الكثير، دلف (نسيم) داخل فيلته التي لا يقيم فيها سواه، فحتى الخادمة والطباخ يعملون نهاراً فقط، ولا يحرس الفيلا سوى مجموعة من الكلاب الشرسة و حرسٌ آخر من نوع خاص! نزل سلالم القبو بدلاً من أن يصعد إلى غرفته ...

تُرى ما هو الشيء المهم الذي يريدني فيه (داهار)؟

دخل (أورهايون) القبو وبغير مقدمات جلس يستمع في اهتمام إلى المارد (داهار) وهو يقص عليه قصة القلادات الثلاث اللاتي نشطت طاقاتهم فجأة، وأنه عرف من أقرانه أن (برقان) كان يستقصي عنها وعن أصحابها، وبعد أن انتهى قال (أورهايون):

- طالما نشطت طاقاتها إذن فإنَّ طلسمها قد قُربى، وطالما أن (برقان) كان يستقصي عنها فإنَّ الطلسم قد قُربى بشكل خاطئ أو في

ظروف خاطئة، و طالما استقصى عن أصحابها إذن فإنَّ خطباً ما قد أصابهم...ألم تعرف من أقرانك ماذا حدث لأصحابها؟

- لا لم يعرفوا شيئاً من ذلك، إنَّ (برقان) و قرناه يتكتمون تماماً على الموضوع.

- إذن فهناك خَطْبٌ ما و خطأ ما قد حدثا، و (برقان) و من معه يريدون تداركه...فرصة لأعلم ذلك المغرور (حسن) كيف يلعب مع الكبار.

وفهم (داهار) مقدار الغيظ في قلب (أورهايون) بعد أن فكَّ الشاب الصغير سحر ذلك الساحر العتيد الذي صنعه (لسامر)، بل و أبطل سحره في جلسة واحدة، وكم كان ذلك إهانة له، ثم قال:

- لم لا توجر من يأتيك برأس (حسن) هذا انتقاماً منه؟

نظر له (نسيم) بغضب وقال:

- أنتم أيها المرءة بقدر ما عندكم من قدرات خارقة بقدر ما لديكم من عقول صغيرة، وهل قواعد لعبتنا هي الاغتيال المادي أم القتل المعنوي؟ ثم هل أنا من الضعف بحيث أفكر في القتل بدلاً من أن أرد الصفة مضاعفة؟ الفرصة جاءتني مع هذه القلائد على طبق من الفضة.

- ومن قال لك أن الخطأ خطأ (حسن)؟ ربما خطأ والده.

ردّ عليه في سخرية:

- ألم أقل لك أن عقولكم كالأطفال؟ هل يخطئ (البرغواطي) الكبير مثل ذلك الخطأ؟ إنها أخطاء المبتدئين، لكن الغريب أن يبدأ (محمد) تعليم ابنه أسرار صنعته في هذه السن الصغيرة... غرّ هؤلاء ضربة حظهم في فك سحري في جلسة واحدة.

ثم سكت قليلاً قبل أن يقول:

- اسمع يا (داهار)، تطير الآن بين دهايز السماء أو عبر ممرات المجرات، و تستقصي من أقرانك فتعرف ما شأن هذه القلادات و من هم أصحابها قبل و بعد أن تنشط طاقاتها.



عاد (داهار) بعد ساعات إلى (أورهايون) الذي لم يغادر القبو هذه المدة، وإنما تناول خلالها طعامه و شرابه في ذلك القبو المجهز بكل شيء حتى بحمامٍ للسباحة، وبار فخم، وأنظمة إضاءة، وأجهزة صوتية جعلت القبو المكان المفضل (لأورهايون) في فيلته، ثم قص (داهار) ما عرفه:

- قلادة منهن قطعتها سيدة تدعى (نوف) من يد زوجها (نواف)،  
وثانية باعها صاحبها (يوسف) لأمريكي يدعى (جوزيف)، وثالثة أهدتها سيدة تدعى (لبنى) لابنتها (سلمى).

فكّر (أورهايون) قليلاً ثم قال:

- شيءٌ ما قد حدث و ربط بين أصحاب القلادات الجدد والقدامى والغريب أن أسماءهم متشابهة إلا اسمي الأم وابنتها، لعل الرابط بينهما هو رابط الأمومة؟ لست متأكداً...

سكت لحظات ثم أكمل:

- أياً ما يكن فإنّ خطباً ما - بل و خطب كبير - قد أصاب هؤلاء، ولكني لا أعرف ما هو ولا تأثير هذه القلادات عليهم، وستظل القلادات متوهجة حتى يُقرأ طلسمها من جديد أو...

وسكت لحظات يفكر ثم قال:

- أو يقرر صاحب أي قلادة منهن أن ما أصابه هو خير؛ فساعتها سيقل توهج قلادته، وحينها نستطيع انتهاز الفرصة فنطفئ هذه القلادة كلياً! وهذا دورك يا (داهار): أن تجعلهم - كلهم أو بعضهم - يقبلون بوضعهم الجديد.

رد (داهار):

- ولكني لا أعرف ما هو هذا التغيير الذي أصابهم، وأساساً لا سلطان لي ولا لأتباعي عليهم إلا الوسوسة.

- والوسوسة تكفيني، يمكننا بمراقبة أصحاب القلادات أن نستنتج ما أصابهم، وعندما ترى طاقة أي قلادة منهن تتذبذب فهذا معناه أن صاحبها يفكر في الاحتفاظ بحاله الجديد، ووقتها سنأكد من

صحة استتاجاتنا، وساعتها سيكون دوركم أن تُزينوا له ذلك الوضع،  
فتقلُّ بذلك طاقة قلادته جداً، وساعتها أقرأ أنا طلسم القلادة المُعادي  
لها... فينطفئ سحرها و تفقد فاعليتها...

ثم أكمل في تحد وزهو:

- وأكون بذلك قد لقت (حسن) وأبوه وعفريتها درساً قاسياً.



## ( ١٤ )

استيقظ (نواف) وهو يتمنى أن يكون ما رآه مجرد كابوس سخيـف تسلط على عقله بسبب دعوةٍ دعتها عليه (نوف) في لحظة غضب بسبب ما تظنه من تعسفه معها، لكنه فتح عينيه ليجد نفسه في غرفة نومه التي بالرياض...تحسس جسده فوجد تضاريس زوجته (نوف) التي يحفظها جيداً...

جلس على طرف فراشه مُطرقاً يفكر، وطالت جلسته وتفكيره حتى قرر في النهاية أن يكلم (نوف)، أمسك الهاتف المحمول وهو يظنه هاتفه وفتحه ليدرك أنه هاتف (نوف)، اتصل بهاتفه فلم ترد عليه، دقيقة واتصلت هي به ولأول مرة يسمع (نواف) صوته هو يأتيه عبر الهاتف ولكن من فم زوجته:

- كان علي أن أذهب بعيداً عن هذه (الكوليت) زوجتك حتى أتمكن من الرد عليك.

رد عليها وصدم للوهلة الأولى أن صوت (نوف) هو ما يخرج من حنجرتة...بعد قليل سيعتادون جميعاً على هذه التغيرات والأوضاع المقلوبة...

- (نوف): عليك أن تعودى حالاً إلى الرياض.

- لماذا؟

- لا أدري، على الأقل نفكر في هذه المصيبة التي حلت بنا .
- ما حدث قد حدث وعودتي لن تغير شيئاً، ليس أمامنا إلا أن ننتظر هذا العام ونقضيه بالطول أو بالعرض .
- لكن لا بد أن نفكر كيف سنتصرف خلال ذلك العام .
- وها نحن بالفعل نتحدث ونفكر بصوتٍ عالٍ .
- لا لا...لا يصلح هذا، عليكِ العودة فوراً إلى الرياض، هذا أمر!
- سكنت (نوف) قليلاً ثم أجابته وقد تغيرت نبرة صوتها إلى ما يشبه التحدي:
- وبأي صفة تأمرني؟
- رد عليها بانفعال:
- بصفتي زوجك .
- أنا الآن الرجل وأنت الآن المرأة، عليك أن تنتظرنني حتى أقرر متى أعود .
- سكنت لحظات ثم قالت:
- ولا تنس أنك ممنوع من مغادرة الفيلا حتى أعود بناءً على قسمك .

صرخ فيها وهو يستغرب صوت صراخه الجديد، ذلك الصراخ الذي كان يضايقه منها ويعاقبها عليه:

- هل جننتِ؟ أنا زوجك و أمرك، عودي و إلا طلقتك .

ردت عليه بذات البرود الذي كان يقتلها حين كان يكلمها به:

- العصمة الآن في يدي، أنا الرجل الآن.

استعاد (نواف) هدوءه وقال:

- (نوف)؛ لأجل خاطري، عودي فلا بد أن نكون بجوار بعضنا

الآن، لن أستطيع مواجهة الناس بهذا الجسد الغريب عني، أنتِ كيف تتعاملين مع جسدي؟ ألا تستغربينه عليك؟

ردت في لا مبالاة:

- في البداية استغربتُه أول ما استيقظت، لكنني اعتدت عليه بعد

قليل وسأعتاد على هذا الشَعْر الذي يملأ صدري و سَاقِي، وسأستغل الفرصة وأتجول لمدة شهر في أنحاء أوروبا بعد أن كنت حبيسة قصرك.

انفعل (نواف) ثانية و قال:

- عودي وإلا انتقمت منك .

- وماذا ستصنع؟

فكر قليلاً ثم قال:

- سأشوه سيرتك، سأفعل ما يفضحك و يفضح أهلك في كل الرياض .

سكّنتَ لحظات ثم قالت:

- سيقهلك أهلي وقتها على أنك أنا، وفي المقابل سأنتقم منك أنا أيضاً وأشوه سمعتك بأفعال مشينة و أصورها و أرفع الصور و مقاطع الفيديو على الإنترنت و أفضح أهلك فضيحة أكبر، و لن يكون عليّ بعدها أن أعود إلى الرياض، سأعيش حرة طليقة في أنحاء العالم أتمتع بثروتك.

تمالك (نواف) نفسه ثم قال:

- حسناً دعينا نتجنب العبث في الأعراض و ننسى ما قلناه من كلام الانفعال... ما رأيك لو حلقت لك تماماً ذلك الشعر الذي تعتزين بنعومته و بطولته؟ أو تجاوبت مع شهيتي للطعام حتى أحول قوامك الغزلاني هذا إلى برميل متدحرج؟ أو أمتنع عن برامج العناية الكثيرة التي تملأ يومك صباح مساء للعناية بشعرك و بشرتك و أظافرك... إلخ؟ سأسلمك بعد عام جسداً مشوهاً تحتاجين لسنوات حتى تستعيدي بعض جماله وفتنته، أما أنا فرجل و جسدي الذي بحوزتك لا يضره أي إهمال.

ردت (نوف) بكل برود :

- لو حدث ذلك فإنني سأهَبَ لزوجتك (كوليت) كل مشاريعك وممتلكاتك التي تديرها ثم أطلقها لك.

سكت (نوف) و قد أدرك أنه الطرف الأضعف وأن (نوف) قادرة فعلاً على قهره، واستغرب لما وجد الدموع تتساب من عينيه بغزارة كما كان يحدث من (نوف) كثيراً فيتهما بالتصنع أو ادّعاء المسكنة أو بالعاطفية الزائدة، فقال وصوته يخترق بالعبارات :

- (نوف)، لا تتركيني معلقاً هكذا.

ردت عليه وهي تقاوم قلبها الذي بدأ يرق له:

- لن أتأخر عليك؛ هو شهر على أكثر الأحوال، ولا تنس أن تهتم بابنتنا (أسيل) وأن تهتم برضاعتها ولا تتركها طيلة الوقت للمربية.

ثم أنهت (نوف) المكالمة، وأخذت تتأمل في (كوليت) التي كانت لا تزال نائمة، و مشاعرها تتضارب ناحيتها بعد أن تحولت إلى رجل، أصابها الهلع أنها ورثت جسد زوجها بذكوريته ورغباته وانفعالاته، وها هي تنتظر إلى (كوليت) والنفور منها يملأ قلبها... والرغبة فيها أيضاً! فلم تشعر بنفسها إلا وهي تحتضنها وهرمونات (نوف) تضطرم بجسدها، وفجأة نفضت (كوليت) نفسها في ضيق وقالت في غضب وهي لا تزال نائمة:

- ما هذا يا (نواف). ألا تحاول السيطرة أبداً على شهواتك؟ ألا تراني نائمة؟

ارتدّت (نوف) عنها وقد شعرت بالإحراج والغضب، وهمّت لا إرادياً أن تبتطش بها، لكنها تذكرت وضعها الملتبس الذي لا تدري هل هي فيه (نوف) أم (نواف). وتذكرت المرة المشابهة لهذا الموقف لها مع (نواف) وكيف أنها تصرفت ذات تصرف (كوليت) وكيف اعتبرت ذلك منه تصرفاً شهوانياً بحثاً مجرداً من العاطفة التي ينبغي أن تزين الرغبة الحيوانية.

وقررت إطفاء حرارة ذلك الجسد الغريب بشلالات من الماء البارد، وتضايقت حين فشل الماء في إطفاء أي شيء، وصعقت لما وجدت نفسها تستحضر المتعة يدوياً في عملية اكتفاء جنسي ذاتي! صعقت لما تم كل ذلك رغماً عنها وكأنها مشلولة الإرادة، و مرة أخرى تتذكر (نواف) وكيف ضبطته يصنع ذلك ذات يوم كانا فيه على خصام، وكيف اعتبرت ذلك منه طعناً غائراً لكرامتها و أنوثتها.

أحست بالخجل من نفسها للحظات ثم سرعان ما ألفت اللائمة على (نواف) بل و على كل الرجال...كيف يطيق الرجال أجسادهم تلك؟ قالت (نوف) لنفسها..و أنا من كنت أرثي لحال المرأة بسبب معاناتها من تضارب هرموناتها!



## ( ١٥ )

تقلب (يوسف) كثيراً في فراشه الجديد الوثير في (سياتل) وهو بعد لا يصدق ذلك الذي حدث له، إن أكثر أحلامه سعادة طوال حياته - والذي تمنى ألا يصحو منه أبداً - لم يأت به بأجمل من ذلك الواقع الذي يعيشه الآن.

أدار عينيه في أرجاء الغرفة المليئة بوسائل التكنولوجيا والترفيه، وحمد الله أن عملية التبادل مع (جوزيف) تضمنت معرفته بهذه الأشياء التي لم يكن قد سمع عنها من قبل، فمراكز اللغة والمعرفة والذاكرة التي في المخ تبقى على ما كانت عليه عند صاحبها الأصلي، وإنما جاء هو بشخصيته وثقافته وعقله ليحل بذاته في ذلك الجسد؛ ويا له من جسد جميل ووجه أجمل... هكذا خاطب نفسه وهو يتأملها في المرأة.

واستغرب أنه لا يزال يذكر كل تفاصيل حياته ولغته وأسرتة وأصدقاءه الذين تركهم في مصر، و برغم كل ما هو فيه من انبهار تذكر أمه وأخته في حنين و تساءل كيف يتعاملان بل كيف يتعامل معهما (يوسف) الجديد؟ هل يدركان شيئاً مما حدث؟ هل شعرت الأم بأن من أمامها ليس ابنها؟ هل أخبرهم (جوزيف) بشيء؟ لا أظن أنه سيغامر بما يرسله إلى أقرب مستشفى للأمراض العقلية.

وأخذ عقل (يوسف) يتساءل: من أنا الآن؟ (يوسف) أم (جوزيف)؟

إنه يعرف أنه (يوسف) وأن الفلاسفة الذين دَرَسَهُم يقولون أن الجسد ما هو إلا صورة، مجرد ثوب، خلع هو ثوب (يوسف) القديم وارتدى ثوب (جوزيف)، أو بالأصح تبادل ثيابه مع (جوزيف).

ولكن؛ لماذا يحتفظ بذاكرة (جوزيف) ومعرفته وفي نفس الوقت يحتفظ بذاكرته هو (كيوسف) وبمعرفته؟ وكاد أن يتوه عقله في متاهة فلسفية بين نظريات المعرفة عند (أفلاطون) و (ديكارت) و (لوك) و(كانط) وغيرهم من الفلاسفة، وعبئاً حاول أن يجد نفسه أو يعاين حاله في أي نظرية منهن، بل وجد أن هموم حياته السابقة قد أنسته كثيراً من الفلسفة التي درسها عن عشق.

ليس هذا وقت التَفَلُّس، ومضى يلف ويدور ويتأمل في شقة (جوزيف) ويقارنها بشقته التي تركها في مصر القديمة...

يقارن؟؟...

إن كلمة مقارنة لا محل لها من الوجود بين شقتين لا يوجد بينهما أي عنصر مشترك إلا الاسم، وأخذ (يوسف) يجرب أجهزة الشقة ويستعمل كمالياتها الفاخرة...

هذا البيت يحتاج إلى دليل وكتالوج لشرح ما فيه من كماليات وتكنولوجيا...

هذا الغني لديه صالة ألعاب (جيم) كامل في بيته... هكذا حدث (يوسف) نفسه...

شاشة تلفازه أكبر من شاشة السينما...كيف أدخلوا الشاشة إلى  
الغرفة التي تحتل فيها مساحة حائط بأكمله تقريباً؟

حتى قاعدة الحمام مزودة بشطاف ماء على غير عادة الغربيين  
في الاكتفاء بورق الحمام الناعم...يبدو أن (جوزيف) قد أعجبه الفكرة  
فنقلها بعد زيارته لإحدى دول الشرق.

يمكنني أن أمكث في هذه الشقة لا أغادرها، ولا أملُّ منها طوال  
عام التحول هذا، وسأكون مجنوناً لو فكرت في العودة ك (يوسف) مرة  
ثانية!

ولكن ماذا عن أمي وأختي؟ هل سأستطيع استقدامهما؟ هل  
ستصدقان أصلاً حرفاً واحداً مما حدث؟

وسحبه رنين هاتف (جوزيف) المحمول من خواطره؛ فتاة اسمها  
(سوزانا) من صديقات (جوزيف) تهاتفه؛ رد عليها، أخذت تتكلم وتضحك  
وتصبح في انفعال و سرور، وكل ما فهمه منها أنها مسرورة جداً لما علمت  
بالمصادفة أنه في (سياتل) هذه الأيام، ويا لها من مصادفة سعيدة؛ فهي  
أيضاً تزور أهلها في (سياتل)، و ستعرج عليه بعد قليل، وأغلقت الخط، كل  
هذا و هو لم ينطق طوال المكالمة سوى بكلمة ( آلو ).

لو لم يتعرف على (سوزانا) هذه - و كم هي جميلة - من ذاكرة  
جوزيف التي بحوزة عقله الآن؛ لقال أنها فتاة لا حظ لها من الجمال؛  
بسبب لهفتها على (جوزيف)، و أخذ يقلب في ذاكرة (جوزيف) كأنه يشاهد  
ملفات فيديو؛ أيها المحظوظ! كل هؤلاء الفاتنات من حريمك !!؟

أخذ يتحسر على ماضيه الذي قضاه وهو يتمنى الزواج من أي أنثى تحمل تاء تأنيث من أي نوع...من كانت سترضى بظروفه المعدمة؟ وليست لديه ميزة أخرى تعوضها من وسامة أو وظيفة تنبئ بأي أمل في أي مستقبل؟

ثم أفاق إلى نفسه؛ ماذا سيصنع مع هذه ال (سوزانا)؟

وخفق قلبه في عنف، هذه الفتاة لن تأتي لتسلم عليه وتمشي بل لها في (جوزيف) مآرب أخرى...فقام على الفور إلى البار الذي في جناح الاستقبال وحمل كل ما فيه من زجاجات وتخلص منها، ثم عمد إلى الثلاجة وأخذ ما فيها من علب البيرة وألحقها بأخواتها وهو يقول: هذه الثلاجة أكبر من خزانة ملابسي التي في مصر القديمة.

لحظات ودق جرس الباب، ووقف (يوسف) مبهوتاً أمام جمال

(سوزانا)!



## ( ١٦ )

وقف (جوزيف) يتأمل في المرأة وجهه الجديد وهذه اللحية النابتة المبعثرة على صفحة وجهه، إنه يفهم أن لا يحلق الرجل لحيته تَسْكًا كما يحدث في ديانات كثيرة، أو يرببها صاحبها بشكل جذاب يليق بملامح وجهه، أو حتى يرببها بشكل مخيف إذا كان مصارعاً يريد أن ييث الرهبة في قلوب منافسيه، أما أن يهمل حلاقتها توفيراً للمال؟ فأى إنسان بئس هذا الذي صرت مكانه...تساءل (جوزيف).

بل كيف حدث هذا التحول أساساً؟ قلادة و طلسم و سحر و نجوم تتعامد و عفاريت؟ لم أكن أصدق بوجود هذه الأشياء أساساً ثم ها أنا أقع في فخ من شباكها .

هل ما أنا فيه حقيقة؟ أم أنها مجرد أحلام؟ بل هل حياتنا واقعٌ نعيشه؟ أم كلها مجرد حلم كبير نصدق أنه واقع من شدة اندماجنا في أحداثه؟ إننا نعيش في منامنا أحلاماً نصدق أنها حقيقة من شدة واقعيتها، بل نصحو أحياناً ونحن لا ندري أين الواقع و أين الحلم، فهل سأصحو غداً من هذا الكابوس أم على نفس الكابوس أم على كابوسٍ أشد منه؟

لماذا يحلم الإنسان أصلاً؟ لماذا نرى أنفسنا في الأحلام أننا نجري ونعمل و نقاتل ونحب...إلخ، و لا نرى في الأحلام أبداً أننا نحلم؟ هل هذا دليل على أن حياتنا واقعٌ حقيقي و ليست حلمًا كبيراً؟ فما هذا الذي أنا فيه إذن؟

- (يوسف)... طعام الإفطار جاهز، هل ستقضي يومك في الحمام؟

وخرج (جوزيف) بهذا النداء من والده (يوسف) من بئر خواطره...

خرج من الحمام و جلس يتناول الإفطار مع هذه التي تُسمى أمّه، والأخرى التي يُفترض أنها أخته و أخذ يتأمل أسرته الجديدة في توتر واستغراب؛ إنَّ أخته مليحة نوعاً و فيها جاذبية وأنوثة بقدر ما في وجهها من ملامح حزينة، لكنها لا تقارن مع أي حبيبة سابقة له، واستغرب لما وجد نفسه يعتبرها أخته فعلاً، و لا ينظر إليها بأي نظرة مختلفة، كيف كان الفُرس و المصريون القدماء يتزوجون من أخواتهم؟ قال جوزيف في باله: أي مخلوقات كان هؤلاء؟ و لم يترك (جوزيف) لأفكاره العنان، فحشر لقيمات في فمه على عجل و قام إلى حجرته وسط استغراب أمه وأخته لبعض التغيير في تصرفاته و حركاته...

- ما بك يا (يوسف)؟ تعال و أكمل فطورك كما ينبغي.

واستغرب (جوزيف) وهو الذي اعتاد العيش منفصلاً عن أسرته منذ أيام الجامعة، لا أفهم أصلاً كيف يكون رجلٌ في ال ٣٥ ولا يزال يعيش مع أسرته - قال جوزيف لنفسه - المصائب لا تأتي فرادى، فحتّى إحساس الخصوصية سيكون منعدماً في هذه الشقة التي تكاد تخنقني أصلاً من ضيق مساحتها.

فتش (جوزيف) في ملابس (يوسف) فلم يجد سوى ٢٠ جنيهاً، (يوسف) لم يعمل على ذلك التوكتوك إلا يوماً واحداً، وعلى حسب ما قرأ في ذاكرة (يوسف) فإنَّ هذه الجنيهاً مبلغٌ زهيد، هو الآن بحاجة

إلى المال أكثر من أي شيء آخر، حياته السابقة برغم رفايتها إلا أن السفر و الترحال علّماه الصلابة، وجرب من قبل حياة الخشونة ولكن في رحلاتٍ محدودة الأيام، بدّل ثيابه وخرج وركب ذلك التوكتوك وبدأ يدور به في شوارع مصر القديمة، وهو لا يدري بعد إن كان في حياة حقيقية أم في كابوس كبير!



## ( ١٧ )

الساعات الأولى بل الأيام الأوائل في حياة (سالمة) الجديدة مكان حفيدتها (سلمى) تمثل الترجمة الصارخة لكل معاني الارتباك، صحيح أن عقلها وَجَدَ في مراكز مخ (سلمى) تعريفاً و تعارفاً لكل ما هو جديد عليها، لكن روحها و نفسها لم تكن لتألف بسهولة كل هذا الجديد .

وباستثناء أنه على الستة أشخاص المتحولين التعامل مع أشخاص جدد على أنهم الأهل و الأصدقاء، وأن يَبْدُوا طبيعيين في التعامل معهم، فإن (سالمة) هي الوحيدة بين الستة أشخاص و كل شيء حوله جديد عليه .

فبالتأكيد قرأت (سلمى) كتباً أو شاهدت أفلاماً عن حياة الناس في الماضي، وبالتأكيد كان يعرف كلٌّ من (جوزيف) و (يوسف) و لو شيئاً يسيراً عن عالمه الجديد، و بالتأكيد يعرف (نواف) و (نوف) أن هناك اختلافات كثيرة بين الرجل و المرأة، لكن (سالمة) الآن تعيش ما لم تره أو تسمع عنه من قبل .

وهكذا مضت تتحسس هذه الأجهزة الغريبة عنها جهازاً جهازاً، كيف يضئ هذا المصباح الذي يتدلى من سقف الغرفة بدون إضافة زيت إضاءة له؟ يقول لها مخ سلمى أنه يضاء بالكهرباء، و ما الكهرباء؟ و ما الإلكترونيات؟ و كيف تنطق هذه الأجهزة؟ وكيف يحمل بعضها صور الناس وأطيافهم، و لماذا كل شيء هنا قديمٌ في مسماه بينما هو

الآن مختلف تماماً في طبيعته عما اعتادته؛ موقد النار، سخان الماء، المصباح، العربة، خزانة الطعام التي أصبحت الآن تحفظه مثلجاً... إلخ.

ولماذا تصدر هذه الأجهزة ضجيجاً مستمراً يكاد يحرق أعصابها؟

ولماذا تشعر هي وحدها بهذا الضجيج ولا يشعر به من حولها؟

يكاد عقلها يُجنّ من شدة ارتبাকে...

لكن عقل الإنسان خلق ليتعلم، أو كأن المعرفة رُكبت فيه سلفاً في دهاليز عميقة مختبئة في بئر اللاوعي، و يكون كل دور العقل أن يجتث هذا المخزون المعرفي و أن يقيس ما هو جديد تماماً على شبيهه مما هو مخزونٌ لديه.

وبالفعل أخذت سائلة تستوعب حياتها الجديدة و تستعيد توازنها في وقت أقل مما كانت تتخيل هي، و ما كادت أسرتها الجديدة تلاحظ ارتباكها حتى كانت قد استعادت توازنها، و لما سألتها أمها - أم (سلمى) - عما لاحظته عليها من تغير في تصرفاتها؛ عزت ذلك إلى اشتداد أعراض طمثها عليها هذه المرة.

وإذا كان الطفل الذي لا يتجاوز عدة أعوام من عمره يتكيف مع ما يقع بين يديه من لعب أو أجهزة في وقت بسيط؛ فإن هذا الطفل الكبير (سائلة)- التي وكأنها ولدت للتو ولكن في ال ٢٠ من عمرها - قد تكيفت بأسرع مما كانت تظن، لكن ذلك اضطرها للمكوث في البيت لعدة أيام؛ حتى تتكيف على كل تلك الحياة الجديدة، وبالطبع كانت حجتها اشتداد ذلك الطمث عليها.

ومع مرحلة الاستكشاف الحذر دخلت (سالمة) عالم التعارف؛ هؤلاء إذن هم أحفاد أحفادي للجيل لَسْتُ أدري كم! الشَّبَّه واضح بيننا غير أن بشرتي أكثر بياضاً، وهذه هي إذن ثيابهم؛ إن ثيابنا كانت أجمل وأكثر راحة، أما طعامهم فكارثة؛ لا طعم و لا رائحة زكية ويسبب للبطن مشاكل كثيرة.

وهذا هو هاتفي المحمول أو مرسالي بيني بين صويحباتي الجدد، وهذه هي أسماؤهن و صورهن، واكتسى وجهها بحمرة الخجل لما رأت أسماء وصور أصدقاء (سلمى) من الذكور، كيف يكون للفتاة أصدقاء ذكور؟ يا لخجلي - هكذا حدثت نفسها - وأين أهلها من هذا؟ وكيف يسمحون لها بالتعارف إلى شباب بل والخروج معهم؟ كاد أن يغمى عليها لما قرأت في ذاكرة مخ (سلمى) أنها قد خرجت معهم أيضاً في سفرٍ بعيد إلى بلاد الفرنجة!

وبعد أن أفاقَت من هذه الصدمة قامت لتستكشف خزانة ثيابها الجديدة، أين ملابس هذه الفتاة وسط كل ملابس الذكور تلك؟ الخزانة مليئة بالسراويل والقمصان الضيقة، صحيح أن هذه أحذية حريم وتلك تشبه مشدات الصدر التي أعرفها، ولكن؛ يا للهول! أهذه هي ثياب فتيات هذه الأيام؟ إن الذكور في أيامنا لا يجرؤون على لبس هذه السراويل الضيقة.

وما كل هذه الثياب؟ لا أصدق أن هذه خزانة ملابس لفتاة واحدة وليست لعشر فتيات، ولماذا تُخْفِي (سلمى) شعر رأسها إذا كانت تلبس ما يفصل جسدها تفصيلاً وممتعاً للناظرين؟ يا للمصيبة؛ لقد كنت أظن أن مشكلة الخروج ستكون في أن أقود سيارة (سلمى)، لكن المشكلة

الحقيقية هي كيف أخرج أصلاً بهذه الثياب التي أستحي أن أرتديها حتى أمام أبي أو أخي الصغير.

وقلبت الخزانة رأساً على عقب حتى عثرت على بضعة ملابس فضفاضة تسيّر بها أمورها، صحيح أنها ستضطر لكشف وجهها كما تفعل العجائز والجواري في عصرها، لكن لا بأس، هي أصلاً كانت تضيق بغطاء الوجه حين كانت تضطر لارتدائه في الأوقات القليلة التي كانت تخرج فيها في الزمن الماضي.

ثم خطرت في ذهنها خاطرة، فأسرعت وأغلقت غرفتها بالمفتاح ثم ارتدت طاقماً من هذه الملابس الغريبة، ووقفت تتأمل نفسها في المرآة وتدور أمامها في أنصاف دوائر يميناً ويساراً، وأحست بالرضا يملأ قلبها عن جمال تضاريسها الجديدة.

ولا بد أن هذه هي أدوات الزينة عندهم، ألوانها برّاقة جميلة برغم رائحتها الغريبة، لكنها عافت أن تضع منها شيئاً أو ارتبكت من كثرتها وهي التي لم تعتد إلا وضع كحل الأثمد في عينيها، ثم أخذت تتأمل وجهها - أو بالأحرى وجه (سلمى) - في المرآة عن قرب، إنَّ (سلمى) أقل جمالاً مني! هكذا قالت لنفسها، لا بد أن (سلمى) الآن تحسد نفسها على وجهها الجديد و صفاء بشرته... إنَّ كل أسرة (سلمى) وجوههم غير نضرة و بشرتهم مليئة بالشوائب، لا بد أن هذا الهواء الفاسد الذي يكاد يخنقني هو سبب ما عليه بشرتهم، كيف أيضاً لا يشعرون أن هواءهم فاسد و خانق؟ معذورة أن تلجأ (سلمى) لكل أدوات الزينة تلك.

وفجأة قفز خاطر في ذهن (سالمة) وسط انشغالها بالملابس والزينة، واستغربت أن هذا كان يجب أن يكون هو أول ما يخطر بالها، قرنٌ ونصف قفزته إلى الأمام لا بد و أن العالم تغير فيها شكله وتبدلت أحواله، من جاء لحكم مصر بعد الوالي (محمد سعيد)؟ وكيف استكملوا حضرة قناة السويس؟ وإلى أين وصل خط سكة الحديد؟ وكيف حال ميناء رشيد ومراكبه؟ وماذا فعلت فلسطين؛ البلد التي نزع منها جدها لأمتها إلى مصر إبان حكم (محمد علي باشا)؟ وماذا صنع سلاطين آل عثمان؟ وكيف أصبحت رحلة الحج و محمل كسوة الكعبة في هذه الأيام؟

ستجد إجابات تساؤلاتها عبر ذلك الذي يسميه دماغ (سالمة) بالإنترنت، وجلست أمام شاشة الكمبيوتر وأخذت تستجمع من مخ (سلمى) طرق البحث الإبحار في هذه الشبكة حتى بدأت في الاعتياد عليها بعد ساعات من الارتباك.

ثم أخذت لساعات طوال تقرأ نتائج البحث، في البداية شعرت أنها لا تفهم شيئاً، ورويداً رويداً بدأت ضبابية الصورة تنتشع من أمام عينيها، وبدأت تستجمع الأحداث وتستمتع بقراءة التاريخ الذي كان هو المستقبل بالنسبة لها قبل تحولها، وجلست بالساعات تقلب بين الصفحات وبين الصور التي تشرح بعض الأحداث، حتى وصلت لقراءة ما حدث بالقدس...

النكبة؟ ما النكبة؟ و بدأت تشعر بالدماء تهرب من وجهها وبأعصابها ترتعش وبقلها يسقط في قدميها، إن كثيراً من أقارب أمها

لا زالوا يقطنون بيت المقدس وما حولها من القرى...دقائق أخرى و لم  
تشعر بنفسها وهي تسقط مغشياً عليها!



## ( ١٨ )

مر يومان على (سلمى) و هي تلازم الفراش بعد أن أفاقت من ذلك الإغماء الذي أعقب سقوطها في بئر الماضي مكان جدتها (سائلة)، الكل كان مشفقاً عليها وتمت رُقِيَّتْهَا عشرات المرات؛ فأَي كابوس هذا الذي يجعل صاحبه تلازم الفراش ليومين.

إن كان عليها هي فإنها تتمنى أن تقضي هذا العام نائمة في فراشها؛ حتى يعود ذلك الشِعْرَى من جديد إلى بُرْجِه الذي كان عليه ويتلو حسن طلسمه المشئوم إياه مرة أخرى، إنها تحس وكأنها كانت تقرأ كتاب (حديث عيسى بن هشام للمويلحي) فتعثرت قدمها في إحدى صفحات الكتاب و سقطت داخله من خلال بابٍ من أبوابه!

ماذا بك يا (سلمى)؟ - قالت لنفسها - ألا تحبين السفر و تودين لو ارتحلتي إلى أرجاء العالم؟ ها أنتِ تقفزين قفزة للوراء في رحلة يحسدك عليها أي رحّالة، ولا تفوقها روعة إلا رحلة جدتك التي قفزت مكانك قفزة هائلة للأمام. ألسنتِ تدرسين التاريخ في كلية الآداب؟ ها هو ذا التاريخ تقلّبين صفحاته من داخل كتابه و تقلبين معه صفحات علم الاجتماع أيضاً، لم تكوني ابدا ضعيفة و لا كسولة يا (سلمى)، كل هذا سوف يمر و بعدها ستجدين أن هذا العام كان هو أهم سنوات حياتك على الإطلاق.

قامت (سلمى) من فراشها وخرجت من حجرتها، وما أن رأتها إحدى أخواتها الصغيرات حتى صاحت من الفرح وسارعت لتزف البشرى ولتجمع حولها باقي أسرتها الكبيرة، هؤلاء الناس لم يسمعوا وقتها عن تنظيم النسل - قالت (سلمى) لنفسها - وقد أحتاج بعض الوقت لأعتاد أسماء كل هؤلاء الإخوة و الأخوات.

وتسابت الأخوات لحضنها والإخوة لتقبيل رأسها، حتى جاء الأب يمشي في وقار واحتضن ابنته ثم مدَّ يده إليها ليصافحها هو يقبل ظهر كفه لأعلى كما اعتاد مع أولاده كي يسارعوا إلى تقبيل يده، إلا أن (سلمى) اكتفت بمصافحته فهي لم تسترجع بعد من مخ (سالمة) هذا التقليد الأبوي، نظر الأب إليها صامتًا و إخوتها في استغراب بينما حملتَ فيها أمها في دهشة وغضب، نظرت إليهم (سلمى) مستفسرة وهي لا تفهم لماذا سكتوا فجأة حتى قطع الأب حبال الصمت والتوتر وقال في وقار:

- حمدًا لله على سلامتك يا (سالمة)، كم أشتاق إلى قرح من القهوة من يدك.

ردت (سلمى) بتلعثم وهي لا تزال متوترة من نظرات أسرتها فقالت وهي تتصنع المرح لتكسر حاجز التوتر:

- حالاً يا أبي أعدُّ لك قرحاً من القهوة وأعد نفسي كوباً من الشاي لأشربه معك.

خيم الصمت المطبق على الجميع و نظروا إليها في حزنٍ وشفقة  
بينما هي لا تفهم شيئاً، حتى قالت أمها في أسى:

- ارتاحي أنتِ الآن يا (سالمة) و أنا سأُعيدُ لوالدكِ ما يريد .

دخلت (سلمى) حجرتها هي لا تفهم أين الخطأ فيما قالت،  
دقائقٍ ودخلت عليها أختها (توحيدة) وهي تنظر إليها في إشفاقٍ وتقول:

- ماذا بكِ يا أختي؟

ردت (سلمى) في دهشة:

- لست أفهم ماذا بكم؟ ماذا فعلت وماذا قلت؟

- أولاً لم تُقبلي يد الوالد حين مدّها إليك، وثانياً ما هو هذا  
الشاي الذي كنتِ تودين صنعه و شربه؟

انتبهت (سلمى) لكلام أختها، كان ينبغي عليها أن تذاكر جيداً قبل  
أن تتصرف أو تتفوه، يبدو أن الشاي لم يدخل مصر بعد، وأنها يجب  
عليها أن تراجع ذاكرة دماغ (سالمة) حتى تسترجع تفاصيل حياتهم  
الدقيقة كي لا يتهموها بالجنون أو بالأس، يبدو أنه سيكون عاماً طويلاً:

- هل قلتِ شاي؟ لقد كنت أقصد أن أقول أعشاب و لكن يبدو أن  
لساني خانني من أثر ما كنت فيه .

نظرت إليها (توحيدة) وهي تريد أن تُصدّقها، بينما ذاكرة (سالمة)  
تقول (لسلمى) أن (توحيدة) هي أختها المقربة و صديقتها الصدوقة  
وكلتاها موطن سِرِّ الأخرى .

تههدت (توحيدة) ثم قالت:

- ويد أبي التي لم تقبليها - لأول مرة في حياتك - حين مدها  
إليك؟

- لم أكن أقصد بالطبع، لا زلت مُتَّعَبَةً يا ناس.

- يا أختي؛ سأصارك بشيء، أمي منذ يوم كابوسك وهي تلح  
على أبي لإحضار شيخ يقرأ عليك، هي تظن أنك معشوقة عشقاً  
سفلياً هو سبب ما أنت عليه الآن من تعب و سابق ما أنت عليه من  
مشاكل في الزواج، وأبي حتى الآن يرفض حتى لا تخرج عليك سمعة  
توقف سوق زواجك أكثر مما هو عليه من بوار... سامحيني يا أختي  
على صراحتي وعلى كلامي القاسي، لكن هذا عهدنا أنا وأنت مع  
بعضنا طوال حياتنا، لكن يبدو أن أبي بدأ في التفكير جدياً في كلام  
أمي.

صمتت (سلمى) ولم ترد، لو قيل لها هذا الكلام قبل أن تتبدل  
حياتها لأوسعت قائله سخريَةً وتقريعاً، لكنها بعد ما حدث لها من  
القلادة وطلسمها أصبحت مستعدة لتصديق كل ما كانت تعتبره من  
الخرافات.

مصيبة إذا جاؤا إليها بشيخ له حظوته وخطوته فيخطره قرين  
(سالمة) أن من أمامه ليست (سالمة) أصلاً! وقد لا يستوعب ذلك الشيخ  
ما فعله (حسن) و (برقان)، و وقتها قد يظن أنها روح شريرة سكنت  
جسد (سالمة)، وأخذت تسترجع من عقلها كل ما سمعته أو قرأته عن

طرق صرف هذه الأرواح؛ واقشعر جسدها وهي تتخيل نفسها تأخذ  
علقة ساخنة من خيزرانة ذلك الشيخ! لا بد أن تتدارك الأمر و تثبت  
لهم فوراً أنها طبيعية!



## ( ١٩ )

انتهت (نوف) من حمامها وقد قررت ألا تترك ذلك الارتباك الجنسي يفسد عليها مزاجها، ستتعامل مع تلك الرغبات الذكورية على أنها أنفلونزا؛ الوقاية منها و المناعة خير علاج لها، هي الآن في طريقها إلى مكتب (نوف) في بيروت تستمتع بتلك التجربة المحرومة منها؛ تجربة قيادة سيارة، وليست أي سيارة بل سيارة رياضية فائقة القدرات، وأخذت تخطط في عقلها لما ستفعله خلال ذلك الشهر الذي أوعدت (نوف) أنها ستتغيبه انتقاماً لحبساتها المتعددة السابقة كلما كان يفضب عليها .

لم يكن هناك مجال للحيرة، ستسافر بكل تأكيد وفي كل مكان، بل لو استطاعت أن تتواجد في أكثر من دولة في نفس الوقت لفعلت، إنها الآن كهواء كان مضغوطاً بقوة في وعاء محكم ثم انفجر هذا الوعاء لينتشر الهواء في كل اتجاه.

أخذت تُعد في رأسها جدولاً دَسِماً يطير بها ما بين عدة دول أوروبية وبين شرق آسيا ثم تنهيه بمدغشقر التي طالما حلمت بها وبزيارة غاباتها، فكان (نوف) يسخر من رغبتها تلك و من رغبتها الأخرى في اقتناء سناس من هناك و تربيته!

دخلت (نوف) المكتب وأملت على سكرتيرة (نوف) برنامجها الدَسِم لتتولَّى الحجوزات اللازمة، وفي انتظار ذلك كان عليها أن تباشر بعض

أمور العمل بدلاً عن (نواف)، خلال ذلك شعرت بالارتباك الشديد؛ إنها لم تتصور أن يكون الأمر مُعقّداً بهذا الشكل، و كان عليها أن تتخذ قرارات في أمور لا تفقه فيها شيئاً، وعبثاً حاولت أن تجد إجابة في ذاكرة مخ نواف الذي هو في حوزتها الآن.

الوكيل العقاري في ( دبي ) يطلب منها قراراً فيما يخص أقساط عقاراتهم هناك و التي تراجع أسعارها الأصلية كثيراً حتى أصبح الاستمرار في دفع الأقساط شيئاً خاسراً، حاولت أن تستدرج الوكيل العقاري لمعرفة نصيحته فلم تخرج منه بشيء، فاستمهلت بعض الوقت و فكرت قليلاً فوجدت نفسها تلقائياً تتصل (بنواف)، ولم يرد عليها أول مرة فأخذت تعيد المحاولة في إصرار وهي تقول :

- ليس هذا أبداً وقت دلح الحريم و التظاهر بالغضب.

وانتبهت لنفسها في ذهول؛ ما هذا الذي أقوله؟

وأخيراً رد عليها (نواف)، وبدون مقدمات شرعت تشرح له الحكاية فرد عليها (نواف) في سخرية:

- أراكِ تحتاجين إليَّ يا سيدة الأعمال، أنا لم أفعلها من قبل.

صاحت في وجهه:

- (نواف)؛ ليس هذا وقت الكيد والتشفي، لا تنس أنها أموالك

أنت.

رد في سخريّة:

- أموالي؟ أنا الآن حَرَمِكِ المصون الذي لا وظيفة له إلا إرضاع  
ابنتنا و انتظار عودتك بعد شهر لأُقَدِّمَ لكِ طسْتاً من الماء الساخن  
لقدميكِ المتعبتين من السفر.

- (نواف) كف عن هذا وأخبرني قرارك.

وجدها (نواف) فرصة للتفاوض فقال:

- حسنًا سأساعدكِ على أن تعودي غداً إلى الرياض.

- أقول لك شيئاً؛ سأخذ أي قرار وليكن ما يكون، مع السلامة...

- انتظري انتظري، حسنًا سأخبرك و لكن على الأقل أعيدي لي  
السائق والسيارة واسمحي لي بالخروج من هذا السجن.

- هل أدركتَ الآن أنه سجن؟

- ليس هذا وقت العتاب يا (نوف).

- ما الذي يجبرني على التفاوض معك؟ قل لي ماذا يجبرني؟  
إنها أموالك أنت وأنت من ستخسر.

- على الأقل أنت لا تريدين أن تبدئي تجربتك في العمل بالفشل،  
وثقّي أنها لن تكون آخر مرة ستحتاجين فيها مشورتي، بل لعل هذا  
الذي تسألين عنه الآن هو الحلقة الأسهل في سلسلة مشاكل عالم  
الأعمال.

أدارت (نوف) الكلام في رأسها فوجدته مقنعاً فقالت:

- حسناً سأعيد لك السائق والسيارة.

وأخبرها (نواف) بما ينبغي أن تفعله، وما تحتفظ به من عقارات، وعقارات أخرى تتوقف عن دفع أقساطها و تتنازل عن أقساطها السابقة، ولكن تعيد شراءها من جديد بالسعر الجديد فيكون المجموع أرخص من الاستمرار في دفع أقساطها الأولى.

أنهت (نوف) كل ذلك و استلمت أوراق التذاكر و الحجوزات من السكرتيرة التي ارتاحت لها لما أحست بحاسة الأنثى أن علاقتها (بنواف) لا تتعدى علاقة العمل، وأسرعت إلى البيت تُعدُّ حقيبتها وتعمّدت أن تودع (كوليت) بشكل بارد والتي تفاجأت بسفر (نواف) المفاجئ هذا .

كانت تتمنى أن ترمي عليها يمين الطلاق لكنها تعرف أنها لا تملك هذا الحق شرعاً، كما أنه زواج مدني بين مسلم و مسيحية وله إجراءاته المختلفة التي تمت في قبرص أصلاً وليس في لبنان...ستؤجل موضوع الطلاق هذا لفرصة أخرى، خصوصاً أن (كوليت) وهي تُقبلها مودعةً بحرارة - برغم جفافها معها - أحست في قلبها بطعم لذيد أعادت لها بعض ارتباكها الجنسي السابق.



شرعت (نوف) في رحلتها و كأنّها طائر حبيس هرب من قفصه، لكن ما عكّر عليها مزاجها ذلك الإحساس الذي تولّد عندها بحاجتها

إلى (نواف)، فلكي تعيش مكانه فعليها أن تقوم بعمله، كانت تظن الأمر سهلاً وكانت تضيق فيما مضى بكثرة المكالمات التي تهال على (نواف) وهو معها، وتظن في الأمر عناصر نسائية والحجة هي الشغل، وها هي الآن تحل محله و ترى أن حياة رجال الأعمال ليست بالنعومة التي كانت تتخيلها، إنما هي المعنى الحقيقي لكلمة الصداق المزمّن، وهاهي تضطرّ للرجوع إليه في بعض القرارات و (نواف) - ككل رجال الأعمال - مفاوض بارع لا يُفوّت الفرصة لتحقيق أي مكاسب، لكنها ما زالت الأقوى، صحيح أنّها لا تريد أن ترى نفسها فاشلة - كما فطن (نواف)- لكنه أيضاً لن يترك أعماله لتخسر و سيدخل رغماً عنها ولو في اللحظة الأخيرة.

طردت (نواف) الأفكار السلبية عن رأسها فلا مجال لشيء يعكر عليها صفو رحلتها و برنامجها الدسم جداً... هي الآن في طريقها إلى أمستردام عبر فترة توقف لثلاث ساعات في مطار إسطنبول، ستقضي يومين في أمستردام التي لم تزرها من قبل، و لن تخترقها هذه المرة أعين المتطفلين أو الراضين لعباءتها الخليجية كما كان يحدث معها أحياناً في بعض المدن الأوروبية أو الأمريكية، فهي الآن رجلٌ يرتدي ثياباً أوروبية و من أفضل الماركات أيضاً .

لم تكن تعلم أن هذه الثياب الفاخرة ستجعل فتيات منطقة (الضوء الأحمر) في أمستردام التي دخلت أحد شوارعها بطريق المصادفة، يلاحقنها في إصرار فتضطر للإسراع في الخروج من هذا الشارع، إنّها وإن تدفقت الدماء الحارة في جسدها الذكوري بسبب هؤلاء الفتيات إلا

أنَّها (كنوف) كادت أن تتقيأً منهن ومن فكرة أن تبيع فتاةً لهما بهذا الرخص، وشعرت بالخجل لبنات جنسها لكنها سحبت هذا الغضب إلى الرجال أيضاً الذين في رأيها لولا شبقهم الحيواني واستغلالهم لحاجة هؤلاء النساء إلى المادة ما عملن في الدعارة.

ومن أمستردام طارت إلى ميلانو، يقولون أنها هي عاصمة التسوق في إيطاليا وليست روما التي زارتها من قبل، لكنها احتارت ماذا تتسوق بالضبط؟ هل هي الآن رجلٌ أم امرأة؟ هل تتسوق كامرأة فتشتري مالا يلزمها؟ أم كرجل فتشتري ما لا يعجبها؟ وفي النهاية قررت أن تكتفي بوضع هدايا تذكارية من كل مكان تزوره وبيع بعض الهدايا الجميلة لصغيرتها (أسيل)، وأن تقاوم غريزة التسوق الأصلية فيها كأنتى.

وبعد يومين قضتتهما في التسكع في ساحة الدومو في ميلانو، وبالتمتع بالأكل الإيطالي استقلت القطار لثلاث ساعات إلى فلورنسا حيث مظاهر الحياة الكلاسيكية، و آيات المعمار وأبيات الفن التشكيلي تُعرض على أرفصة الشوارع والأزقة من قبل رساميها...

ومنها ساعة واحدة بالقطار إلى مدينة بيزا لتقضي يومها وهي تحاول استبدال وضع برج بيزا - في الصور فقط بالطبع - ولما جاءت محاولاتها بالفشل استقلت القطار إلى فيرونا؛ حيث الهدوء والكلاسيكية من جديد وقنوات المياه ومنزل جوليت بطله مسرحية روميو وجوليت، وبالطبع التماثيل والنوافير المنتشرة في كل مكان، لا ينافسها في انتشارها إلا المطاعم، ولأول مرة منذ سنوات تأخذ راحتها في تناول الطعام ولا تحاذر على مقاسات جسدها وتناسقه، وللمرة - لا

تدري كم - تحسد الرجال على أجسادهم الأقل قابلية في زيادة الوزن من أجساد النساء.

ولم تفكر في زيارة فينيسيا ولا بحيرة كومو؛ ماذا ستصنع في هذه الأماكن الرومانسية و هي امرأة وحيدة، تقصد رجلاً وحيداً ، أيًا ما كان جنسها فقد تجنَّبت السفر إليها، و جعلها التفكير في هذه الأماكن الرومانسية تشعر بالحنين يدب في قلبها إلى رؤية (نواف) حتى و إن كان في جسدها هي (كنوف)!

ومن فيرونا استقلت القطار لتعبر به الحدود إلى ألمانيا، و نامت معظم الرحلة التي استمرت لـ ٧ ساعات حتى هبطت في محطة ميونخ؛ لتعود إلى الصخب من جديد الذي كانت قد ودَّعته في مدينة ميلان، ولتستمتع بجمال الشوارع وبالمطاعم و السهرات، و لتهرب من جديد من مطاردة فتيات المتعة لها؛ هذه البلاد الغنية لماذا تتواجد الدعارة وصناعة البورنو فيها أصلاً؟ تساءلت (نوف) في نفسها .

وأحسَّت بالألفة في ميونخ من كثرة وجود العرب والمحلات المزينة بلافتات عربية، وجرَّبت تدخين الشيشة على المأل بعد أن كان ذلك يقتصر على الجلسات الحريمي المغلقة في الرياض، وكان (نواف) لا يسمح لها بتدخينها أمام الناس حتَّى في رحلاتهم السياحية إلى الخارج، وأدركت وجهة نظره وهي ترى الفتيات و النساء اللاتي يدخنَّ الشيشة حولها في المقاهي؛ فقد أحسَّت - و هي رجل - كم أن نظرة الرجل للمرأة وهي تشرب الشيشة - في أحسن أحوال هذه النظرة احتراماً - هي نظرة تخلو من التقدير.

ومن ميونخ الألمانية إلى سالزبورج النمساوية في رحلة لثلاث ساعات بالقطار، وها هي تعبر الحدود الدولية بالقطار للمرة الثانية، وتساءلت من الذي صنع هذه الحدود؟ كيف تغيرت خريطة تلك الدول أكثر من مرة، وما كان دولتان من قبل صار الآن دولة واحدة، ومن كانت دولة موحدة انقسمت إلى دولتين أو أكثر، ولماذا الحدود خطوط متعرجة؟ لماذا لم يجعلها راسموها خطوطاً مستقيمة، ولم تُصدّق وهي تطالع تلك البقاع الساحرة النائمة في روعة وهدوء أن هذه الأراضي شهدت قرونًا طويلة من المذابح و من الهمجية، ومن الحروب القبليّة والعرقية والدينية.

الجمال والرومانسية في النمسا تختلف، و بيت (موزارت) هو المَعْلَم الأهم في سالزبورج رغم أنّه بيت عادي، لكن الناس هي من تصنع قيمة للأشياء، وأثرى أثرياء أوروبا بل و العالم لا يتذكّروهم أحد بعد موتهم بل ربما ولا حتّى ورثتهم، بينما يتذكر كل العالم (موزارت) الذي مات فقيراً ويحجون إلى بيته رغم بساطته.

واختتمت رحلتها الأوروبية في فيينا عاصمة السحر والموسيقى في أوروبا و الرابضة فوق نهر الدانوب، و التي برغم كل ما فيها من جمال لم تمنع (نوف) من الإحساس بالملل يتسرب إليها ...

لم تظن أن إحساس الوحدة سيضرها بهذه السرعة، كانت تعتقد أنّها ستصادف في جولاتها - كما سمعت من قبل - مسافرين آخرين وحيدين أيضاً و يقضون على إحساس الوحدة بالتعارف على بعضهم ومشاركة الرحلة، و هو ما لم يحدث إلا مع سيده أربيعينية اكتشفت

(نوف) أنها كانت تريد إضافة بند السياحة الجنسية إلى بنود السياحة الأخرى، وبعد أن تخلّصت (نوف) منها لم تجد من له - أو لها - نفس خريطةها السياحية.

قررت (نوف) الاكتفاء بهذا القدر من القارة الأوروبية وطارَت إلى أقصى الشرق في خطة تطمح إلى زيارة تايلاند وماليزيا واندونيسيا وسنغافورة، ما بين التجول في المدن الكبرى هناك و بين ارتياد الطبيعة الاستوائية الخلابة الساحرة.

وهبطت بها الطائرة مطار بانكوك بعد أن استبدلت الطائرة أكثر من مرة، ولم تكن تحسب أن ملامح (نوف) الخليجية وبملابسه الفاخرة سيجعلانها عرضة للمطارادات من بائعات الهوى في كل مكان ترتاده وليس في منطقة بعينها كما حدث معها في أمستردام أو ميونخ، ليلة واحدة وفرت من بانكوك إلى جزيرة بوكيت و هي تحس كأنَّ سَعَاراً جنسياً قد ضرب العالم! وأوت إلى الفندق الفاخر واستمتعت بالشاطئ الساحر بغير قيود هذه المرة على جسدها الأنثوي وبدون ذلك السؤال الذي كان يعكر دائماً صفو كل رحلة شاطئية سابقة: أين سأستمتع بالسباحة؟

لكنها وما أن آوت إلى فراشها الوثير ليلاً حتَّى أحست بكل معاني الضيق والملل والضجر الطفش، وفتحت هاتفها - الذي هو هاتف (نوف) في الأصل - وأخذت تُقلِّب في صورهِ وصورها معه، وانسابت دموعها عندما صادفت صورهما مع (أسيل)، وفي صباح اليوم التالي كانت تتصل بالمكتب السياحي؛ لقد قررت التخلّي عن حلم زيارة

مدغشقر وعن النسناس، وطلبت منهم تديبر أسرع عودة لها إلى  
الرياض!



## ( ٢٠ )

ماذا كنت ستصنع يا (نواف) لو لم ينجح تفاوضك مع (نوف) وتخرج منها بعودة السيارة والسائق؟ هكذا سأل نفسه.

لقد مضى عليه ثلاثة أيام وهو حبيس هذا القصر كاد أن يُجَنّ خلالهم، كيف كان سيتحمل شهراً كاملاً كما قالت له (نوف)؟ أخيراً سيصل السائق غداً وسيتمكن من الخروج، لقد صنع كل ما يكسر الملل خلال هذه الأيام الثلاثة فأبى الملعون أن ينكسر، الإنترنت والفضائيات يكسرون الملل لكن لعدد محدود من الساعات بعدها تمتلئ ضجراً منهما معاً.

التواصل الإنساني له معنى آخر، ولكن مع من؟ لم يستطع بالطبع أن يهاتف أحد أصدقائه الشباب، صحيح أنه جاءته مكالمات كثيرة لكن كلها كانت (لنوف)، مكالمة واحدة منهن كانت كفيّلة بأن يسبّ الهاتف ويسبّ من اخترعه بل ويسبّ نفسه على تورطه في هذه المكالمة، ساعة ونصف - ٩٠ دقيقة - من الحديث العدمي في مائة موضوع مختلف يربط بينهم اللاشيء، حتّى أحس بعدها أن سماعه الهاتف قد التصقت بأذنه ومجموعة من الحدادين يعملون بمنتهى النشاط داخل رأسه، حتى قرر بعدها ألا يرد على أي هاتف يهاتفه، فقط سيجيب على اتصالات (نوف) التي كان يتجاهلها في الماضي، أما الآن فهي لا تتصل به إلا كي يتدارك مشكلة من مشاكل العمل.

وما كادت دماغه تتعافى حتَّى حلَّ المساء وحلَّ معه خبر لا يقلُّ  
إزعاجاً؛ مجلس من قريباته وقريبات (نوف) و صاحباتها قرَّرن التجمع  
الليلة عند (نوف) أي عنده هو، قال لنفسه مُعللاً لعلها فرصة ليتعرف  
عما يدور في مجالس النساء بعيداً عن حضور الرجال، وكانت فرصة  
لا أعادها الله!

ست ساعات من العرض المتواصل حتَّى كاد يُجنَّ؛ عشرون امرأة  
يتحدثن في أربعين موضوعاً في آن واحد و ليس بينهم موضوع واحد  
له أي أهمية عنده، وجميعهن لديهن القدرة على استيعاب كل تلك  
المواضيع معاً حتَّى استغرين (نوف) وسطهن و لاحظن أنَّها لا تجاريهن  
في أحاديثهن، وكل فترة يتعلل بالذهاب إلى الحمام أو لمراقبة (أسيل)  
ومربيتهما بينما هو يذهب للصرخ تنفيساً للصداع ثم يعود إليهن  
لاستكمال حفلة التعذيب من جديد.

صحيح أن بعض جلسات الرجال تمتد لساعات لكنها تدور ما بين  
نكتة و بعض أدوار لعبة البلوت و أحاديث متفرقة في موضوعات مهمة  
كالسياسة و المال و الرياضة، و تتخللها فترات من الصمت الجميل تعيد  
فيها ترتيب رأسك يا (نوف)...كيف ستقضي هذا العام مكان (نوف)؟  
وأخيراً جاء السائق و جاء معه تصريح بالإفراج و الخروج، وبعده  
ساعتين من الارتباك تمكن(نوف) أخيراً من ارتداء ملابس (نوف)  
للخروج وضبط عباؤها وطرحتها، ومضى لركوب السيارة وهو يشعر  
بخجل شديد من ثيابه تلك والخروج بها على الملأ وكأنَّ الناس سيعرفون  
أنَّه (نوف) في جسد (نوف)، و مضت السيارة تقطع به شوارع الرياض،

واستغرب السائق حين طلب منه (نواف) أن يخرج به إلى الطريق الدائري.

- أين تريد الذهاب يا عمتي؟

- فقط اسلك الدائري.

ومضت السيارة تنهب بهما الطريق الدائري السريع والسائق يستغرب من هذا الطلب الذي لم يسبق للسيدة (نواف) أن طلبته، و يتوقع كلما اقتربوا من أحد مخارج الدائري أن تطلب منه (نواف) سلوك ذلك المخرج ثم لا يلبث أن يصاب بالإحباط و السيارة تتجاوز ذلك المخرج، ومضت السيارة تمرُّ بالمخارج أمام عيني السائق حتى قرر الاكتفاء بتسلية نفسه بتريده أرقام المخارج في ذهنه مع لوحات أرقامها التي تمرُّ أمام عينيه، وبدأ السائق يتوقع أنه سيكون يوماً طويلاً يقضيه بين الطرق الدائرية الأربعة حول الرياض؛ شمالها وجنوبها وشرقها وغربها .

وفجأة حاذت السيارة سيارة أخرى يستقلها شابان اللذان ما إن لمحا امرأة في المقعد الخلفي حتى قررا أنها صيد محتمل، ورفع الشاب الذي بجوار السائق لوحة فيها رقم هاتفه الجوال، وأحس (نواف) بالغضب يجتاحه ولكنه قرر أن يتمالك نفسه ويَمِّم وجهه بعيداً عن سيارة الشابين، فقرر الشبان استعراض قدرتهما على السماجة وأخذ قائدها يتراقص بسيارته بجوار سيارة (نواف) مقترباً منها ومبتعداً عنها في حركات زجاجية خطيرة، وبدأ الارتباك يظهر على سائق سيارة (نواف) فقال و عرق التوتر يتفصد به جبينه:

- ماذا سنصنع يا عمتي؟

- اهرب منهم، زد سرعتك قدر ما تستطيع واخرج من الدائري من أقرب مخرج.

وعبثاً حاول السائق فعل ذلك، فاستمر الشابان في ملاحقة سيارة (نواف) ومتابعتها وملاصقتها في حركات جنونية، وبدأ (نواف) يشعر بالغليان يجتاحه ويقول لنفسه: لو حدث ذلك وأنا ما زلت (نواف) لأطلقت عليهما الرصاص من مسدسي، و لكن من كان سيهتم أصلاً بمعاكسة سيارة يركبها رجل؟ ثم بدأ الغضب يتحول عند (نواف) إلى نوع من الخوف بعد أن زادت جراءة الشابين؛ وبدوا كأنهما يحاولان اضطرار سيارة (نواف) إلى التوقف، وبدأ الرعب يتسلل إلى قلب (نواف) والاحتمالات السوداء تتقاذف إلى مخيلته، وفجأة أطلقت سيارة الشابين لنفسها العنان بعد أن لمح قائدها سيارة للشرطة في مرآة سيارته، وتحولت المطاردة إلى سيارة الشرطة وهي تلاحق سيارة الشابين .

وتتنفس (نواف) الصعداء وأمر سائق السيارة بسلوك أقرب طريق للعودة إلى الفيلا، و تذكر في خجل بعض المرات التي حاول فيها - أيام طيش الشباب - أن ( يرقم ) بعض الفتيات ويملي عليهن رقم هاتفه أو يلقي ذلك الرقم في ورقة إليهن، لكنه لم يكن ليجرؤ أبداً على مطاردتهن بهذه الطريقة الوقحة، وبدأ إحساس الخجل لديه يتحول إلى إحساس بالرضا؛ لقد كنا مهذبين حتى في شقاوتنا!

وبعد أن تمالك أعصابه قرر ألا يُفسد عليه يومه الذي انتظره، وعدل عن العودة إلى الفيلا وأمر السائق بالذهاب إلى أقرب مركز تجاري ( مول )، واسترخى في مقعده الوثير و أغمض عينيه حتى نبَّه السائق إلى وصولهما، فنزل (نواف) عند بوابة المركز ومضى إلى داخله، وبدأ إحساس الإحراج يتسلل إليه ثانية من ملابسه النسائية، ولم تخلُ النظرات من ابتسامات أو غمزات من بعض الرجال، ولكن الأغرب كانت نظرات النساء التي بدت و كأنها تتفحصه و تُدقق في كل تفاصيله، وبعض النساء لديهن القدرة على التفحص من الرأس إلى الحذاء في نظرة واحدة شمولية.

ظنَّ (نواف) أن في ملابسه شيء ما مُلفت أو أنه لم يُحسن هندام ثيابه النسائية التي لم يعتدها، ووقف أمام أكثر من مرآة حتى يتأكد أن كل شيء على ما يرام، وبدأ (نواف) يشعر بالضيق والتوتر من هذه النظرات - نظرات النساء قبل نظرات الرجال، وبدأ يضيق بالمركز التجاري كله خاصةً أنه ليس من هواة التنزه في المراكز التجارية، فقرر العودة إلى المنزل والاعتناء (بأسيل) بدلاً من المريية.



## ( ٢١ )

بعد أيام قليلة من عمله الجديد كسائق توكتوك أدرك (جوزيف) أن الفارق بين الحياة في بلد والعمل فيها، وبين أن يسافر إليها كسائح هو مثل الفرق بين أن يسافر لزيارة مكان وبين أن يقرأ عنه ويشاهد صور معالمه.

لقد كان يظن نفسه صاحب خبرة في البلدان التي يزورها؛ لأنه لا يكتفي بزيارة الأماكن السياحية وإنما يتجاوز ذلك إلى التجوال في أعماق هذه البلدان أحيائها الداخلية واستعمال مواصلاتها العامة، لكنه اكتشف أنه يكاد يشبه ذلك الرحالة الذي زار مصر قديماً ووصف أحياءها في كتابه، واستغرب أن المصريين يحرسون بيوتهم بالخِرَاف التي رأها مربوطة على أبواب بيوتهم، ولم يسأل ليعرف أنها خِرَاف أضاحي يوم عيدهم الأكبر!

تعلّم (جوزيف) في يوم عمله الأول ما لم يتعلمه في أسبوعين قضاهما سائحاً في مصر من قبل، لكنه ذلك التعليم القاسي الذي يقرص الأذن و يصفع الخدّ كي يكون درساً لا يُنسى أبداً.

مارس الحياة التي تجعل صاحبها يحسب حساب كل خطوة ويتوقع أية مشكلة في أية لحظة و يتعاهد عيناه أنها دائماً وسط رأسه...

الحياة التي ليس فيها رفاهية التأمل وشرود الذهن إلا فيما يحيط به من مشاكل...

الحياة التي تذكره بالنعمة التي أَلْفَهَا والمعيشة المَرْقَهة التي اعتادها حتى لم يعد يحس بوجودها...

انقطاع الكهرباء مثلاً عن البيت بسبب أحمال زائدة لم تُصمَّم مرافق البيت لتَحْمَلُهَا، أو قطعها من شركة الكهرباء لأعمال صيانة؛ فيجب الحذر عند عودتها أنها قد تحرق أجهزة المنزل الكهربائية...  
قرار مفاجئ لأحد رجال الشرطة أنَّ شكله لا يروق لمزاجه، ويكون هو المُطَالَب بتغيير ذلك المزاج رغم أنه لم يقترف شيئاً وكل أوراقه سليمة...

استهجان سيارة نصف نقل لمزاحمة ذلك التوكتوك لها في الشارع المزدحم أصلاً، وتحول ذلك الاستهجان أحياناً إلى رد فعل يضطره إلى إيقاف التوكتوك قبل انسحاقه بين سيارتين...

وشخص غريب الشكل وطريقة الكلام، ويطلقون عليه لقب (بعليكة)، وعبئاً حاول (جوزيف) أن يجد ترجمة لهذا الاسم في قاموس اللغة العربية في دماغ (يوسف) فلم يجد سوى أنها أسماء شُهرة كُلمَّا زادت غرابتها كُلمَّا زادت رهبتها وتأثيرها في نفوس من يسمعونها، لكنه فهم من ذلك الـ (بعليكة) أنه في حمايته - هو وغيره من سائقي مركبات الأجرة في المنطقة - ولكن حمايته هذه لها ثمن يدفعه إذا أراد الخروج بالتوكتوك خارج حدود حارته وإلا فإنَّ عليه تحمل مسؤولية نفسه وسلامة مركبته...

هذا غير خوازيق الشوارع الثابتة و المتحركة و الطائرة و التي عليه  
تفاديها أثناء القيادة.

البيوت بُنيت لتكون موطناً لراحة الناس بعد عناء اليوم الطويل  
المُتلف للأعصاب، لكن هناك من يخلو له السهر المتأخر، و آخر يستيقظ  
مع العصافير، و كلاهما يجب أن يشاركه جميع الجيران في نشاطاته...  
لا مواعيد عند الناس هنا لأعمال الصيانة المنزلية و التاكسير، و لا  
حرج على أحد في مكبرات الصوت في أي وقت.

ذلك الجار المدعو (أبو سهير) برغم أنه لم ينجب؛ لو كان عندنا في  
أمريكا لأودع السجن و لخضع لبرنامج إعادة التأهيل - قال (جوزيف)  
لنفسه...

كائن لزج ضخم الجثة و الكرش و عاقل تحت مُسمى المعاش  
المُبكر برغم أنه لم يبلغ الخمسين، و لا وظيفة له سوى عراق زوجته  
صباحاً و استضافة أصدقائه في جلسات الحشيش مساءً، و لا حدود  
لصوته الأجهش المنفر في الحالتين، و لا يتوقف جهاز تسجيله الرديء  
عن الصبح بأعلى صوته بأقبح الأغاني الشعبية.

كائن لو عاش في الصحراء لفرّت منه الثعالب و العقارب، و الغريب  
أن سكان البيت يتعايشون مع الوضع من منطلق اصبر على جار السوء،  
و الحقيقة أن أحد السكان المحترمين حاول نعت انتباهه بلطف ذات مرة  
فعاد إلى شقته و قد فقد جزءاً كبيراً من ذلك الاحترام و من كرامته.

يكاد يبكي (جوزيف) كلما تذكر أنَّ عليه البقاء على هذا الحال الجديد لمدة سنة كاملة... وسط هذا المزيج الخرافي من الضوضاء والزحام و التلوث بأنواعه المختلفة.

أضاف (جوزيف) بند المياه المعدنية إلى ميزانية (يوسف) المرهقة أصلاً، وتحايل لتخفيف هذا البند بشراء عبوات المياه الكبيرة المُعدَّة للاستخدام في مبردات الماء لكن بدون شراء هذا المبرد بالطبع.

لا يريد أن يفكر أن هذا الحال قد يصير حاله الدائم لو قرر (يوسف) البقاء في أمريكا مكانه، ويَطْرُدُ بإصرار أي تفكير منطقي يؤكد أن (يوسف) سيختار ما سيختاره أي عاقل مكانه.

إنه يشعر أنه لم يُطْرَد فقط من جنة حياته المترفة السابقة، بل طُرِدَ أيضاً خارج العقل والمنطق اللذين كان يعيش حياته في إطارهما...

اكتشف أن المنطق الوحيد في معظم تصرفات الناس حوله هو أنهم يتصرفون عادة باللامنطق، لم يفهم إصرار الكثيرين على السير بمركباتهم عكس اتجاه السير بل وتكون لهم الأولوية في المرور، استغرب أن سائقي الأجرة هم أكثر السائقين مخالفة لقواعد المرور رغم أنهم المفترض أن يكونوا هم الأكثر حرصاً على هذه القواعد، أما ما يفعله زملاؤه سائقي التوكتوك فكانت في نظره مهارات فائقة لعاملين في السيرك وليست قيادة مركبات أجرة.

في البداية كان يظن أن بعض لوحات السيارات تُزين بالنسور أو بالموازين كي تكون نموذجاً يتبع في أصول القيادة أو رادعاً لمن حولهم

من المخالفين، لكنه اكتشف أن هذه الرموز إنما هي صك أمان و حماية  
وتصريح لهم بالقيادة كيفما شاءوا .

الشيء الذي أثار دهشته فعلاً هو قدرة بعض الناس على الجمع  
بين خفة الظل العالية مع ملامح الوجه التي تحمل تعابير الحزن  
والألم والقرص معاً .

وكثيراً ما تساءل؛ لماذا الناس ودودون جداً وعدوانيون للغاية في  
تعاملاتهم في نفس الوقت؟ كيف يخلعون قناع ملامح الحزن والتقزز  
من على وجوههم إلى قناع الابتسام و السرور عندما يصادفون من  
يحبونهم ثم يعودون لقناعهم الأول فور نهاية هذا اللقاء؟ لماذا يجد  
مظاهر الشراء الواضح مع مظاهر الفقر المدقع في نفس الشارع أحياناً؟



أكثر ما كان يغيظ (جوزيف) هو موقف سيارات الأجرة القريب  
من منزله، وبرغم أنه المكان الذي يرتكن إليه بمركبته و يبدأ منه  
جولات عمله إلا أنه لم يهضم أبداً هذه العشوائية والهمجية التي  
تحكم ذلك الموقف...

- ما علاقة أكل العيش بالهمجية و بتنغيص حياة الناس؟

هكذا كان يتساءل...

الدوران الواسع في الشارع والذي صمم لضمان انسيابية المرور  
جعله سائقو سيارات الأجرة و بلطجية الموقف ضيقاً تمر منه سيارة  
واحدة بالكاد...لماذا؟

سائقو الأجرة و برغم أن هؤلاء البلطجية يقاسمونهم في أرزاقهم  
إلا أنهم - لا أقول مستسلمون لهم - بل يصادقونهم وكأن هذا هو  
الطبيعي...لماذا أيضاً؟

يبدو أنه التأقلم مع الخوف، ولربما لو نجحت شرطة المرور في  
مفاجأة هذا الموقف في إحدى حملاتها لانضبط الوضع، لكن هذه  
الحملات لا تتجح أبداً، ودائماً ما يكون الموقف على دراية بهذه الحملة  
قبل مدهمتها، فتأتي الحملة وكل شيء على أتم ما يرام ولا تمر ساعة  
بعد انصرافها إلا وتعود الفوضى لتفترش المكان.

ولاحظ (جوزيف) وجود ناضورية يحذرون سائقي الموقف  
وبلطجيته قبل عمليات المداهمة، وبرغم أنه في زيارة سخيطة لمدة  
سنة يقضيها على مضض إلا أنه قرر التصرف بإيجابية، فحفظ  
شكل الناضورية وأسمائهم وقرر إبلاغ أحد رجال شرطة المرور  
عنهم، وبالفعل اهتم الشرطي بكلامه وأخذ منه الأسماء وتفهم موقفه  
أنه يخاف من تقديم بلاغ رسمي ووعدته باتخاذ اللازم وشكره على  
إيجابيته.

وأحس (جوزيف) بالارتياح و بالفخر لموقفه، وها هو يعود  
لاستكمال جولات رزقه ويرمق سائقي الموقف و ناضورجيته بطرف  
عينيه في تَشَمِّي...لن تلبثوا إلا أن تتعلموا الأدب عما قريب...

- أنت يا ولديا (يوسف)!

بهت (جوزيف) عندما سمع هذا النداء من ذلك ال (بعليكة) والذي يفرض سطوته على الموقف، حاول أن يتجاهله وكأنه لم يسمعه؛ لكنه فوجئ بمن يقفز داخل التوكتوك وبمن يسحبه خارجه وبآخر يأخذ بتلابيبه من قفاه و يقف به أمام ذلك البلطجي الذي ضحك ضحكة صفراء اللون وسوداء الأسنان و قال:

- ما هي عقوبة الواشي يا رجال؟ أنا أرتضي حكمكم في زميلكم.

وهنا أخذ سائقو الموقف الذين تحلقوا حوله يتصايحون في غضب:

نحرق مركبته... نربطه في التوكتوك و نسحله حول الحي... نترك المطواة ترسم له علامة مميزة في وجهه يتذكر بها جريمته للأبد... فقال (بعليكة):

- حرام عليكم يا شباب، الأستاذ (يوسف) ابن ناس و متعلم والرحمة حلوة.

ثم التفت إلى (جوزيف) وقال:

- رأييت؟ لو تركتك لزملائك ماذا كانوا سيصنعون بك؟ هل أدركت الآن قيمة وجودي؟

احتقن وجه (جوزيف) بالدماء و توترت أعصابه حتى كاد أن تقلت منه أعصاب مثانته، فأكمل (بعليكة) و قال:

- لن أعاقبك على محاولتك الوشاية بنا فهذا أمر تافه لا يؤثر فينا، لكني سأعاقبك على غبائك... ألا تدري أيها الجحش الكبير أن

نصف سيارات الموقف يشارك في ملكيتها من ذهب لتشي بنا عندهم؟  
وفقط لوجود ضابط جديد متحمس في وحدة المرور فإنهم يسايرونه في  
خروج الحملات في انتظار أن ترتخي قبضته مع الوقت؟

- ماذا دهاك يا (يوسف)؟ ونحن من كنا نظن فيك الأخلاق!

هكذا صاح في وجهه أحد زملائه، فرفع البلطجي يده لأعلى كي  
يوقف همهمات السائقين وقال:

- ولأنها غلطته الأولى ولأننا لا نحب قطع الأرزاق فسوف نكتفي  
بعقاب خفيف.

ثم وجه كلامه (لجوزيف) وقال في هدوء:

- هيا اخلع!

بهت (جوزيف) وقال:

- أخلع ماذا؟

- اخلع ثيابك الخارجية و حذاءك.

تجمد (جوزيف) في مكانه ولم يصنع شيئاً فقال (بعليكة):

- إمّا أن تخلع ثيابك الخارجية بيديك أو أجردك أنا من جميع  
ثيابك ثم أترك زملاءك يحرقون لك التوكتوك.

ووجد (جوزيف) التصميم في وجه (بعليكة) والحماس في أعين  
السائقين؛ فبدأ في خلع حذائه و قميصه وتردد قليلاً فأشار له

(بعليكة) بطرف مطواته أن يكمل فخلع بنطاله، وتعاليت صيحات السائقين وضحكاتهم وصفافيرهم ؛ ما كل هذا الجمال يا (يوسف)، أئتزوجيني يا حلوة...

وحاول أحدهم تقبيله في كتفه فنفضه (جوزيف) بيده فرد عليه آخر باغتراف مؤخرته، فانطلق (جوزيف) ليعدو بعيداً عنهم، فاستوقفه (بعليكة) وقال له في صرامة:

- هذه مجرد قرصة أذن، و غداً تعاود عمك وإياك أن تتغيب، ونصف إيراد التوكتوك غرامة عليك لمدة شهر، هيا امشي من هنا. ورفع يده لأعلى كأنه سيصفعه، فسقط (جوزيف) أرضاً ثم قام وأطلق لساقيه العنان وهو يبكي، ولم يتوقف إلا وهو يرتمي على فراشه وقد تجمدت دموعه من القهر.

وبكت أمه و(سارة) بكاءً حاراً له، وصُعق لما وجدهما يلومانه على وشايته، ودُهِش أكثر لما وجد أصدقاء (يوسف) يواسونه ويلومونه مثل أمه وأخته.

وزادت دهشته في اليوم التالي لما دخل الموقف مطأطئ الرأس؛ فوجد السائقين بل و (بعليكة) يتعاملون معه ويمازحونه وكأنهم أناس غير من كانوا بالأمس.

إنه عامٌ من الجنون و اللامنطق في كل شيء.

ومع الوقت قرر (جوزيف) أن يتأقلم بأي شكل و أن يعتبرها تجربة  
ودراسة عملية لمادة لم يسبق له دراستها في الأنثربولوجيا الاجتماعية...  
أن يعتبر نفسه و كأنه في رحلة سفاري شاقّة لمدة عام...

أن يتخيل نفسه نجم من نجوم هوليوود و جاء لتصوير فيلم العمر  
الذي يحتاج لمجهود استثنائي ومعايشة لواقع السيناريو الصعب قبل  
التصوير...

لكن لا بد أن يدفع هؤلاء الأوغاد ثمن فعلتهم... لكن كيف وهو  
وحده بلا حول ولا قوة؟ لا بأس... ستأتي تلك الفرصة يوماً ما، لكن  
حتى يحين ذلك فعليه أن يتكيف مؤقتاً مع ذلك الحال حتى يحقق  
هدفه الحالي؛ سوف يعمل بجد عدة أيام حتى يستطيع جمع مبلغ  
معقول يشحن به هاتفه المحمول برصيدٍ كافٍ لإجراء مكالمة دولية  
طويلة!



## ( ٢٢ )

وقف (يوسف) تحت شلالات المياه المنهمرة فوق رأسه وحول جسده من رشاشات مخبأة في سقف الحمام وفي حوائطه، لكنه لم يكن يستمتع أبداً بذلك الحمام الفاخر الذي لم يسبق وأن شاهد مثله حتى في الصور، إنما كان يغتسل صامتاً ودمعات تترقرق في عينيه حزناً على ما اقترفه، لم يكن يظن أنه سيكون بذلك الضعف أمام جمال (سوزانا)، لم يكن يتصور أصلاً أنه يمكن أن يقف يوماً أمام جمال كهذا و ينطق هذا الجمال قائلاً له هيت لك!

هو لم يتصور ذلك يوماً لا من فتاة جميلة ولا حتى متواضعة الجمال.

يا (يوسف الصديق): أي قوة ربانية كانت عندك لتقول معاذ الله بينما الرغبة تضطرم في صدرك، وأي هوى شيطاني عصف بي... قال (يوسف) لنفسه.

كنت أستطيع ألا أفتح الباب أصلاً و لكنني ضعفت و خدعت نفسي حين قلت لنر ما شأن هذه الفتاة و ماذا تريد من (جوزيف) ثم أصرفها قبل حدوث أي شيء.

بات (يوسف) ليلته هذه حزيناً مهموماً، وفي صباح اليوم التالي رنَّ الهاتف حاملاً له اسم (ويتتي) و صورتها، الفضول فقط هو الذي دفعه إليها ليعرف ماذا تريد هذه الفتاة السمراء من (جوزيف) الأشقر،

وانتهى به الأمر أن يعرف هو الفرق بين طعم (وبيتي) الفتاة السمراء و (سوزانا) الشقراء .

وكما حدث بالأمس؛ فقد أظهر ندمه الشديد بعدها وبكى هذه المرة فعلاً وهو يتطهر من إثمته تحت شلالات مياه الحمام الفاخر .

وفي المساء قرر ألا يطلع عليه الصباح إلا وهو يغادر هذه الشقة التي تبدو وكأن صديقات (جوزيف) يتناوبن عليها في جدول مواعيد محددة لكل واحدة منهن .

فليستكمل رحلة (جوزيف) في الصعلكة حول العالم ، فهذا هو الآن مواطن أمريكي يحمل جواز سفر أمريكي وهو الذي حاول في مصر الحصول على تأشيرة لدخولها ورفض طلبه بالطبع، لذلك فليبدأ الآن في السياحة الداخلية أولاً، فهذا أنا أقيم - قال يوسف - فيك يا أرض الأحلام رغماً عن قناصلة سفارتك الذين يظنون أنهم حاملوا مفاتيح جنتك .

وفي الصباح أخذ في حزم حقائب السفر؛ (جوزيف) هذا لديه كل شيء - قال (يوسف) لنفسه - حتى أنني بدأت أشعر بالإحباط أنني لن أتمكن من الحلم بامتلاك أي شيء جديد .

وتغافل (يوسف) هذه المرة عن الاتصال الذي جاءه من فتاة قال الهاتف أن اسمها (نيكول) و أنها جميلة أيضاً، لكن (يوسف) قرر الصمود هذه المرة؛ إن السقوط يبدأ عنده من أول كلمة آلو!

وتساءل (يوسف): من صاحب الذنب في هذا السقوط؛ هو أم (جوزيف)؟

بالتأكيد هو، صحيح أن الجسد جسد (جوزيف) و البنات جنن إلى (جوزيف) وليس إليه و لكنه كان صاحب الإرادة في السقوط. ولكن ألا يتحمل (جوزيف) قسطاً من الذنب؟ أليس هو من ورث (يوسف) جسده وشقته وحياته المليئة بالصدقات و الخادانات؟ لكنه لم يورثك مبادئه ولا إرادته...فكر (يوسف).

لكن لو لم تكن هؤلاء الفتيات في حياة (جوزيف) لما جنن إليّ بدون سابق معرفة، وكان عليّ لو أردت السقوط أن أسعى إلى الساقطات أو الصديقات بنفسى.

هل معنى كلامك أن من تُعرض له ساقطة في الشارع هو أقل إثماً ممن يسعى إلى الساقطات في محالهن؟

وتدارك (يوسف) عقله بسرعة قبل أن تبجر أفكاره في زوارق الفلاسفة حول معاني الإرادة و الجبرية و الحرية، إنه لا يضمن بعدم رده على اتصال (نيكول) هذه أنها لن تقرر زيارته و الهبوط عليه بدون سابق موعد، ووقتها لن يشفع لك (سبينوزا) و لا (ديكارت) و لا حتى الإمام (الغزالي) - هكذا قال لنفسه و هو يسارع بالخروج من الشقة و يأخذ طريقه إلى المطار.

قرر أن يطير إلى لوس أنجلوس، و سيركب كل مراجيح! ملاهي  
ديزني لاند، ومنها إلى نيويورك وميامي ولاس فيجاس، كلاً لا داعي ل  
لاس فيجاس؛ فهو ما زال من أنصار مدرسة الجبرية في الإرادة و لم  
يتجاوزها إلى مدرسة الإرادة الحرة ليقول لا للمغريات.

وفي الطريق إلى المطار بهرته شوارع سيائل التي تضارع في  
جمالها و نظافتها أجمل مدن أوروبا التي رآها في الصور والأفلام  
فقط بالطبع...تستطيع أن تنام على هذا الرصيف و يظل قميصك  
ناصع البياض - قال يوسف لنفسه.

وفي نيويورك ذهل لضخامة المدينة، كل ما فيها ضخم؛ شوارعها  
عريضة، مبانيها ديناصورات عملاقة، حتى تماثيلها و نُصبها التذكارية  
كأنما صنعت لتُخلد معاني الضخامة.

وقاده الانبهار إلى أحيائها الداخلية، ثم بدأت خطواته تتباطأ  
والانبهار يتراجع عندما دخل بعض محطات مترو الأنفاق فيها، وتحول  
الانبهار إلى حذر لما ساقته قدماه إلى بعض شوارع (هارلم) و (كوينز)،  
وفي حي (ذا برونكس) دفع ثمن تهوره و ثمن اختياره لارتداء ملابس  
غالية الثمن من ثياب (جوزيف) في جولته تلك، و استوقفته إحدى  
العصابات في نهار الظهيرة، وحمد الله أنه كان يحمل عدة دولارات  
أنقذته من تذكار كان سيرسم على وجهه من سكين أحد أفرادها...هو  
لم يتهن بعد بهذا الوجه الجميل.

ولعنَ الفلسفة هذه المرة لما وجد عقله يتساءل عمَّن كان سيَتأذى  
ومن كان سيشعر بالألم من ضربة السكين هذه؛ هو أم (جوزيف)؟  
الآن عليه أن يكون طوال اليوم في نفس حالة الحذر التي يكون  
عليها في مصر بعد منتصف الليل.

وفجأة رنَّ المحمول في جيبه، واستغرب أنه لم تسرقه العصابة،  
لكنه تذكر أن هذا النوع من الهواتف و لأنه مرتبط بخدمة شركة  
الاتصال فإنه يصبح مجرد قطعة خردة إذا تمت سرقة.

نظر إلى الاسم؛ (أماندا)، وأسعفته الذاكرة التي في مخ (جوزيف)،  
إنها صديقتها التي في نيويورك، رد عليها وهو يتساءل إن كانت تعرف  
أنه في نيويورك، وشعر بالغباء التكنولوجي لما أدرك أنها علمت بوجوده  
هناك لأن (جوزيف) يترك تطبيق تحديد المكان على هاتفه مفعلاً  
وموصولاً بمواقع التواصل، و منه عرفت (أماندا) أنه في نيويورك.

بعد تَمَنُّع بسيط قَبْلِ دعوتها له على الكافيه، وبعد تَمَنُّع أبسط  
قَبْلِ دعوتها له لتناول مشروب في منزلها... أخبرها أنه قد امتنع عن  
تناول الكحوليات وأخبرته هي أنها اشتاقت إليه!



## ( ٢٣ )

إذن فالأمور لم تختلف كثيراً بالنسبة ل (نواف) بعد توافر السيارة والسماح له بالخروج، المعاناة تبدأ معه من فكرة أن يرتدي ثياب النساء وعباءتهن، والأماكن المتاحة له بالخروج قليلة، ونظرات الرجال والنساء التي يحس وكأنها تخترقه ليست أكبر مشاكل الخروج، ورعاية (أسيل) لا يتحملها لأكثر من ساعة أو ساعتين ثم بعدها يدرك معنى أن الجنة عند أقدم الأمهات، والتجمعات والزيارات النسائية كانت تجربة غير سعيدة إطلاقاً علاوة على ما فيها من حرج شخصي له؛ إذ يتساءل هل يحق له التواجد فيها أم لا؟

وفجأة طرأت في ذهنه فكرة، لم لا يرتدي ثيابه هو (كنواف) ويحكم تليثم وجهه بغترته ويقود سيارته مثلثماً كما يفعل بعض الرجال أحياناً؟ وبالفعل قام وارتدى أحد ثيابه الفضفاضة بعد أن أحكم الصديرية حول ثديي (نوف) ولثم وجهه و تسلل مخافة أن تراه إحدى الخادمتين أو مربية (أسيل)، واختار من مرآب السيارات سيارته المفضلة الرولز رويس، وانطلق يدور بها في شوارع الرياض شبه الخالية صباح يوم الجمعة.

وقفت إلى جوار سيارته في إحدى إشارات المرور إحدى السيارات، كيف عرف هؤلاء الشياطين أنه امرأة في ثياب رجل رغم أنه تعمد ألا ينظر ناحيتهم؟

وانطلقت الصيحات والصفافير من أفواه هؤلاء الشباب، وفكر (نواف) بسرعة؛ سيارتهم فيها ثلاثة شباب ومحركها أقل قدرة بكثير من قدرة محرك سيارته، ما عليه إذن إلا أن يطلق العنان - فور فتح الإشارة - لهذا الوحش الرابض في هذا المحرك ليبعد عن هؤلاء المشاغبين، وبالفعل فعل ذلك و لكن يبدو أن هؤلاء الشباب كانوا مستعدين لحرق موتور سيارتهم في سبيل اللحاق بهذا الصيد الثمين.

وأخذ (نواف) يحسبها في عقله بسرعة؛ ماذا إذا أدركه هؤلاء الشباب في أحد هذه الشوارع الخالية؟ ماذا إذا ظهرت سيارة للشرطة واكتشفوا أن من يقود السيارة امرأة متخفية؟ سيحتجزونه ويستعدون أولياء أمور (نوف) و يدخل في متاهة هو في غنى عنها تمامًا، وقرر (نواف) التصرف بسرعة وجرأة، فسحب مسدسه الذي يضعه عادة في درج هذه السيارة وأوقف سيارته على جانب الطريق، وعندما وقفت بمحاذاته سيارة هؤلاء الشباب أنزل نواف زجاج السيارة و سحب أجزاء المسدس و هو يصوبه في وجوههم، فانطلقت سيارتهم تزمجر وعجلاتها تصفر مذعورة فوق الأسفلت، وهمَّ (نواف) أن يُطلق وراءهم رصاصاً في الهواء لكنه تراجع خوفاً من حدوث ما لا تُحَمَّد عقباه خصوصاً وأن ترخيص المسدس باسم (نواف) وليس باسم (نوف) بالطبع.

قرر (نواف) الاكتفاء بهذا القدر من المغامرة وفضل راجعاً إلى قصره، وفي الطريق قفز إلى ذهنه سؤال؛ هل تجب عليه صلاة الجمعة (كنواف)؟ أم هو معفي منها (كنوف)؟ واحتار فعلاً في الإجابة، وضحك عندما تخيل نفسه يتصل بلجنة الإفتاء يستفتيهم في أمره هذا، لكنه

قرر أن يستمتي قلبه، فحتى لو قرر الذهاب للصلاة فكيف سيقف  
وسط صفٍ من النساء ويراهن يركعن و يسجدن أمامه؟

وهنا قفز إلى ذهنه سؤال آخر؛ أي الشهوات ستأتيه؟ شهوة  
الرجل أم شهوة المرأة؟ وفطن إلى أنه منذ تحوله لم تجر أي دماء حارة  
في شرايينه، لا كرجل ولا كامرأة. وأخذ يفكر؛ إن هرموناته الآن هي  
هرمونات (نوف) لكن عقله لا يزال عقل (نوف)، وحسب معلوماته فإن  
الشهوة مصدرها الجهاز الحوفي داخل المخ، إنه مخ (نوف) لكن العقل  
عقله هو (كنوف)، وشعر بالحيرة و الارتباك وهو يسأل نفسه؛ هل  
هناك فرق إذن بين المخ و العقل؟

أخيراً عاد إلى الفيلا وتسلل خلسة مرة أخرى ليجد فوق فراشه  
بطاقة دعوة لحفل زفاف ابنة خالة (نوف)، استلمتها الخادمة و وضعتها  
فوق الفراش عندما بحثت عن (نوف) ولم تجدها، العرس بعد يومين؛  
فرصة لكسر الملل وإشباع الفضول عما يدور داخل قاعات أفراح  
الحريم قبل دخول العريس ومن يصاحبه من أهله وأصدقائه، لكنه  
تنبه بعد قليل، كيف هذا؟ إن والدة (نوف) و خالتها من أسرة حجازية  
عريقة ومعتزة بتقاليدها، وبالتأكيد سيدعون (نوف) - أي سيدعونه هو  
(نوف) - إلى ليلة الحنة أو ما يسميها أهل الحجاز ليلة الغمرة، كيف  
سيذهب ويملاً يديه وقدميه برسومات الحناء تلك؟ وماذا لو طلبوا من  
(نوف) الرقص التي هي بارعة فيه؟ هل سيقبل أن يفعل ذلك؟ بالطبع  
لا، سيعتذر عن ليلة الغمرة هذه بحجة (أسيل) مثلاً.

لكن ماذا عن العرس؟ كيف ستقبل أسرة (نوف) اعتذارها عنه؟  
ولكن ما المانع؟ يمكنه أن يذهب ويتحجج بأنه لا يرقص في الأفراح عادة  
إلا الفتيات العزباوات جذباً لأنظار أمهات العرسان؟ لكن كيف؟ كيف  
سيحشر جسده داخل فستان للسهرة ويملاً وجهه بالمساحيق أو يذهب  
إلى مصففة للشعر تتولى هي تجهيزه للسهرة! وكيف سيكون عليه  
تغطية وجهه و رأسه عندما يدخل العريس ومن يرافقه من الرجال إلى  
قاعة الحريم؟ بل هل يصح له أصلاً أن يتكشف على النساء اللواتي في  
العرس و يشاهد رقصهن؟

لكن كيف سيعتذر عن هذا العرس؟ إنها ابنة خالة (نوف) و قريبة  
من قلبها أيضاً كأنها أختها، لا بد من عذر قاهر يفكر فيه إذا قرر ألا  
يذهب لذلك الزفاف... هل يتمارض مثلاً؟

وقفزت إلى ذهنه حيلة كان يعرفها من أيام التمارض هروباً  
من بعض الامتحانات أيام شقاوة المدرسة، سيأكل يوم الزفاف صباحاً  
كمية لا بأس بها من الحلاوة الطحينية مخلوطة بقدرٍ من الشطة  
الحارة! ساعات قليلة وترتفع درجة حرارته كأنه محموم، و زيادة في  
الحبكة سيطلب الذهاب إلى المستشفى، تمر ليلة الزفاف و يكون  
(لنوف) عذرها الذي لن يجادل فيه أحد .

ونام (نواف) وهو يسترجع في ألم ذكريات ووطأة تجربة الحلاوة  
بالشطة، وفي صباح اليوم التالي فوجئ بالخادمة تدخل إليه لتوقظه وتقول:

- سيدة (نوف)؛ سيدي (نواف) قد حضر من السفر.



## ( ٢٤ )

تماسكت (سالمة) وخرجت من موجة الحزن التي عصفت بها بعد أن قرأت ما قرأت، لكن أحزانها كانت تتجدد عليها كلما تذكرت أنها ستعود لذلك الماضي بعد مرور ذلك العام لتعيش هي من جديد ويعيش أبنائها من بعدها أيام الاحتلال الإنجليزي لمصر وأيام النكبة لفلسطين التي نزحت منها عائلة أمها .

شعور مؤلم جداً أن تعلم الغيب خصوصاً إذا حمل لك ذلك الغيب أخباراً حزينة، كيف ستعيش حياتها بعد عودتها للماضي وقد قرأت كل المستقبل و أصبح فيلماً محروقاً بالنسبة لها؟ مساكين هؤلاء الذين يذهبون للعرافين ويحاولون قراءة المستقبل، إن أجمل ما في الحياة أن تعيش إثارته يوماً بيوم .

وهنا خطر لها خاطر؛ إن معنى ما هي فيه الآن أنها ستتزوج يوماً ما وتتجب من البنات من ستكون أكبرهن جدةً من جدات (سلمى)، هذه في حد ذاتها بشارة طيبة بحلّ عقدة زواجها، لكن ماذا لو قررت - بعد عودتها للماضي - ألا تتزوج؟ لن تكون هناك لا (سلمى) ولا جدتها ولا طلسم ولا قلادة .

لا...من قال هذا؟

سئولت (سلمى) ولكن من نسل أختي (توحيدة) مثلاً التي ستعطي لها أمي القلادة بدلاً مني...إذن عليّ أن أعطي القلادة لأختي عندما

أعود للماضي حتى أتجنَّب ما أنا فيه و تكون (توحيدة) هي التي  
مكاني الآن...

ولكن اسم (سلمى) ليس على نمط ولا حتى قريب من اسم  
(توحيدة).

كما أنني أنا (سالمة) التي هنا الآن فعلاً، فمعنى هذا أنني لم  
أستطع و لن أستطيع منح القلادة لأختي بعد أن أعود، فما الذي  
منعني من صنع ذلك؟ هل سأنسى رحلتي تلك للمستقبل بعد عودتي؟  
يا لها من نعمة أن أنسى ذلك...

صحيح؟ لماذا لا أذكر أي شيء عن هذه الرحلة رغم أنني الآن في  
المستقبل الذي جاء بعد نهاية كل حياتي، كما أنني أيضاً لا أذكر أي  
شيء عن حياتي التي بعد عودتي إلى الماضي...

هل أنا هنا في وقت مستقطع بين حياتين؟ ما قبل و ما بعد  
الاستبدال؟ فأين سيوضع هذا العام في حياتي وفي ذكرياتي؟ في الماضي  
أم في المستقبل؟

وهنا أحست (سالمة) أن عقلها يكاد يُفلت من عقاله وأحست  
بالدوار حتى كادت أن تسقط من طولها... ليس لنا أن نفكر فيما لا  
تستطيعه عقولنا - قالت (سالمة) لنفسها - سيكون ما يقدره الله  
وليس لي إلا أن أعيش ما أنا فيه.

وأكملت (سالمة) ارتداء ثيابها، إنه يومها الأول في الجامعة مكان  
(سلمى)، لقد ظلَّت طوال الليل تسترجع من ذاكرة (سلمى) أيامها في

تلك الكلية، إنها لا تدري كيف ستتصرف...لا لن يكون هذا أبداً...لا رحلات ولا اختلاط مع شباب، بل لولا أنها تدرس التاريخ - ذلك الذي يستهويها كثيراً - في هذه الجامعة لَمَا فكرت في الذهاب أصلاً و ليكن ما يكون، ستذهب للدراسة فقط وستقطع كل علاقات (سلمى) مع أصدقائها وزملائها من الذكور.

وجلست (سالمة) خلف مقود سيارتها، إن مهارات سلمى في قيادة السيارة وغيرها من المهارات المكتسبة لا تزال كما هي في تلافيف مخها، ولكن عقل (سالمة) يحتاج لبعض الوقت حتى يتفاعل تلقائياً مع تلك المهارات، وانطلقت (سالمة) بالسيارة، وخرجت من الحي الهادئ إلى الشوارع الهادرة كالمحيط الهائج؛ ما كل هؤلاء البشر؟ ولماذا يتصرفون هكذا؟ إنها لم تعتد لا على زحام ولا على ضجيج ولا على عدوانية في تصرفات الناس ولا على إيقاع سريع للحياة، وأحست كأن كل من حولها يحاصرها ويعاديها، وكادت أن تنفجر في البكاء لولا أن استعانت بكل ما وجدته في مخ (سلمى) من خبرات و بكل ما لديها هي من قوة تحمل.

وأخيراً وصلت (سالمة) الجامعة و أنفاسها تلهث من الشد العصبي، وتحولت إلى حال الدهشة والارتباك عندما دخلت رحابها، إن حالها يشبه حال من تخرج في هذه الجامعة منذ سنوات ثم جاءها يوماً زائراً، فيسترجع ذكرياته وخطواته والأماكن التي جلس فيها كأنها طيفٌ يهيم في جنبات الجامعة أمام عينيه، بينما (سالمة) تسترجع طيف (سلمى) في أرجاء الجامعة كي تحلّ محلها.

وسَطَّرَ الوجوم خطوطه على وجه (سالمة) طوال اليوم وسيطر التوتر على كل تصرفاتها في هذه الدنيا الجديدة عليها تماماً، وتعمّدت أن تتحفظ في الرد على زملاء (سلمى) الذكور الذين فوجئوا بقناعها الثلجي الجديد، حتى (عادل) رئيس أسرة السندباد الذي جاء يسألها عن الرحلة الجديدة:

- سلمى ااااا .

ورفع كفه اليمنى لأعلى كي تضربها كف (سلمى) في الهواء بتصفيق سريع بين الكفين، لكن (سالمة) نظرت إلى يده في استغراب ووقفت صامتة، فابتلع عادل ريقه ليبتلع معه إحراجه وقال:

- ما أخبار رحلة (وادي الجمال) يا (سلمى)؟ هل انتهيتي من ترتيباتها و حجوزاتها؟

تتحنحت (سالمة) وحاولت أن تجيب بلا توتر:

- اعذرني يا (عادل)، أنا منسحبة من هذه الرحلة .

نظر إليها بدهشة وقال:

- ماذا؟ لقد كانت اقتراحك أصلاً، ألا تذكرين كلامك عن جمال المحمية وعن كائناتها الحية و شعبيها المرجانية؟ حتى جبل حماطة الذي يحدُّها كنتِ تقولين فيه شعراً، وماذا سنصنع مع الزملاء الذين دفعوا مقدمة الاشتراك؟

- سوف أرد لك كل ما دفعوه، ويمكنك أن تُوكِّل غيري لتولي الترتيبات.

- ماذا بكِ يا (سلمى)؟ هل أنتِ بخير؟ هل ضايقتك أحد؟

ردت (سلمى) بطريقة رسمية متحفظة على كلام (عادل):

- لم يضايقني أحد أبداً ولكني غيرت رأبي ليس في هذه الرحلة فقط بل في كل الرحلات، وأرجو أن تعتبرني خارج الأسرة أيضاً.

فَغَرَ (عادل) فمه في دهشة وهو لا يصدق أن هذه هي (سلمى) التي كانت أكثر أعضاء الأسرة حماساً و نشاطاً.

وقبل أن يقول شيئاً بادرته (سالمة):

- بإذنك يا (عادل)، عندي محاضرة.



## ( ٢٥ )

ادّخر (جوزيف) مائتي جنيه و شحن بهم رصيِّداً في هاتف (يوسف) الذي في حوزته الآن، ثم قام بالاتصال بهاتفه الذي يحمله (يوسف)، رنّ الهاتف في يد (يوسف) وبعد عدّة ثوانٍ استغرب (يوسف) أنه اتصال من مصر، دقق في الرقم جيداً فأدرك أنه هاتفه الذي في مصر فرد قائلاً في توجس:

- ألو، (جوزيف) معي؟

- إذن فقد تعرفت على رقم هاتفك و وفرت عليّ رصيِّداً لا بأس به في هاتفك البائس هذا.

- تتكلم وكأنني أنا من صنعت هذا بي وبك، لقد صُدمت مثلك بالضبط.

رد (جوزيف) في سخريّة مريّة:

- لكنها كانت صدمة سعيدة جداً بالنسبة لك بكل تأكيد، أما أنا فأنت أدري بحالك الذي أصبحت أنا فيه مكانك، و بقطعة الخردة هذه التي أصبح محتمّاً عليّ أن أقودها طوال اليوم كي أعول نفسي.

- أنا أقدرّ ما أنت عليه من غضب، لكن لا أنا اخترت أن أوكد فقيراً ولا أنت اخترت أن تولد غنياً في أرض الأحلام؛ أمريكا.

استمر انفعال (جوزيف) وارتفعت نبرات صوته وهو يقول:

- أنا لم أُولد غنيًّا، أنا صنعت ثروتي التي تتعم بها الآن من عقلي و إبداعِي.

- حسنًا؛ أنت لا زلت (جوزيف) ولا يزال معك عقلك و إبداعك، اشحذ مواهبك واصنع لك ثروة هناك في مصر طالما أن أرض الأحلام ليست هي الفارق في الأمر.

- إذن فأنت تريد أن تسرقني وتحفظ بأموالي، بل وبحياتي كلها، خصوصاً وأن القلادة اللعينة في حوزتك الآن ويمكنك أن تعطل رجوع كل منا إلى أصله!

- أنا لم أقل هذا ولا أريده، وأنت من بدأت بالعصبية و بالتَهَجُّم عليّ.

قالها (يوسف) وهو يسأل نفسه إن كان فعلاً يريد العودة إلى حياته الأصلية، ثم أكمل قائلاً:

- والآن قل لي ماذا تريد فلا أظن أنك اتصلت بي كي تَقْصَّ عليّ يومياتك مع التوكتوك.

هدأ (جوزيف) قليلاً و قال:

- أريد أموالِي.

- تريدني أن أحول لك أموالك التي هي في رصيد (جوزيف) إليك

الآن و أنت (يوسف)؟

صمت (جوزيف) قليلاً و استعاد توازنه ثم قال:

- على الأقل تحول لي شهرياً مبلغاً من المال أعيش به هذا العام،  
أنت أدرى بشوارعكم و بحياتكم.

- كم يكفيك كل شهر؟

رد (جوزيف) بسرعة:

- ٥ آلاف دولار شهرياً.

- هل جنت؟ هل تريد أن تشير حولي الشبهات؟ ماذا سيقول  
الناس هناك في مصر عندما يرون المال يتدفق على (يوسف) فجأة  
بينما هو لا يعمل؟ سيقولون أنني أتاجر في المخدرات، أم أنك ستهجر  
المنطقة لتعيش في حي راقٍ و تترك أمي وأختي لا تعلمان شيئاً عن  
مصير ابنهم؟ وحتى إذا اصطحبت أمي وأختي ليعيشوا معك؛ بماذا  
ستفسر لهما هذه الأموال؟ بل ماذا ستقول الأجهزة الرقابية عندنا  
عندما يرون ذلك الشاب البائس تنهال عليه التحويلات شهرياً من  
الخارج من شخص لا تربطه به أي صلة؟ سأصبح في نظرهم جاسوساً  
حتى يثبت العكس.

- حسناً فلتجعلهم ألف دولار شهرياً و أعدك أنني سأظل مقيماً  
في شقتك الفارهة تلك!

ابتلع (يوسف) سخريه (جوزيف) و قال:

- لا زلت لا تفكر إلا في نفسك، أنا كنت أعيش بحوالي مائة  
دولار في الشهر وأعمل من أجلهم في أكثر من عمل، أنت بذلك ستثير

الشبهات أيضاً، اسمع: سأكون كريماً معك و أرسل لك ٣ آلاف دولار تقعات منهم بقية العام، وهذا تقريباً ضعف دخلي السنوي الذي اعتدت عليه، وأنصحك بأن تستمر في العمل على التوكتوك من وقت لآخر، الشارع عندي والشوارع حولنا مليئة بالمخبرين و مرشدي الشرطة، سيرتابون في أمرك إذا وجدوا (يوسف) الذي اعتادوا رؤيته معدماً وهو يعمل، فإذا به يمتلك مالاً بينما هو قد توقف عن العمل، لأحظ أنهم أيضاً يصنفونني من المتدينين ومرتادي صلوات المساجد، لا أظن أنك ستحب أن تجرب أقسام الشرطة عندنا ولو لليلة بسبب الاشتباه في أمرك.

صمت (جوزيف) وكأنه بدأ يقتنع بكلام يوسف ثم قال:

- وأنت؟ ماذا تنوي أن تصنع؟

فطن (يوسف) إلى مغزى السؤال فقال متلاعباً بأعصابه:

- الحقيقة أن منزلك في سياتل جميل فعلاً وصديقاتك أكثر جمالاً و حياة الترحال والمغامرات التي تحياها تستهويني بحق، لو أنت مكاني ماذا كنت ستصنع؟

ارتجف قلب (جوزيف) وقال وهو يداري ارتعاش صوته:

- أنت تمزح، أليس كذلك؟

- وهل إذا كنت أنتوي فعلاً الاحتفاظ بحياتك هل كنت سأجيب

على مكالمتك؟ لا تخف، كله إلا المال الحرام.

وكان (يوسف) وجد أخيراً شيئاً يتباهى به على ذلك الأمريكي الذي يتفوق عليه في كل شيء فأكمل قائلاً:

- هذه أشياء قد لا تظنونها عندكم في الغرب، أموالك وحياتك في الحفظ والصون، وأماناتك ستستردها في الوقت المعلوم بإذن الله. وبعد انتهاء المكالمة سأل (يوسف) نفسه؛ هل هو فعلاً وبعد مرور عامٍ كاملٍ من اعتياد حياة النعيم سيترك كل ذلك و يعود لحياته الأولى؟ هل قال ما قاله (لجوزيف) لأنه ما زال متأثراً بقيمه القديمة التي تعلمها من أبيه و من شيخ المسجد؟ هل ستظل هذه القيم حيّة في قلبه بعد عامٍ من الآن؟

إنه فعلاً لا ينتوي اغتصاب مال (جوزيف) وحياته، لكنه أيضاً كان ينتوي أن يستعصم في فتنة النساء فسقط مع أول ثلاث فتيات طرقتن بابه! الغريب أنه في مصر كان يعاني فقر المال وشظف العيش أكثر مما يعاني من الحرمان من النساء وتأخر الزواج، لكنه الآن تعف نفسه عن هذا المال السهل الذي هبط عليه في حين أبت هذه النفس أن تستعفف عن الحظن الحرام.

هل الفتنة أنواع ودرجات يختلف تأثيرها من شخصٍ لآخر؟ سأل (يوسف) نفسه...

هل القويّ أمام فتنة من الفتن يكون قوياً بالضرورة أمام غيرها؟ أم الفتن كالأمرض يختلف الناس في مناعتهم تجاههن؟

ووجد عقله يسترجع تلقائياً بقية ما علق في ذاكرته من كلام فلاسفة الأخلاق، وأحس (يوسف) أن ما درسه نظرياً في سنواتٍ أربع في الجامعة يدرسه الآن عملياً في تجارب الحياة.

أما (جوزيف) وبرغم أنه اطمأنَّ نوعاً بهذا المال الذي يفترض أن يرسله إليه (يوسف) إلا أنه لم يطمئن إلى صدق نيته في العودة إلى حياته الأولى، إن فوارق أقل بين هاتين الحياتين كافيةٌ لأن تغري أي إنسان بعدم العودة، فكيف يصدق أنه سيعود من حياة المليونير الأمريكي إلى حياة سائق التوكتوك المصري؟ هل فعلاً سيمنعه دينه من الحنث بوعده و من الاستيلاء على ما ليس له؟ وأقر (جوزيف) أن حالة كهذه لا ضمان فيها إلا دين أو ضمير الطرف القوي.

ما الفارق بين الدين والضمير في هذه الحالة - قال (جوزيف)... شخصٌ لا دين له مكان (يوسف) وقد يقول إن ضميره يمنعه و يصدق في قوله، هل الدين فعلاً أمرٌ حقيقي؟ أم هو كما يقال أمرٌ اخترعه الحكام والأغنياء كي يضمنوا ولاء و قنوع الشعوب و المستضعفين؟ لو كان كذلك فلماذا قامت عشرات الثورات الدينية عبر التاريخ؟ و أحس (جوزيف) أن الاسترسال في هذه الأسئلة أصابه بالصداع دون جدوى فقرر التوقف عنها، لكنه أقر مع نفسه أنه تحت رحمة دين أو ضمير شخصٍ آخر.

ولم تعجبه فكرة أن يكون تحت رحمة الغير، وتذكر كلمات (يوسف) له؛ أنه ما يزال (كجوزيف) ينعم بعقله ولا زال معه إبداعه الذي صبَّ عليه الملايين من قبل، فقرر العمل بنصيحته!



## ( ٢٦ )

دخلت (نوف) غرفة النوم و (نواف) يجلس في تحفز على أحد مقاعدها الوثيرة، وأخذ كلُّ منهما ينظر إلى جسده يقف أمامه مجسداً، وأخذهما الذهول لفترة، كان كل واحد منهما يحس وكأن روحه خرجت منه وأخذت تطوف حول جسمه وتتأمله ، وبعد أن بدآ في استعادة توازنهما وعادا إلى أرض الواقع. بادرت (نوف) وألقت السلام على (نواف) وعقلها لا يزال مشوشاً وهي ترى نفسها ترد عليها و (نواف) لا يقل عنها تشوشاً وهو يرى نفسه تسلم عليه.

- وعلیکم السلام، أراك لم تستغريقي شهراً في رحلتك كما كنت تخططين.

وبدأ في الاعتياد على هذا الوضع المقلوب، فردت (نوف) بعد أن ترددت قليلاً في الإجابة:

- بصراحة لم أتحمل السفر وحيدة كل هذه المدة.

ثم قالت في نبرات تهكم و اتهام وقد اعتادت على أن تكلم جسدها الذي يقبع فيه (نواف):

- لست أدري كيف يفعلها بعض الرجال و كيف يتغلبون على الوحدة في سفريات كهذه وربما أطول.

أدرك (نواف) ما ترميه من وراء كلامها فقال وقد اعتاد هو الآخر ذلك الوضع المقلوب:

- أنا لم أسافر للسياحة وحيداً منذ تزوجنا، وكل سفري للعمل من يومها .

ثم أكمل هو في تهكم:

- يبدو أنكِ واجهتِ في سفرك هذا الكثير من المغريات.

غيرت (نوف) من نبرتها وقالت في هدوء:

- (نواف): إننا شئنا أم أبيننا يجب علينا أن نتعايش مع وضعنا هذا لمدة ذلك العام، وسيحتاج كلُّ منا للآخر، لا بد أن نتعاون سوياً حتى يمر ذلك الكابوس.

- وهل هو كابوس بالنسبة لكِ أنتِ؟ أنا المتضرر وليس العكس، أنا الذي كنتِ تتوين حبسه في البيت لولا احتياجك إليَّ في العمل، وحتى عندما سُمح لي بالخروج أصبحت لا أجد مكاناً أذهب إليه.

- هل جربتِ إذن ما كنتِ أعانيه؟

- على الأقل كنتِ تستطيعين قتل بعض الوقت في مكالمات هاتفية وقضاء وقت آخر في جلساتكم النسائية... كلا الأمرين كان كابوساً بالنسبة لي عندما جربته في الأيام الماضية.

- وهل المرأة تقضي وقتها فقط في الحديث والجلسات والترثرة؟

- تقضي جزءاً لا يستهان به، والجزء الآخر يكون ما بين المنزل ورعاية الأطفال.

تتهددت (نوف) في يأس و قالت:

- حسناً؛ يمكنك أن تفعل ذلك حتى يمر هذا العام.

ردّ (نواف) منفعلاً - بينما اهتَمَّت (نوف) أن ترى كيف يبدو شكلها حين تتفعل - وقال:

- لكنني ما زلت رجلاً حتى و إن كنتُ في جسد أنثى، لا شيء مما سبق أطبق فعله، أنا رجل كانت حياته العمل والسفر...  
فقاطعته (نوف) وأكملت هي:

- ولقاء الأصدقاء بالساعات و لعب الورق والسمر، بينما أنا أجلس بالساعات كل يوم لا أجد ما أفعله، وأنت لآكنت بجواري نقضي ذلك الوقت سوياً ولا تتركني أشغل وقت فراغي الطويل بالعمل...  
وسكّنت قليلاً ثم أكملت:

- (نواف)؛ هناك كثير جداً من النساء يُحِبُّنَ حياة الدعة والكسل تلك، لكن أنا لست منهن، أنا لست مجرد امرأة تقضي وقتها في الاعتناء بجمالها وفي التسلية والنميمة و الجلسات.

رد (نواف) في حزم:

- قلت لكِ أنني لا أوافق على أن تعلمي.

- وها أنا الآن أعمل، بل وسأعمل أكثر بكثير من دوامي لو كنت موظفة.

- هذا وضعٌ مؤقتٌ بسبب ما نحن فيه.

- وبعد مرور العام؟ هل سأعود إلى ما كنتُ عليه؟ أنتِ جريتِ بنفسك هذه الحياةَ لأسبوعين و لم تطقها، ألا تشعر بي وبمعاناتي؟  
قالت ذلك وهي تضع كفيها على كفيهِ في حنان، فرَّق قلب (نواف)  
وأحس بالحرارة تسري في يده برغم ملمس يدها الذكوري الخشن؛  
فقال:

- يمكننا أن نتفاهم حتى نصل إلى وضعٍ يرضينا نحن الاثنين،  
يمكنك أن تستكملي بعض الدراسات العليا أو تتضمي إلى دراسة حرة.  
فأكملت هي:

- أو أن أؤسِّسَ عملاً مناسباً خاصاً بي طالما أنك لا توافق على  
عملي في وظيفة.

تهدد (نواف) و قال وهو يهز رأسه كمن يقتنع بشيء:

- حسناً؛ يمكننا أن نتفاهم في هذا الأمر.

ظهر السرور على وجه (نواف) و قالت في عتابٍ رقيقٍ:

- وهذا ما كنت أتمناه منذ بداية زواجنا؛ أن نتفاهم، ولم أجد  
منك أي استجابة.

فابتسم (نواف) أيضاً وقال:

- وحدث ما حدث وجاءتك الفرصة للنيل مني ورد الصاع صاعين.

ابتسمت (نوف) وقالت:

- ولم لا تقول أنها فرصة لنا كي بعيد بناء حياتنا وبنينا جسور التفاهم بيننا؟

ابتسم (نوف) بدوره وقام فقبّل رأسها وقال:

- والآن قومي خذي حمامك وبعد الغداء نجلس و نتفاهم.

واقشعرت (نوف) وهي ترى جسدها يحتضنها و يقبّلها، وقامت لتستعد لحمامها ثم استدارت (لنوف) و قالت وهي تبتسم:

- هل يمكنك حتى أنتهي من حمامي أن تعتني ببعض الأمور في جسدي؟ أقصد جسّدك الآن؟

- أمور مثل ماذا؟

- أن تزيل ذلك الشعر المَهْمَل الذي بدأ ينبت على ساقيك و ساعديك .

تغير وجه (نوف) و قال باستنكار: ماذا؟

فبادرته (نوف) و قالت:

- أنت الآن تعتني بجسّدي و أنا بدوري أعتني بجسّدك، و سيكون مطلوباً مني مثلاً تهذيب تلك اللحية و رسمها كما تحب، والذهاب إلى الصالة الرياضية كما اعتدت، فعلى الأقل نتبادل العناية ببعضنا كما يحب كلُّ منا .

تتهد (نواف) و قال:

- حسناً فليكن، ولكني سأنتظرك حتى تفرغين من حمامك وأترك لك جسديك تفعلين فيه ما تريدين، أنا لن أطيق أن أصنع ذلك بنفسى.

ابتسمت (نوف) وقالت وهي تضحك:

- حسنٌ جداً، وسأضع لك أيضاً الكحل و الماكياج كما أحب أن أصنع.

فجرى وراءها (نواف) وجرت أمامه وهما يضحكان، وضرب عجيزتها بلطف - كما اعتاد أن يفعل - لما طالتها يدها، وارتبك بعدها من ملمس جسدها الذكورى و من فكرة أنه يضرب نفسه بنفسه.



وبالليل بعد أن آوى (نوف) و (نواف) إلى فراشهما، وبعد فترة من السكون تلاقت عيناها في نظرة لمدة ثانية ثم تباعدت، لحظات وتلاقت الأعين مرة أخرى و لكن في نظرة أطول... نظرة ذات معاني وذكريات أشواق، وطالت النظرة، و (نوف) تنتظر (نواف) أن يكون هو البادئ ككل مرة لكنه لم يفعل، فتذكرت أنها من تلبس ثوب الرجل هذه المرة فاقتربت منه واحتضنته فبادلها حرارة بحرارة، وبعد أن زاد اضطرام النار بينهما بادرت (نوف) لترفع من مستوى اللقاء، استكان (نواف) للحظات ثم انتفض فجأة وانتشل نفسه من بين أحضانها وهباً من الفراش واقفاً، سألته (نوف) في دهشة:

- ماذا بك؟

- ماذا عساكِ تظنين أننا سنفعل؟

زادت دهشتها فقالت:

- ماذا سنفعل؟ ألسنا زوجين؟ أنا زوجتك وأنت زوجي؟

- بل أنت الآن الرجل جسداً وأنا الذي في جسد الزوجة.

- وما الفارق إذا كنا نحن نفس الزوجين؟ أما كنت تقول لي أننا

روح واحدة حلّت في جسدين؟

- روح في جسدين إذا كان كلُّ منا في جسده، لكن هل تنتظرين مني

أن أفعل ما كنا نفعل و أنا الآن بجسد الأنثى؟ إنني ما زلت (نواف)؛

رجل شرقي بل وبدوي الجذور، لا يمكن أن أفعل ذلك حتى ولو كان

الذي معي هو جسدي أنا والتي فيه هي زوجتي.

سكت لحظات و هو يتهدج بالانفعال ثم أكمل بحسم:

- لا يمكن ذلك أبداً.

وصمّمتاً سويّاً وقد أدركا حجم ما هم فيه من إشكاليات متعاكسة،

كل ما هم فيه معكوس؛ الجسد والهرمونات ونوع الرغبة، ولكن يبقى

أصل الذات لم يتغير والعقل لم يتبدل.

دقائق من الصمت والحيرة والالتباس حتى قالت (نواف):

- لكنك لا تمانع أن نبني في أحضان بعضنا البعض.

سألها (نواف) في توجس:

- وماذا تقصدين؟

- أقصد أن نبيت في أحضان بعضنا ونغمض أعيننا لندع قلوبنا تُحلّق في سماوات عواطفنا، ولا نقارف إلا ما هو عفوي... ألم تقل لي من قبل إن المُحبَّ يكتفي من جسد حبيبه ولو بأقل القليل؟ دعنا نختبر ذلك إذن عملياً.

دارت الفكرة في رأس (نواف) فوجد لها قبولاً عنده، أن يفضّأ التباس الجسد بالارتقاء إلى الروح، وأن يُشبع جوع الحس بإطعام الذات، وكأنما قرأت (نوف) الموافقة في عينيه فسحبته إلى جوارها بلطف، وحلّقاً في سماوات بعيدة من العاطفة المشبوبة، وطال بهما الطيران والتحليق.

وفطن (نواف) إلى ما كان يفوته طوال سنوات، وقت أن كانت لقاءاته الحميمة تقتصر على انفعالات الميكانيكا فحسب و يهمل دور الكيمياء، وقت أن كان يظن أن المداعبات لا لزوم لها إلا إعداد معمل الزوجة للتشغيل و الذي يستغرق وقتاً بخلاف مصنع الرجل الجاهز للعمل بأقل لمسة.

الآن أدرك معنى النشوة المولودة بالحب، معنى الطبخة المطهية على نار هادئة و مُعدّة بعناية و فن، بينما كان يكتفي سابقاً بالوجبات سريعة التحضير.

أما (نوف) فرأت الوجه الآخر للقمر، معنى الجوع السريع للرجل  
والذي يُطل برأسه فجأةً ويئنُّ صارخاً في طلب إشباعٍ سريعٍ أيضاً ثم  
ينطفئُ بعدها بذات نفس السرعة.

وانصهر كلُّ منهما في بوتقة الآخر، وذاب عقل كلُّ واحدٍ منهما  
في وعاء الثاني، وامتزج الزيت بالماء بفضل ذلك المذيب العجيب، وبعد  
فترة من التحليق - لم يدريا كم طالت ولا إلى أي مدى ذهبت - هبطت  
روحيهما إلى فراشهما، ونظر كلُّ منهما إلى الآخر في امتنان وحب،  
وكل منهما يسأل الآخر في عقله: هل كان يجب أن تكون مكاني حتى  
تفهمني؟

وشعرا بالامتنان لحبَّات السبِّحة المفروطة!



## ( ٢٧ )

ذاكرت (سلمى) جيداً كل ما في ذاكرة (سالمة) و اجتهدت أن تبدو طبيعية في كل تصرفاتها، فكانت تبدأ يوماً من قبل الفجر بقليل وتصنع ما اعتادت (سالمة) أن تصنعه طوال يومها...

يا لهذه الحياة البدائية في كل شيء - قالت (سلمى) لنفسها...

لا تعرف قيمة الشيء إلا بعد فقد، ولا تعرف أهمية الاختراع إلا حين تحرم منه، ولا تحس بأنك في رفاهية إلا حين تُحرم من بعض مظاهرها... كل شيء هنا فيه معاناة حتى الذهاب إلى ذلك المرحاض البلدي الذي يتطلب جلسة القرفصاء المؤلمة، يجب أن أتذكر أن اسم الحمام يقال فقط على مكان الاستحمام، والمرحاض غير الحمام وكلاهما منفصل عن الآخر في مكانه، الناس هنا يأنفون من أن يقضوا حاجتهم وأن يغتسلوا في مكان واحد.

بل إن البيت هنا يعتبر من البيوت المرفهة التي فيها صنابير مياه في كل من الحمام و المرحاض و المطبخ، تتغذى من خزان مياه بسطح البيت والذي يتغذى بدوره من مضخة مياه يدوية مدقوقة في أرضية حوش البيت الخلفي بجوار مضخة أخرى حبشية، ويتولى الإخوة الذكور ملء ذلك الخزان عن طريق إدارة تلك المضخة بتحريك ذراعها ذهاباً و إياباً في حركة جزاجية مُملة ومُجهدة تستمر لساعة، حتى أنهم يتأوبون أيام ملء الخزان فيما بينهم...

لو شاهدوا المضخات الآلية لتحسروا على هذا المجهود الضائع...  
قالت (سلمى) لنفسها .

لكنها تداركت أن إختها لا يحتاجون لارتياح الصالات الرياضية،  
فحصت مَلءِ الخزانَ كأنها حصة أيروبكس أو حصة كروس فيت مجانية!  
المياه هنا نقيه كأنها تتدفق من بئر معدنية .

الحياة هنا هي المعنى الحقيقي للإيقاع البطيء - وهي التي  
اعتادت على الأداء فوق السريع في كل حياتها .

ما كانت تسمعه من جدتها عن أنهم كانوا يقسمون أعمال المنزل  
على أيام الأسبوع إلى يوم للغسيل ويوم للعجين ويوم للتنظافة... إلخ .  
وما كانت تحكيه عن حجرة الكرار لتخزين الطعام وأنهم كانوا يقضون  
الأيام في إعداد ذلك الخزين - كل موسم بموسمه... كل ذلك أصبحت  
تعايشه وتشارك في أعماله ...

تَبَّاً لجلسة القرفصاء تلك التي تطاردني في كل شئون البيت  
هنا ...

وتذكرت وقت أن كانت تملُّ من دقائق تسخين الطعام في جهاز  
الميكروويف!

وسَخِرَت من نفسها حين كانت تظن أنها جربت حياة الخشونة  
والبدائية في رحلات السفاري ومعسكرات الصحراء... السفاري الحقيقي  
حين تتولى بنفسك إعداد طعامك و مبيتك وتواجه الطوارئ ومخاطر

الصحراء بنفسك، لا أن يتكفل لك ذلك من تنزل في رحابهم من بدو المنطقة...

إنها الآن في رحلة سفاري - حقيقية ومن نوع خاص - ولكن لمدة عام كامل!

الكل هنا يتحرك ببطءٍ من ليس وراءه شيءٌ يشغله ولا أحد يركض وراء موعده يدركه، الآن فهمت سبب الإيقاع البطيء والمشاهد الممطوطة في أفلام سينما الأبيض والأسود.

الأخبار التي كانت تعرفها فور حدوثها من شبكات الأخبار على الإنترنت أو حتى كانت تنتظر نشرات الفضائيات المتعددة لتعرف التفاصيل بعدها بساعة، وكانت تمازح أباهما وتُدكِّره في سُخْرية بالأيام التي كان يجلس فيها ليضبط موجات الراديو ليلتقط إذاعة لندن، أو مونت كارلو كي يباهي أقرانه بأنه يعرف ما لا تذكره نشرات التلفاز ولا الجرائد المحلية؛ الآن هي لا تعرف الأخبار إلا بعد أن تتناقلها الألسن أو تسير بها الركبان! على كل حال هي ليست بحاجة لمعرفة أخبارٍ هي بالنسبة لها تاريخٌ من الماضي.

يومها يبدأ مع الفجر وينتهي مع غروب الشمس والسهر بعد العشاء له استعداداته ومبرراته.

أما نشاطها اليومي فهو مسلسل متواصل من حلقات الملل، مسلسل عنوانه (اللا جديد) مسلسل من سبع حلقات يعاد أسبوعياً بلا تغيير في أحداثه تقريباً، حتى أنواع الطعام المطهي لها جدولها الأسبوعي شبه الثابت.

الجديد المحتمل فيه أن تأتي لزيارتهم في البيت إحدى القريبات أو الجارات، أو تذهب هي مع أمها لزيارة مماتلة، حتى هذه الزيارات أدركت مع الوقت أنها تكاد تخضع لجدول منتظم موضوع بشكل تلقائي وعضوي.

السوق لم تعرف شكله إلا بعد أن ألحَّت على والدتها أن تأخذها معها وهي ذاهبة لشراء أثواب القماش التي يفترض أن تُحَاكْ أثواباً لها ولأخواتها علاوة على ما سوف تنفرد به العروس (توحيدة) من فساتين استعداداً لزفافها.

كل وسائل التسلية التي يلزمها وجود كهرباء - من أول الراديو وصولاً إلى الإنترنت والبلاي ستيشن - والتي كانت تسليتها التي تملُّ منها أصلاً رغم كثرتها؛ هي الآن معدومة، فقط ألعاب الكوتشينة والشطرنج، لا تدري (سلمى) لماذا يعتبرون لعبة الطاولة لعبة للرجال فقط، ماذا سيقولون عنها لو أخبرتهم أنها طالما لعبت الطاولة مع زملائها وأصدقائها الشباب على المقهى؟ بل و على أنغام كركرة الشيشة ودخانها أيضاً... سيعتبرونها فتاة منحلة على أقل تقدير!

التسلية الحقيقية كانت في أن تتعرف على تفاصيل حياة الناس في ذلك العصر مما لن يذكره لها أي كتاب، وكان هذا هو الشيء الذي اجتذبتها لأسابيع حتى أتمَّت معرفته ثم دخل هو الآخر دولاب الملل.

لكن يجب أن أكون منصفة - قالت (سلمى) لنفسها...

فالحياة هنا ليست كلها سلبيات، الطعام له طعمٌ ورائحةٌ مختلفين، ورغم أنني أفتقد المطاعم الأمريكية والإيطالية والصينية إلا أن أكل

تلك المطاعم هو فعلاً طعام مُخَلَّفَات! مُخَلَّفَات هرمونات و كراكيب هندسة وراثية، حتى مطاعم بلاد الدنيا التي زرتها لا تخلو من نسب متفاوتة من هذه المُخَلَّفَات التي لم أشعر بوجودها إلا حين ذقت الطعام النظيف، حتى ما كانت تطبخه أُمِّي - في المستقبل الذي جئت منه - لا يقارن بطعام اليوم... لا تلوث.

لعل انعدام التلوث هو سبب ما ألمسه الآن من نشاط و حيوية ونضارة بشرة؟ حقاً ... لقد كانت جدتي سالمة جميلة لدرجة أنني الآن أغار من جمالها، وبياض بشرتي و نضارتها - التي في المستقبل - إنما هما وراثية منها، مع فارق أنني كنت أبذل مجهوداً لا يُستهان به في العناية بها، بينما الآن لا حاجة لي لأي من هذه الكريزمات و المرطبات والدهانات.

لقد كانت جدتي (سلمى) فاتنة بحق برغم حظها العثر في الزواج، ويبدو أنني ورثت منها أيضاً هذا الحظ، بل أظنني ورثتها في كل شيء، حتى تضاريس جسدي أقرب ما تكون من تضاريسها، فقط لست أدري لماذا يندر وجود الشعر في جسمها هي وباقي أخواتها، لا بد أنها الهرمونات و الكيماويات التي أفسدت طعامنا قد أفسدت هرمونات أجسادنا أيضاً.

ولكن بالتأكيد سينفجر حظ جدتي بدليل وجودي كحفيدة لها، فهل تزوجت عن حب أم صالونات؟ وضحكت (سلمى) من سؤالها الساذج، واحمر وجهها خجلاً لما فكرت في أن ذلك الحظ قد ينفرج و تتزوج في عامها هذا.

جدتي و أخواتها لا يعرفن شيئاً عن ممارسة الرياضة، لا حاجة لهن بها أصلاً؛ فبرغم وجود الجارية (صُبح) إلا أن ما يبذلنه من جهد طوال اليوم في المنزل الكبير رياضة طبيعية، لكنها رياضة تقصف شباب المرء ولا تحافظ عليه؛ فأُم (سالمة) التي لم تتجاوز السابعة والثلاثين ستبدو كامرأة في الخمسين من عمرها إذا ظهرت في عصرنا... يبدو أنها علاقة متوازنة؛ شيء في مقابل شيء، و لا فَضْل لعصرٍ على عصر ولا لزمانٍ على زمنٍ إلا فيما نصنعه نحن في أنفسنا .



الجارية (صبح)...هي أكثر شيء أكرهه هنا، لا أكرهها هي شخصياً لكن أكره فكرة الاستعباد؛ فكرة وجود إنسانة لا تملك من أمرها شيئاً إلا أن تخدمنا، صحيح أنها تأكل مما نأكل وتلبس قريباً مما نلبس وحالها أفضل كثيراً من حال عاملات المنازل بل وبعض المصانع في أيامنا؛ لكن ليس لها الحق أن تأتي يوماً لتقول لنا أعطوني باقي أجرتي وابعثوا عن غيري فلسوف أتزوج، أو لقد تعبت أو وجدت عملاً أفضل...لا مجال لهذا، إن حالها كحال عصفور القفص مقارنة بحال عصفور الشجر...لكن - ويا للغرابة - فكلاهما لا يكف عن الصبح والغناء!

هي عندنا حتى تموت أو حتى يبيعها أبي...شيء مقزز فعلاً أن ترى إنساناً يُباع و يُشترى، أين حقوق الإنسان في هذا العصر.

لكن الغريب أنها تتعامل مع أبي بكثير من التبسط ورفع الكلفة،  
والأغرب أن أمي يحدث ذلك أمامها ولا تعيره اهتماماً أبداً.

- (سالمة)...أنتِ يا (سالمة).

وسحبها نداء أبيها الغاضب من بحر أفكارها، وهرعت إليه لتري  
ما وراءه، فوجدت الشرر يتطاير من عينيه عندما رآها وقال:

- هل صعدتِ إلى سطح البيت اليوم كاشفة عن وجهك وذراعيك  
وشعر رأسك؟

تلعثمت (سلمى) فقد حدث ذلك بطريقة عفوية ولم تنتبه له إلا  
بعد نزولها من توبيخ أمها لها، وهمّت أن تدافع وتقول:

- لم أنتبه يا أبي، فأنا لم أخرج من بيتي على كل حال و...

وقاطعها أبوها بأن رفع يده وصفحها!



## ( ٢٨ )

لقد تحولت (سلمى)...

هذا ما قالته أسرتها وأصدقائها وزملاؤها...

وزاد بعض الظرفاء وقالوا؛ (سلمى) الآن مخطوفة والتي مكانها إنما هي كائن فضائي جاء ليدرّس أحوالنا عن قرب.

والد (سلمى) أصبح مسروراً بالهدوء الذي حلّ عليها محلّ نشاطها الزائد، وعبّر لها عن غبطته بأنها طردت من عقلها ذلك الولع بالسفر والأنشطة الكثيرة، في حين استغربت (سالمة)؛ إذا كان والد (سلمى) لا يرضى عن أي نشاط تزاوله ابنته فلماذا لا يمنعها عنه؟ وبكلمة واحدة منه لا تقبل النقاش؟

أما والدة (سلمى) فانفطر قلبها شفقةً على ابنتها، وعبئاً حاولت أن تجعلها تفض لها بمكنون مشاعرها و سبب تغيرها، وكثيراً ما فكرت الأم إذا كانت صدمتها الكبيرة في (هشام) جعلتها تتغير من إنسانة نشيطة إلى نشيطة جداً، فأى صدمة جعلتها ترتد من فتاة شديدة النشاط إلى إنسانة متفوقة لا تغادر المنزل إلا نادراً؟

زملاء (سلمى) الخبثاء قالوا إن وراء الأمر حب جديد والحبيب الموعود يريد لها هكذا وكل فتيات اليوم يعيشن دور ال (فيمينست) حتى يأتي الحبيب أو العريس، بينما أصدقائها ينفون ذلك فهي لم تقابل أحداً جديداً هذه الأيام، بالإضافة إلى أن (سلمى) ليست بالفتاة التي

تتغير في يوم وليلة بسبب شباب خصوصاً بعد صدمتها الأولى في (هشام).

أما هي فلم تزد على أن قالت لجميع من سألها تفسيراً واحداً؛ لقد شُبعَت من السفر و الترحال وسئمت الأنشطة الكثيرة والفعاليات التي لا طائل من ورائها سوى أن تصيبنا بالإحباط من وجود أي فائدة وراء ما نصنع، وحين سألتها إحدى صديقاتها:

- فما بالك قاطعت أصدقاءك من الشباب؟

- دراسة مفصلة قرأتها مصادفة على الإنترنت قامت بها جامعة (ويسكونسون) الأمريكية و نشرتها جريدة (الدائلي ميل) البريطانية تقول أنه لا صداقة بريئة بين الجنسين، ودائماً هناك هاجس جنسي في أي صداقة من هذا النوع مهما أنكرنا ذلك.

وتفغّر صديقتها فأهّأها من الدهشة وهي لا تصدق أن (سلمى) تعتزل كل هؤلاء الأصدقاء - وفيهم من هم أصدقاء لها من مرحلة الدراسة الابتدائية - لمجرد دراسة قرأتها على الإنترنت أياً كان مصدرها أو مصداقيتها!

أما (سالمة) نفسها فلم تأبه كثيراً لهذه التساؤلات؛ فلن يخطر على بال أكثرهم جنوحاً في الخيال أو جنوحاً في التفكير أنها ليست (سلمى) أصلاً.

(سالمة) الآن في شغلٍ كبيرٍ عنهم... وجدت صندوق الدنيا... كانت تعيش في بيضة تظن أنها كل العالم ثم فجأة فقسست هذه البيضة.

كانت تظن في الماضي أنها فتاة محظوظة...لقد أصرَّ جدُّها لأبيها - الشيخ الأزهري - على تعليمها هي و أخواتها البنات القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، وأرغم هذا الجدَّ أبيهن على إرسالهن للكُتَّاب وهن صغيرات ليحفظن بعضاً من القرآن، فكُنَّ بذلك أحسن حالاً و تعليماً من كثير من بنات جيلهن ومدينتهن.

هي الآن أدركت أنها كانت تقطن قعر بئرٍ مظلمةٍ فلا تعرف أنه يوجد بالدينا نورٌ، بل لا تدري ما هو النور.

الآن هي لا تريد أن تضيع يوماً من ذلك العام بغير فائدة، هي إما في مدرجات الجامعة أو في إحدى مكباتها أو في بيتها أمام شاشة الإنترنت تُعبُّ من المعرفة عباً، أصبحت شراحتها للعلم كجذوةٍ من نار ملتهبة؛ كلما ألقيت فيها قطعة حطب زادت شراحتها للمزيد منه.

لا تصدق أنها كانت بكل ذلك الجهل، ولا تصدق أن أحداً يترك كل ذلك العلم ليلعب ألعاب الفيديو أو يجلس بالساعات يوماً على الكافيهات، أو أمام شاشات الفضائيات أو على مواقع التواصل الاجتماعي، بل إن عقلها يسول لها أن ترفض أن تعود لمكانها في الماضي؛ لأن عاماً واحداً لا يكفي لأن تعرف كل ما تشتهي أن تعرف.

لم تتبهر (سائلة) في عالمها الجديد بغير هذا الانفجار المعري...

ولم تُدهش بالمخترعات الحديثة إلا قليلاً...ليس معقولاً أن نكون عبيداً لِمَا صُنِعَ أصلاً لخدمتنا...هكذا فكرت (سائلة).

في البداية شُدِّهَتْ و بُهِّرَتْ بالتلفاز وفضائياته التي بالآلاف، ثم سريعاً ما ملَّته؛ إذ لم تستسغ فكرة أن تتفرج على أناس لا تتفاعل معهم ولا يتفاعلون معها... تتلقى منهم أداءهم ومادتهم ولا يتلقون منها ردة فعلها و تجاوبها، لم تتبهر بالمؤثرات الصوتية و لا بالخدع التصويرية إلا قليلاً، بل أحسرتها دنيا مفتعلة، خيال صانعها الذي يريد أن يفرضه عليها ويصادر عليها خيالها الخاص بها.

تتذكر جدتها حين كانت تجمع حولها أحفادها وتقص عليهم حواديتها الشيقة وهي تنظر في حدقات أعينهم الصغيرة لترى وقع قصصها عليهم وتفاعلهم معها...

لقد كانت أكثر متعة بكل تأكيد - قالت (سالمة) لنفسها.

فكان أن عافت (سالمة) كل قنوات المنوعات الترفيه والدراما... لا وقت لديها هذا العام للتسالي، واكتفت بالقنوات الثقيفية مثل ناشيونال جيوغرافيك وديسكفري... إنها البلورة السحرية التي طالما حدثتهم عنها جدتها في حواديتها، لكنها الآن بلورة حقيقية وترى منها الآن مشارق الأرض ومغاربها.

فيلم تسجيلي واحد عن غابة لم تزرها أو عن أرض لم تسمع عنها يثير اهتمامها أكثر من كل أفلام السينما أو برامج المنوعات. لماذا ينبهر معظم شباب هذه الأيام بالدنيا الموازية حتى تسيهم الدنيا الحقيقية؟ تساءلت (سالمة) كثيراً...

نفس الزهد السابق سحبتَه (سالمة) للأطعمة سريعة التحضير، انبهرت بدايةً بفكرة أن تتال طعاماً مطبوخاً خلال دقائق من مجرد تفكيرها فيه، وأخذت بدايةً بتنوعه الشديد ويطعمه الشهي الرائع، لكن سرعان ما قاطعته بعدما أحست أنها تأكل هواءً ملوناً أو كرتوناً مُتَبَلّاً - كما يحلو لها أن تشبّهه - لا يزيد بطنها إلا انتفاخاً وحموضةً، و سرعان ما اعتبرته من مظاهر الدنيا الموازية و لا ينتمي للعالم الحقيقي.

الأكل بالفعل كان مشكلة بالنسبة لها، أنواع لا حصر لها وأسماء لم تسمع عنها من قبل و طعام الصيف في موسم الشتاء وبالعكس، لكنهم جميعاً بلا طعم و لا رائحة سوى رائحة الكيماويات و مكسبات الطعم واللون المضافين... لا تدري كيف لا يدرك هذه الرائحة أحدٌ غيرها ممن حولها؟ هل اعتادوها لهذه الدرجة حتى تعطلت حواسهم عن إدراكها كما اعتادوا الضجيج والتوتر؟ لا تدري غير أنها لم يعجبها من هذه الأطعمة الجديدة عليها سوى أنواع الجبن المستورد التي انبهرت بها فعلاً... إذ لم تكن تعرف سوى الجبن الأبيض والجبن الرومي.

عموماً هذا ليس عام الطعام... هذا عام العلم و المعرفة!

لذلك كان ذهاب (سالمة) إلى الجامعة بهدْفَيَّ مدرجات الدرس والمكتبات فحسب، حتى صديقات (سلمى) قلَّلت من اختلاطها بهن وخروجها معهنّ وإن لم تبتعد عنهن، لكنها كانت تحس معهن بهوّة ثقافية كبيرة...

تتجاوب معهن في الحديث حين يتكلمن في الأمور العاطفية أو شئون المنزل أو بعض صيحات الموضة، لكن يتعطل تجاوبها هذا حين يتحدثن عن أخبار النجم فلان أو الفنانة فلانة، أو حين يتبادلن الآراء حول حلقة أمس من برامج المسابقات و المواهب، و تصاب بالصداع حين يطول هذا الحديث لساعات - و عادة ما يطول! و يحمرُّ وجهها خجلاً حين تتغزل إحداهن صراحة في ذلك النجم أو ذاك البطل؛ أين ذهب حياء هؤلاء الفتيات؟ تتساءل (سالمة) دائماً .

لكنها حافظت على صداقتها بهن قدر المتاح من وقتها المشغول... لا أحد يعيش في جزيرة وحده، لذلك ظلت (سالمة) هي صديقتهن التي يلجأن إليها طلباً لمشورتها أو رمياً للسرف في بئرها كما اعتدن مع (سلمى).

ففي أحد الأيام جاءتها (نهى) صديقة (سلمى) المُقرِّبة و ملامح وجهها تنطق بالجدية والحزن معاً...

- أريدك في موضوع هام يا (سلمى).

- ما بك يا (نهى)؟ وجهك لا يعجبني أبداً.

- لا يصلح المكان هنا لكي أحدثك، هل تأتيين عندي البيت؟

وعندما أغلقا عليهما باب حجرة (نهى) انفجرت هي في البكاء وهي تقول:

- (سلمى) أنا حامل في شهرين!

سقط فَكُّ (سالمة) السُّفْلِي فِي حَجْرهَا مِنَ الصَّدْمَةِ ثَم قَالَتْ:

- كَيْفَ ذَلِكَ؟ أَنْتِ غَيْرِ مَتَزُوجَةٍ.

رَدَتْ (نَهَى) بَعْدَ دَقَائِقٍ مِنَ الْبُكَاءِ وَالشَّنْهَفَةِ:

- ذَلِكَ هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي خَبَأْتَهُ عَنِ مَعْظَمِ صَدِيقَاتِي وَعَنْكَ أَنْتِ  
بِالذَّاتِ؛ لِأَنْنِي أَعْرِفُ رَأْيَكَ الْمَسْبُوقِ وَصَدْمَتَكَ فِي (هَشَام)...أَنَا مَتَزُوجَةٌ  
مِنْ (بِاسْمٍ) مِنْذُ عِدَّةِ شُهُورٍ عُرْفِيًّا!

صَاحَتْ فِيهَا (سَالِمَةٌ):

- كَيْفَ...؟

ثُمَّ تَدَارَكَتْ صَوْتَهَا وَأَخْفَضَتْهُ كَيْ لَا تَسْمَعَهَا أُمُّ (نَهَى)، ثَمَّ قَالَتْ  
وَهِيَ تَجُرُّ عَلَى أَسْنَانِهَا:

- كَيْفَ فَعَلْتِ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ؟

رَدَتْ (نَهَى) وَهِيَ لَا تَزَالُ تَبْكُ وَلَكِنْ بَحْدَةً أَقْلًا:

- أَنْتِ تَعْرِفِينَ مَقْدَارَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ (بِاسْمٍ) مِنْ حُبِّ، وَتَعْلَمِينَ أَنَّ  
ظُرُوفَهُ لَا تَسْمَحُ بِالزَّوْجِ الْآنَ وَهُوَ بَعْدَ فِي عَامِهِ الْجَامِعِيِّ الْأَخِيرِ، وَهُوَ  
أَمَامِي نَهَارًا فِي الْجَامِعَةِ وَمَسَاءً فِي الْكَافِيهِ غَيْرِ الرَّحَلَاتِ وَالنَّزْهَاتِ...  
نَحْنُ لَسْنَا أَحْجَارًا يَا (سَلْمَى).

رَدَتْ عَلَيْهَا (سَالِمَةٌ) بَغِيظًا وَأَسْنَانِهَا لَا تَزَالُ تَتَنُّ مِنَ الْعَضِّ عَلَيْهَا:

- وَيَكُونُ الْحَلُّ أَنْ تَتَزَوَّجِيهِ عُرْفِيًّا مِنْ وَرَاءِ أَهْلِكَ؟

- ليست تلك المشكلة يا (سلمى)، فأنا كنت متأكدة أن (باسم) سيتقدم لخطبتي رسمياً فور استلامه لأي وظيفة، لكن المشكلة أنه منذ أخبرته بأمر الحمل الذي حدث رغماً عني وهو تأثر جداً ومتغير من ناحيتي ويطالبني بالإجهاض.

- وأنتِ لا تريدين الإجهاض أو تخافين منه؟

- ليس هذا أيضاً، فالإجهاض ضروري في حالتي وإلا كيف سأواجه به أسرتي والناس، المشكلة هو ذلك الوجه الذي لم أراه من قبل من (باسم)، (باسم) الذي كان يذوب معي رقة وحناناً رأيت منه غضباً لم أراه من قبل أبداً حتى أصبحت أخاف أن يغدر بي و يتكبر لي... لا أنا ولا أسرتي نحتمل فضائلاً.

- يتكبر لك؟

قالت (سائلة) باستنكار ثم أكملت...

- وأين أبوكِ و أين أهلك؟

- لا أستطيع إخبار أبي فهو مريض بالسكري و هذا الخبر قد يقضي عليه، و أهلي ليسوا في القاهرة ولا صلة لنا بأحدٍ منهم منذ زمن بعيد... (سلمى) أخبريني ماذا أصنع، أنا لا أحتمل الفضيحة وثقتي اهتزت في (باسم)، وحتى لو أجريت الإجهاض فما عدت أؤمنه... أنا بدأت أقرأ في عينيه ملكة مني.

وشردت (سالمة) وهي تتذكر الماضي عندما اشتكت فتاةً لأهلها أن  
شاباً تعرض لها في الطريق بكلمات غزل، وكيف ثار أهل الفتاة وانعقد  
كبراء رشيد في مجلس عريفي و حُكِمَ على أهل الشاب بدفع غرامة،  
ولم تقبل أي أسرة في رشيد بعدها تزويج هذا الشاب بسبب أنه فلتان!



## ( ٢٩ )

اشمأز (يوسف) من نفسه كثيراً، إنه - وهو من كان يظن نفسه متديناً - قد سقط في أقل من شهر ثلاث مرات في أحضان عشيقات (جوزيف)، و في كل مرة يبدأ متردداً في مجرد الإجابة على اتصال إحداهن بهاتفه ثم يوهم نفسه أنها ستكون مجرد مكالمة عابرة، ثم لا يلبث الاتصال الهاتفى أن يسحبه إلى الاتصال الكامل بهن!

و في كل سقططة من هذه السقطات يكون في بدايتها في غاية الشهوة و في أثنائها في قمة النشوة وبعد نهايتها في منتهى القرف والاشمئزاز منهن و من نفسه، هل هذا هو الزواج الذي كانت تتوق نفسه إليه بكل شغف؟ فكان يراه كأنه جنة الدنيا؟

كان يهزأ ممن يقول إن الجنس بلا حب هو عملية حيوانية مقرزة لمن كان حي القلب أو إنسانياً المشاعر، فكان ظمأه - الذي لم يرتو أبداً في السابق - يقول له إن هذا كلام المحروم ليُصبر به نفسه على حرمانه، وها أنت الآن يا (يوسف) تروي ظمأك و تعب من الجنس عباً فما وجدت غير الماء الآسن، أم أن هذا هو طعم الحرام بينما الحلال شيء آخر؟

وتذكر (يوسف) كيف كان ينظر باستحقار للشباب الذي يسقط في بئر الحرمان، فها هو اليوم يشرب منها حتى الثمالة، وأحس بالخجل من نفسه، وبالقرف من (جوزيف) ومن حياته ومن صديقاته.

وسأل نفسه؛ إذا كان (جوزيف) وصديقاته ساقطين فكيف حالك أنت؟ لا...هناك فرق، هم ساقطون عن اقتناع بل لا يرون أنفسهم ساقطين أصلاً، أما أنا فتأدّمُ على ما حدث وأعتبره ضعفاً مني.

هؤلاء الأوغاد لديهم كل شيء ويتمتعون بكل شيء وليس لديهم أي قيد على أي شيء، و للمرة السبعين بعد المائة السابعة يقارن (يوسف) بينه وبين (جوزيف) ويشعر أمامه بالضآلة، هذا الفتى حقق في واقعه كل أحلامي التي كانت في النوم واليقظة معاً... لا هناك فرق! (جوزيف) خدمته ظروفه وأرض الأحلام التي ولد فيها، أما أنا...

وهنا انتبه (يوسف)؛ إنه الآن في نفس ظروف (جوزيف) وعلى أرض أحلامه، صحيح أنه حلمٌ لسنة واحدة لكنها الفرصة يسوقها إليه القدر لتغيير حاله، كيف غفل طوال هذه الأيام عن إدراك ذلك؟

وتساءل في حزن:

إذا كانت هذه فرصة شديدة الوضوح ولم أنتبه إليها إلا بعد أسابيع، فهل ساقط إليّ الأقدار فُرصاً أخرى في حياتي من قبل فعجزت عن رؤيتها حتى طارت مني؟ هل كنت أكتفي بندب الحظ والفقر بينما الفرص تضيع و تقول:

يا رب لم سقتني إلى هذا المغفل؟

هل كنت أنتظر أن تصرخ الفرصة في أذناي و تقول:

أنا فرصة فأدرِكْني؟

وهل سأظل مغفلاً فأضيقُ باقي هذا العام في اللهو؟ ثم لما أعود  
إلى كياني الأول أبكي على الحظ العثر؟ ألهذا إذن لا ينجح إلا قلة من  
الناس في تحقيق أحلامهم؟

هزَّ (يوسف) رأسه في عنف و كأنه يطرد عصافير التفكير المحيطة  
برأسه، ثم نظر إلى المرأة وقال لها:

- كنت أظن يوم أن صحوت في فراش (جوزيف) في سياتل أن هذا  
هو يوم مولدي الثاني... ولكن...

الآن وُلِدَ (يوسف)!

...

## ( ٣٠ )

الرجل هو الذي يصنع المال و ليس العكس - قال (جوزيف) لنفسه - لقد صدق (يوسف) فعلاً في وعده وأرسل لي الثلاثة آلاف دولار كما وعد، فهل فعلاً سيصدق معي في كامل وعده لي؟ أم أن هذه الدولارات التي أرسلها مجرد مُسَكِّنٍ لضميره كي يبتلع باقي المال عن رضا نفس؟

ثم سرح بعقله بعيداً؛ ما هو الضمير؟ وإذا كان شيئاً يختلف عن وازع الدين فما هو مصدره؟ لو كنا مجرد نتاج تطور للقرود الجنوبي أو للإنسان منتصب القامة فكيف نبت لنا هذا الضمير أو كيف نشأت هذه الأديان؟ ما هذا الذي أفكر فيه؟ هل هذا أو ان الفلسفة؟

إنني الآن أشد ما أكون حاجةً لإثبات وجودي، لقد أنجزت شخصية (العفريت دامون) في عامي الجامعي الأخير من أجل تحقيق الذات فحسب، الآن أنا أحتاج لإنجاز مماثل لإثبات الذات مرة أخرى و إثبات أن اختراعي الماضي لم يكن مجرد ضربة حظ، كما أنني أحتاج للمال، لا يعقل أن أترك نفسي تحت رحمة ضمير (يوسف) هذا، والطريق الآن صار أسهل فأنا أعرف طريق التواصل مع شركة بيكسار أو أي شركة مماثلة، و كل ما عليّ فعله هو التركيز في إبداع جديد.

ثم سرح بعينه في سماء غرفته الضيقة، و أخذ يجول بخاطره في كل ما يصلح لأن يصنع منه شخصية كرتونية جديدة، طاف بالحيوانات

والطيور والحشرات والعفاريات والديناصورات وأشباه الإنسان والشخصيات التاريخية...كل شيء تم استهلاكه، و المنافسة في أمريكا لا ترحم، وما لم أقدم شيئاً جديداً و مبتكراً فلن يشفع لي نجاحي السابق...لكن الإبداع لا يمكن أن يتوقف، لا يمكن أن يكون عفريتي السابق مجرد ضربة حظ...

وفجأة؛ جالت بخاطره فكرة؛ إن الشوارع والحارات هنا تموج بالشخصيات التي يمكن اقتباسها، بل يوجد هنا من هياتهم وطريقة كلامهم و حركاتهم لا تحتاج لتعديل كبير كي تصبح شخصيات كاريكاتورية، وأخذ يستعرض في ذهنه بعض هذه الشخصيات التي صادفها طوال الفترة الماضية منذ التحول.

ثم ذهب خياله لأبعد من ذلك، إلى قصة كاملة بشخصياتها الكرتونية، إلى حارة كاملة متكاملة بأهلها و أحداثها و مفارقاتها فتكون قصة فيلم عن هذه الحارة.

إن حياة الناس هنا مليئة بالمتناقضات وبالمفارقات المضحكة والأخرى المبكية، وبدلاً من حالة المعاناة وأحاسيس الإحباط التي أعيشها هنا سأأمل حياة الناس هنا لأخرج بقصتي تلك، كأنها رحلة من رحلاتي السياحية، بل لعلها أهم رحلاتي على الإطلاق؛ أعايش وأأمل ثم أستتبط فأبدع...

ثم قام من فراشه واستبدل ثيابه وأخذ مفتاح التوكتوك وخرج يبحث عن قصته!



## ( ٣١ )

هكذا إذن عادت الحياة إلى مجرياتها الجميلة بين (نوف) و(نواف)، وتدفقت ينابيع جديدة من غسل المودة تحت أقدامهما، وأذابت حرارة الفراش طبقات الجليد التي كانت قد كست أجزاءً واسعة من حديقتهما، وبرغم أنه فراشٌ غير مكتمل أركان الاتصال إلا أن مدارات نشوته وصوفية غيبوبته يأتون من سماء بعيدة ما طاولتها حتى سماوات أحلامهم من قبل...

وعادت الزهور لتتبت و تزدهر وتبتسم فوق شفاههما من جديد .

صارت أجمل اللحظات لهما هو ذلك الوقت الذي يختتمان به يومهما في الحديث والثرثرة الجميلة، وكلُّ منهما مضطجع على جانبه مولياً وجهه شطر الآخر، والكلام لا تنتهي أطرافه بينهما أبداً حتى يغلب النعاس جفني أحدهما فيبتسم الآخر في رضا ويأبى إلا أن يشاطره أحلامه كما يستعير منه جسده ويذوب فيه كيانه .

وارتحلت بينهما الأحاديث حتى زارت ذكريات الماضي بعيدة وقريبه، ودخلت مدن أحلام المستقبل و وطأت أرض المشاعر و العاطفة، ولم تنس أن تطرق أبواب العتاب على ما كان بينهما من جفوات قديمة، لكنها طرقت بلطف من لا يريد إيقاظ من كان نائماً .

أما الأسد الذي استحوذ على الجانب الأكبر من ولائم حواراتها الليلية فكان التفكير و التخطيط المشترك فيما سيواجهانه من أوضاع ملتبسة في ذلك العام الذي كتب عليهما أن يقضيانه كلٌّ في ثوب الآخر .

(نوف) التي كانت تتمنى أن تكون امرأة عاملة و لو بدوام جزئي صُبت فوق رأسها شلالات من العمل المتواصل، و صار لزاماً عليها أن تحل محل (نوف) في اجتماعاته و مراسلاته و اعتماد أوراق أعماله، وتحول هاتف (نوف) الذي كان يزعجها من قبل عندما كان لا يتوقف عن الرنين في جيب (نوف) إلى إزعاجها هي شخصياً، وإلى إرباكها حين يطلب منها البت في أمور لا تفقها فتضطر للاستعانة (بنوف) كل قليل.

و(نوف) الذي كان لا يقضي في بيته إلا سويغات قليلة ويعرف بالكاد مكان حوائجه الشخصية بات لزاماً عليه قضاء معظم يومه في البيت بل ومراقبة شئونهِ و متابعة الخادمتين ومربية أسيل، طبعاً بخلاف متابعة العمل عبر الهاتف مع (نوف)، واضطراره للرد على بعض المكالمات الواردة إلى هاتف (نوف) الذي هو الآن هاتفه، وعليه أن يتحمل ساعات من الثثرة مع بعض قريباتها وصديقاتها واللواتي بدأن يلاحظن تغيراً في طباع (نوف) وطريقة كلامها.

المشكلة الحقيقية التي واجهتهما كانت الزيارات والمناسبات الاجتماعية، فليس معقولاً أن ينعزلاً عاماً بأكمله عنها، و (نوف) يرفض أن تحل (نوف) محله في جلسات أصدقائه، هي صدقت أن ذلك بدافع الغيرة عليها أن تجالس أصدقاءه حتى لو كانت في جسد رجل، وهو فعلاً يغار من ذلك لكنه بالطبع لم يخبرها أن هناك اسباباً أخرى وأحاديث لا يجب أن تطلع عليها كامرأة و لا تخلو منها مجالس الرجال!

و (نوف) بدورها كان لديها أكثر من سبب لأن يمتنع (نوف) عن بعض جلساتها و زياراتها العائلية و الاجتماعية، فالثرثرة - عشق النساء الأول - قد تطال أموراً و فضفضة قد تغضب الأزواج، وبعض النساء في بعض الجلسات يأخذن راحتهن أحياناً بما لا ينبغي (لنوف) أن يطلع عليه في مجتمع محافظ كمجتمعهم.

كان من اللازم إذن أن يسيرا على الحبل، وأن ينزلا بلقاءاتهما الاجتماعية إلى الحد الأدنى الذي لا يغضب الناس منهما، فاتفقا على ألا يذهب (نوف) إلى أي اجتماعات نسائية إلا التي تحضرها والدة (نوف) أو والدة (نوف) و أكبر عدد ممكن من السيدات العجائز، فوجود العجائز في الجلسة يفرض عليها طابعاً خاصاً، وأن يصطحب (نوف) (أسيل) معه في كل مرة فتكون حجة مقنعة لانصرافه مبكراً قبل أن تتفجر دماغه من الصداغ! وسيكون (نوف) مضطراً للإصابة دوماً بالزكام في أي جلسة يحضرها حتى لا يسلم إلا مصافحة فقط.

أما (نوف) فلن تحضر إلا الجلسات العائلية وفي حضور الآباء وكبار السن، وأيضاً ستصاب بالبرد والزكام فلا تسلم إلا بيدها، واتفقا كذلك على أن يكثرا من السفر بحجة متابعة العمل في الخارج وأن (نوف) يريد اصطحاب زوجته وابنته معه.

برغم ذلك فقد كان لدى (نوف) وقت فراغ كبير، فقرر أن يستغله في قراءة كوم الكتب التي كان يشتريها حين يصادف كتاباً يعجبه في مكتبة مطار أو محطة قطار على أمل أن يقرأها يوماً ما، فإذا ملَّ القراءة ابتكر أي تسلية لقضاء وقته، فكان أحياناً يعبث في خزانة

أغراض (نوف)... ما كل هذه الأشياء! إن في خزانات أغراض المرأة من دهاليز و فوضى ومقتنيات أكثر مما في عقلها من زحام! إن (نوف) محظوظة من بين بنات جنسها؛ لقد جربت إحساس البساطة في التفكير وقلة التفاصيل في حياة الذكور.

وأحياناً ما يلتقط (نوف) من خزانة (نوف) فستاناً مكشوقاً أو قميصاً ساخناً كي يجرب إحساس المرأة بجمالها و بجسدها، إنه الآن يفهم و يعذر المرأة في افتتانها بجسدها و غيرتها على جمالها، إن المرأة تتزين أحياناً لتعجب الرجل لكنها تتزين غالباً لتأكيد غيرها من النساء! وحتى التي تعرف أنها أوتيت حظاً عادياً من الجمال فإنها تتزين لنفسها كي تتنع نفسها بنفسها و تشبع جزءاً من غرورها... لا بأس يا (نوف) فبعض الرجال للأسف يفعلون ذلك - قال (نوف) لنفسه... فعلاً إن المرأة التي تحتشم في ملابسها تبذل جهداً نفسياً لا يستهان به، أما التي تُتَّقِي قلبها من الغيرة من غيرها من النساء فهي بلا شك قديسة...

ويا لصبر النساء على النساء!

واقتمحت عليه (نوف) الغرفة و قطعت استرسال أفكاره تلك، وألقت بنفسها فوق أحد المقاعد الوثيرة في تعب و غضب وهي تصيح في ضيق:

- أف!

نظر إليها بدهشة وقال:

- ما بك؟

نظرت إليه لثوانٍ ثم انطلقت كالمدفع الرشاش:

- ما هذه الحياة التي تحيونها يا رجال الأعمال؟ ما كل هذا الصداق والتوتر؟ مطلوب منك أن تكون متيقظاً لما يقال أمامك ومنتبهاً في مكالماتك و مدققاً في أوراقك، و خلال ذلك لا يتوقف عقلك عن التفكير في كافة مشروعاتك والتخطيط لغيرها، ومشاكل مشاكل... مشاكل.

سكتت ثانية ثم أمسكت رأسها وقالت: رأسي يكاد ينفجر.

ابتسم (نواف) و قال:

- تشتكين رغم قصر المدة وأنا معك فيها يداً بيد، أما كنتِ ترغبين في العمل؟ ها هو العمل بين يديك.

- كنت أربح أن أعمل موظفة بدوام جزئي أو أن أدير عملاً بسيطاً، أمّا هكذا؟ هذا انتحار عصبي.

ضحك (نواف) و قال:

- وهل تظنين أن المشروع البسيط سيكون كنزها خلوية؟ ثم إن هناك من النساء من يعملن سيدات أعمال و ناجحات.

- هن بالضبط كما يعمل بعض الرجال في الطهي أو في تصميم أزياء النساء، هذه استثناءات لا تجد غالبية الرجال يقبلون عليها،

الموضوع بصراحة فاق احتمالي خصوصاً وأن مشروعاتك ضخمة ومتشعبة.

جلس (نواف) على مسند مقعدها وربت على رأسها وقال:

- ماذا نصنع، هذا قدرنا، كما أنني معك على الخط في كل ما تحتاجينه.

- الهاتف غير كافٍ، حتى الموظفين بدءوا يستغريون حكاية الهاتف هذه، أنا أريدك بجواري.

نهض (نواف) من على طرف المقعد وقال:

- كيف ذلك؟ حتى يقال إن (نواف) يستعين بزوجته ويقحمها بين الرجال في مكتبه؟

- وما العمل إذن؟ حتى لو لم تهتم بما أعانيه من جهد وتحاملت أنا على نفسي ما يفوق طاقتي، فهل ستتحمل أن أتمرن في أعمال ومشروعات بمئات الملايين؟ هل ستتحمل قراراً خاطئاً آخر كالذي اتخذته منذ أيام في البورصة وتداركته أنت بصعوبة وبعد خسائر؟

نظرا إلى بعضهما وأخذا يفكران في حيرة، وبعد قليل قالت (نواف):

- لننتقل إلى مكتب جدة أو مكتب دبي بقية هذا العام؟

نظر إليها (نواف) في تفكير فأكملت هي:

- كثير من أعمالك تتم إدارتها من هناك، وكثيراً ما كنت تسافر إلى هناك لمباشرة بعض الأمور، وهناك أيضاً سيكون أكثر قبولاً لتواجدك المستمر إلى جوارى في المكتب.

- والمراسلات والمقابلات؟ نقلها كلها من الرياض؟

- وضع مؤقت حتى يمر باقي العام على خير بإذن الله، وهذا أيضاً سيرفع عنا حرج الزيارات الاجتماعية التي في الرياض.

هزاً (نواف) رأسه وبدا عليه الاقتناع و إن كان لا يزال يدير الفكرة في رأسه، ثم قال:

- على أن نعود إلى الرياض من وقت لآخر، ليس معقولاً أن نترك المكتب الرئيسي عاماً كاملاً بغير متابعة.



## ( ٣٢ )

أصبحت رحلات (جوزيف) اليومية بالتوكتوك في شوارع وحارات مصر القديمة مصدر متعته بعد أن كانت مصدر شقائه، وبعد الاحتراق الذي كان يملأ كيانه من الضوضاء والزحام الخانق والتلوث ثلاثي الأبعاد في الماء والهواء والطعام، وعقله الذي يكاد يفقده وهو يحاول تفسير تصرفات الناس الخارجة عن أي منطق و البعيدة عن أي توقع له كعقلية رجلٍ من أهل الغرب؛ ها هو الآن يرتدي نظارة جديدة تسجل كل هذه التفاصيل، ويضع في عقله كشفاً يلتقط المفارقات التي قد تصادفه ليخرج منها بالشخصيات الكرتونية والمواقف الكوميديّة التي يبحث عنها .

وبدأت تتبلور في عقله بعض الشخصيات ويدون في دفتره الأحداث؛ عم (متولي) رجل ستيني متهاك الصحة ويعمل رجل أمن في إحدى العمارات في أحد الأحياء الراقية، (نعيمة التريللا) امرأة شديدة البدانة وتضاريسها مترامية الأطراف وفي نفس الوقت واحدة من أشهر راقصات الأفراح الشعبية - التي تنصب شوادرها في الشوارع - وتشعل حماس الجمهور برقصها البذيء وكلمات أغانيها الأكثر بذاءة .

وجاءته فرصة لحضور أحد أفراح الخمس نجوم، (وليد) صديق (يوسف) الذي يعمل في أحد البازارات الكبرى والذي ساعده في بيع القلادة (لجوزيف)؛ مدعوٌ لحضور زفاف ابنة صاحب البازار على ابن صاحب أحد القرى السياحية في الغردقة - زواج سياحي مبارك - وبطاقة الدعوة لفردين .

وجلس (جوزيف) يسجل أفراح الأثرياء هناك.

في البداية أذاعت فرقة القاعة تسجيلاً لنشيد يتلو أسماء الله الحسنى؛ فقال (جوزيف) لنفسه إذن فهو فرح لأناس متدينين.

ثم لما دعت الفرقة العروسين لرقصة هادئة قال لعل هذا النوع من الرقص الهادئ جائز عندهم، وتمالك (جوزيف) نفسه أن يقع من على كرسيه من الضحك لما كانت هذه الرقصة على أغنية (هوتيل كاليفورنيا)؛ ماذا تفعل هنا هذه الأغنية الوجودية التي تتحدث عن تدمير الذات؟ تساءل (جوزيف)...

ثم استغرب (جوزيف) لما اشتعلت حلقة الرقص بأغاني الروك الغربية وضحك على طريقة رقص الشباب على هذه الأغاني وطريقة تقليدهم للرقص الغربي؛ هؤلاء الناس يصرون على تقليدنا بطريقة مضحكة- قال (جوزيف) و هو يضحك في نفسه - والغريب أنهم فخورون بذلك! بل و يتلقى من يتقن بعض الحركات نظرات التقدير من الشباب و نظرات الإعجاب من الفتيات!

وهنا ساقته غريزة التباهي إلى حلبة الرقص ليستعرض بعضاً من مواهبه فيه، وكانت رقصة واحدة على أغنية روك واحدة كفيلاً له بأن يطفئ كل من حوله، واستحوذ (جوزيف) على الأضواء وعلى نظرات الإعجاب من كل تاءات التانيث! حتى نبتت مشاعر الحسد له في قلوب من حوله من الطواويس.

ثم اندهش (جوزيف) لما بدأت الفرقة تعزف تشكيلة من أغاني  
المهرجانات الشعبية و أغاني التكاتك في حفل زفاف لناس من أهل  
الصفوة، و تعجب من رقص بعض الفتيات المحجبات على هذه الأغاني  
بطريقة لا تخلو من الخلاعة!

وأخذ الغرور الذي أشبعه في وصلات رقصه الغربي إلى مجازاة  
الراقصين كي لا تتحسر عنه الأضواء، وهنا خانته مفاصله تماماً وفشل  
خَصْرَه في تجميع حركة واحدة من حركات الشباب الذي أخذ يتلوى  
حوله في تلقائية، فضل الانسحاب وهو يقرر أن يضيف بند الفروق في  
الرقص إلى نظريته الأنثربولوجية!

ثم لما جاء المطرب ثم الراقصة ثم عازف العود وأغانيه الشرقية  
القديمة أدرك (جوزيف) أن أصحاب الفرع يريدون إرضاء جميع الأذواق،  
ويريدون مساعدته في كتابة قصته الطريفة!

وعاد (جوزيف) لتسجيل يومياته في الشارع، وسجل بعض الوظائف  
الغريبة التي يعمل بها بعض الناس؛ رجلٌ يحمل مبخرة ويطوف بها  
على المحلات و لمقاهي ليصيب من فيها بالاختناق من بخوره القوي  
ومع ذلك يحصل منهم على بقشيش، وماسح لزوج سيارات لا تحتاج  
لمجهوداته في إشارات المرور، وبلطجي موقف سيارات الأجرة مع أنه  
قصير ونحيف البنية جداً ووجهه ينطق بكل أعراض إدمان المخدرات  
وسوء التغذية، وشاب بائس يقود عربة يجرها حمار يقوم بإفراغ  
محتويات صناديق القمامة على الأرض وبيعها لينتقي منها الورق  
والزجاج والبلاستيك، وأهالي بعض الشوارع لا يوبخونه بل ينفحونه

مبلغاً شهرياً كي يقوم بعملية الفرز هذه داخل الصناديق ولا يبعثها على الأرض.

ثم ابتكر جوزيف من خياله شخصيات أوحاها إليه حاله، رجلٌ مصري تزوج من أوروبية شقراء و من إفريقية سمراء و أنجب من الأولى ولداً أوروبياً الملامح تماماً و من الأخرى ولداً أسوداً البشرة كالأبنوس، والأخوان جاءا ليعيشا في حارة فيلمه ويمرراً بالمفارقات المضحكة... يا له من خليط رائع و جديد تماماً على عالم الكرتون الأمريكي.

ثم أوحى إليه عمليات الاستبدال التي حصلت له ولباقى رفاق القلادات بفكرة أكثر ابتكاراً؛ ملك من التاريخ الفرعوني وقائد من جيش الرومان الذين غزوا مصر ووزير فاطمي و أمير من الأسرة العلوية، وقد بعثوا من صفحات التاريخ وحلّوا محل بعض أهل الحارة من البسطاء، وعليهم أن يعيشوا في مصر الغربية عنهم لمدة عامٍ مثلاً...

تخيل القائد الروماني مكان فارز القمامة!

والملك الفرعوني مكان ماسح زجاج السيارات!

والوزير الفاطمي محل حامل المبخرة!

رائع و مبتكر؟ قال (جوزيف) لنفسه...

الحقيقة يا (جو) أنه كله مستوحى مما حولك... هل صحيح أن عقل الإنسان يعجز تماماً عن أن يبتكر شيئاً بغير مصدر يوحى له؟

هل فعلاً يستحيل على عقل الإنسان أن يبتكر أي فكرة من عدم؟

هل فعلاً كل الابتكارات و الاختراعات و الأفكار بل و المواد الفنية والأدبية...كلها لها مصدر أوليٍّ أوحى لصاحبها بها؟ حتى الحيوانات الخرافية إنما هي تركيب لأجزاء من مخلوقات أخرى؟

وعبئاً حاول (جوزيف) أن يعثر على ابتكار واحد نبت في عقل مبتكره من عدم، هل هذا الأنثربولوجيا يا (جو)؟ هيا لتكمل عملك في البيت.



وهكذا يجمع (جوزيف) حصيلة ملاحظاته، وكل ليلة يلجأ إلى غرفته وسط استغراب أمه و أخته اللتان اعتادتتا من (يوسف) أن يقضي أمسيته إما في المقهى أو أمام التلفاز، ويدون (جوزيف) ما رآه ويرسم شخصياته ويجمع المفارقات والنكات التي يطلقها الناس بعفوية، ويجالس أصدقاء (يوسف) ويجمع قفشاتهم و حوادثهم و سخريتهم من واقعهم...

هؤلاء الناس نصف كلامهم نكت عفوية - قال (جوزيف) لنفسه، نحن الأمريكان نظن أنفسنا خفيضي الظل حتى نرى المصريين! ولكي يستطيع (جوزيف) التركيز في عمله كان عليه أن يتخلص من صداد وسماعة الجار (أبو سهير).

لا بأس من بعض التسلية و المرح!

ومرحباً ببعض الطرائف يضيفها إلى قصة حارته .

خزن (جوزيف) في الفريزر بقايا رُءوس و قشور وجبة من الجمبري كان قد اشتراها وعزم أمه وأخته عليها، كيف ستأتي اللحظة السانحة لتنفيذ خطته؟ علينا إذن مراقبة هذا الجار واستطلاع جدولته الأسبوعي.

يوم الأحد يخرج (أبو سهير) للقاء أصدقائه على المقهى و تستغل زوجته ذلك الوقت لتأخذ حمامها الطويل دون أن يتلمل منها .

ما إن تأكد (جوزيف) من خروج الرجل و أغلقت زوجته شباك الحمام المطل على المنور استعداداً لحمامها الطويل حتى أسرع (جوزيف) لتنفيذ خطته وهو يتمنى أن يصدق حدسه في أن رجلاً خاملاً كأبي سهير لن يغلق وراءه بالمفتاح، وأن باب شقته من التهالك بحيث تنجح خطته .

وبالفعل أخذ (جوزيف) عبوة مياه غازية من البلاستيك مقصوصة من منتصفها بشكل مدبب، وأعمل في حشر طرفها المدبب عند لسان باب الشقة، وبقليل من الجهد نجح طرف العبوة في إزاحة اللسان وفتح باب الشقة .

تسلل (جوزيف) و إثارة المغامرة تملأ كيانه أكثر من أي رحلة سبق له القيام بها، وأحضر كُرسياً تحت مروحة صالة الشقة وصعد عليه، ورفع علبتها ودس فيها كيس بقايا الجمبري وأحكم غلق العلبة وتأكد أن المروحة تعمل بلا صوت غريب ثم سارع بمغادرة الشقة .

يومان اثنان وعلا عمراك الزوجين على هذه الرائحة النتنة التي

لا يعرفون لها مصدرًا، وكل يوم يقلبان الشقة رأسًا فوق عقب ويرميان منها أي شيء يشكان فيه ولكن ظلت الرائحة العفنة هي سيدة الموقف، وغسلت الزوجة الشقة بكل ما تعرفه من مطهرات بل وعاونها (أبو سهير) بكل جهده والشقة لا تزيد إلا نتانة، ومهما حاولا تهوية الشقة وتجديد هواءها بواسطة المروحة فإن ذلك لم يجد إلا في نشر وتوزيع المزيد من الرائحة.

وبالطبع انصرفت شلة الكيف عن الحضور وتوقف التسجيل العالي عن الإزعاج و كأن سماعاته سدت بسبب الرائحة.

وعلا عراك الزوجين من جديد ولكن تعاركا هذه المرة أين يذهبان ويتركان الشقة وليس لهما مأوى آخر.

واستمع (جوزيف) بالتفسيرات الغربية التي أطلقها الناس لتفسير هذه الرائحة الغامضة، والتي لم تخل من حواديت العفاريت أحيانًا، ولولا أن (أبو سهير) يقطن في طابق علوي لنقّب الناس أرضية الشقة بحثًا عن قتيل تعفنت جثته لو كان يسكن في الطابق الأرضي.

وتغلبت أسرة (يوسف) - كما تغلب باقي الجيران - على الرائحة بحرق البخور ليل نهار.

وبذلك كان يأوي (جوزيف) إلى غرفته لإنجاز قصته ورسوماته ومزاجه في قمة الانتشاء بعد أن نجح في إخراس والانتقام من ذلك الجار المؤذي.

لكنه لم يحاول أن يفكر كيف سيتخلص من جسم الجريمة خصوصاً وأن الرائحة بدأت تؤذي الجيران بحق.



وذات ليلة أحس (جوزيف) و كأنه يختنق و هو نائم، واستيقظ على صرخات (سارة) وأمها و تجاوبت معهما صرخات الجيران، وأفاق ليدرك أن حريقاً شبَّ في العمارة، وألجمته المفاجأة وهو الذي لم يعتد التعامل مع المواقف الصادمة تلك، و وقف مذهولاً لا يحرك ساكناً، حتى اقتحم الشقة بضعة شباب من شباب الشارع وحملوه هو والأم والأخت، وفوجئ (جوزيف) و هو يجد نفسه محمولاً على كتف (أبي سهير) أي خارج العمارة، واستمر (جوزيف) في ذهوله أسفل العمارة و هو يراقب الشباب الذين تكاتفوا في إخراج أهل العمارة منها و إطفاء الحريق في أسرع وقت...

- يدك معنا يا (يوسف).

- حرام عليك، دعه، إن الصدمة العصبية ليست بسيطة.

واستمر الشباب و رجال الشارع يتحركون في تناغم وكأنهم مدربون على مواجهة مثل هذه المواقف من قبل، و في أقل من نصف ساعة كانوا قد أطفأوا النيران التي شبت في الطابق الأول حتى خمدت النيران قبل أن تصل سيارات المطافئ.

وظن (جوزيف) أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، لكنه وجد الرجال يعاينون الشقق المتضررة من آثار النيران أو آثار الدخان

ويحصون الخسائر، والشقق التي لا تصلح للسكن في وضعها الحالي - ومنها شقة (جوزيف) وأسرته - ينزل أصحابها في ضيافة الجيران من العمارات المجاورة حتى يتم إصلاح الخسائر، وهكذا وجد جوزيف نفسه في ضيافة (سعيد) صديق (يوسف) والذي ليس له أخوات بنات، في حين حلت الأم و (سارة) في ضيافة عم (متولي) - حارس الأمن متهالك الصحة - الذي يعيش مع زوجته وآخر بناته التي لم تتزوج بعد.

وفي صباح اليوم التالي مباشرة بدأت أعمال الصيانة وإصلاح الخسائر، وتكافل أهل المنزل في جمع ما يقدرون عليه من التكاليف، أما الباقي فتكفل شيخ المسجد بدعوة أهل المنطقة للمساهمة فيه؛ كلُّ بما تجود به نفسه، و ساهم في تقليل هذه التكاليف أن كثيراً من عمال الإصلاحات و الصيانة كانوا من أهل الحارة، فمنهم من تقاضى أجراً رمزياً ومنهم من لم يتقاض شيئاً.

وهنا انتبه (جوزيف) أنه لم يكن يدون ولا يرسم إلا كوميديا السلبيات فقط، وأن هذه السلبيات ركامٌ يغطي معدنًا مختلفًا لم يره إلا في هذه الحادثة.

وفي بيت (سعيد) عرف (جوزيف) معنى الضيافة والتكافل... (سعيد) صديق (يوسف) منذ الطفولة، و والده كان يعمل أيضاً في العراق حيث عاش (سعيد) عدة سنوات هناك، و عايش والده نفس محنة والد (يوسف) و أهوال رحلة الهروب من العراق.

وبدأ (جوزيف) في تغيير نظارته التي كان يرتديها وبدأ يغير بعضاً من سيناريو وأحداث قصته.

وفي وقت راحة العمال تسلل (جوزيف) إلى شقة (أبو سهير) وسارع بانتزاع كيس الروائح من علبة المروحة، وارتبك لما صادفه (سعيد) في الشارع وهو يحمل ذلك الكيس قبل أن يتخلص منه، سأله عن تلك الرائحة البشعة، لكنه تمالك نفسه وفسرها بأنه كيس فسد في ثلاجتهم بعد أن غادروا شقتهم.

وفي أقل من أسبوعين كان يعود هو وأسرته إلى شقتهم و قد حمد الجميع الله أن الحريق لم يستمر إلا قليلاً فلم يؤثر على أعمدة الخرسانة؛ الحمد لله، قدر و لطف.

ورثت كلمتا القدر واللطف في أذني (جوزيف) في سخرية، إنه تفسير جديد على عقله، لكنه بالفعل يفسر حجم الخسائر المحدود، بل ويفسر نجاة من ينجو من حوادث مميتة و يخرج منها بغير خدش واحد، لكنه لا يفسر لماذا يختص اللطف أناساً بعينهم دون غيرهم - هكذا قال (جوزيف) لنفسه.

وأفاق (جوزيف) من أفكار القدر و اللطف على منظر بعض الشباب يزينون الشارع بأفرع من الإضاءة و أوراق الزينة الملونة وبعض الفوانيس، وظن (جوزيف) أن أهل الشارع سيقومون (بارتي) بمناسبة انتهاء إصلاح العقار و عودة أهله إليه، لكنه عرف أنها زينة للاحتفال بقدم ذلك الشهر الذي يقدهه المسلمون.

وأسقط في يد (جوزيف)؛ ماذا سيصنع في رمضان!

## ( ٣٣ )

انتَهز (حسن) فرصة أن يصفوا أباه (الشيخ البرغواطي) وأن يعطيه وجهاً أو بعض وجهه، لقد كانت الأسئلة لا تزال تتزاحم في ذهنه ويريد لها جواباً، ولم يكن ليجرؤ أن يسأل أباه إلا بعد أن يطيب نفساً من ناحيته.

وفي ليلة صفت فيها السماء كما صفا فيها مزاج الشيخ أيضاً انتهز (حسن) الفرصة وقرر أن يدخل في صلب الموضوع مباشرة دون تمهيد... هو يعلم أن أباه لا يحب المراوغة.

- أبي؛ أريد أن أستفهم عن أمرٍ واحدٍ يشغل بالي من يوم الشعري والقلادات.

نظر إليه الأب طويلاً وقد أقطب جبينه حتى ظن (حسن) أنه قد أساء التوقيت، لكن أباه بادره وقال:

- على ألا تكون أسئلة فيما تحويه الخزانات من أسرار.

فبادر (حسن) قائلاً:

- لا لا أبداً أبداً، لا فضول بعد اليوم.

وسكت لحظات ثم قال:

- ما يحيرني فعلاً هو أنني دهشت من حجم ما في الخزانات من قوة، إن طلسماً واحداً في خزانة واحدة قلب دنيا بعض الأشخاص،

و(برقان) يصنع الأعاجيب ويسافر عبر ممرات السماء وبوابات المجرات  
و يأتينا بالخبر من أقصى الأرض بل ومن الماضي أيضاً، وأنت تتحكم  
فيه يا أبي كأنه ابن لك أو خادم عندك.

سكت (حسن) فأشار إليه أبوه أن يسترسل فقال:

- لا أصدق أن كل هذا العلم وكل هذه القوة لا وظيفة لها إلا  
مساعدة بعض الناس في فك سحرهم أو صرف مسهم أو حسدهم،  
إنني و قبل أن أحيط علماً بأي شيء مما في هذه الخزانات قادر بحمد  
الله على فعل ذلك، فلا بد أن هناك أمرٌ أكبر وراء هذا العلم.

سكت الأب حتى ظن (حسن) ألا إجابة عنده، ثم تكلم الأب وقال:

- قد يكون الصواب ألا أجيبك إلا بعد أن تبدأ في طريق تلك  
العلوم، لكنك قد لا تُمنح هذه الفرصة فيظل السؤال يأكل صدرك،  
لكنه على كل حال سؤال ذكي و يستحق أن أنوه لك عن بعضٍ من  
إجابته.

وسكت الشيخ لثوانٍ و ظهر الارتياح على وجه (حسن)، وأكمل

الشيخ:

- لن أعطيك إجابات كاملة وإنما هي مجرد إشارات، ولا تسألني  
عن أي تفاصيل، اتفقنا؟

- اتفقنا.

- هل تظن أن أهل السحر الأسود وأعمال الضرر لا دور لهم إلا استعراض قوتهم في الربط والضرر والمرض وأعمال الخوارق؟ كلاً؛ إن لهؤلاء يوماً موعوداً يجتمعون فيه تحت راية كبير لهم، فيُخرجون أقصى ما في جعبتهم من أفاعيل و أعاجيب تفتن الناس لتجعلهم أتباعاً لذلك الكبير، هنا يأتي دورنا أنا مع سائر نظرائي أو أي وريث لنا، لنجتمع نحن أيضاً ولكن تحت الراية الأخرى ويكون دورنا أن نبطل هذه الأعاجيب ونطفئ نارها و نزيل غشاوتها من على أعين الناس، وما هذا الذي نصنعه اليوم- نحن أو الفريق الآخر - إلا تدريبات، كأنها تمارين لياقة نبقى بها جذوة ذلك العلم متقدة في صدورنا .

- و لكن يا أبي...

قاطعها الأب بإشارة من أصبعه و قال:

- ها أنت تخالف شرط ألا تسأل في التفاصيل .

- لن أسأل في تفاصيل لكنه سؤال آخر؛ أنت تصر على السكن في

هذا المكان النائي، وأظن باقي النظراء كذلك، فهل لذلك أي مغزى؟

- وهل لنا أن نظهر ونخالط الناس إلا بعد أن يخالطهم هو ويخالط

عليهم بباطله؟

ثم قام الأب وانصرف قاطعاً على (حسن) أي مجال لسؤال آخر .



## ( ٣٤ )

عدّل (يوسف) عن خطة السفر والسياحة التي كان ينتويها، إنه الآن في مرحلة إثبات بل تحدي الذات، الفرصة الذهبية لتحقيق أحلامه في أرض الأحلام.

كان يستطيع ببساطة أن يرسل خطابات شكر إلى (حسن) و(برقان) وشكر خاص (لجوزيف) على هذه الحياة الممتعة و لا يعيدها له أبداً، ويتخلص من السبحة المسحورة فيحرقها أو يهشمها أو حتى يلقيها في المحيط، لكنه فعلاً يأبى أن يأكل المال الحرام.

كما أنه لا يضمن أن يعاقبه الله من جنس عمله ويسلط عليه طلسماً جديداً من طلاس (حسن) و (برقان) فيصحو يوماً ليجد نفسه (غَطَّاسَ مَجَارِي) أو (نَاسِكِ هِنْدِي) في معبد يقدس الفئران والأسوأ أن يجد نفسه سجيناً في سجن معسكر ٢٢ في كوريا الشمالية أو نزياً غير مرحب به في أحد السجون العسكرية في بلد عربي.

هو أيضاً يفتقد أمه وأخته بشكل كبير و لا يملك حتى الاتصال بهما هاتفياً، ولا يتخيل نفسه محروماً منهما للأبد .

رجع (يوسف) إلى شقة سياتل الفاخرة و دخل غرفة المكتب التي في الطابق السفلي من الشقة و جلس إليه؛ لن يخرج قبل أن يفتح الله عليه بفكرة تصلح للتنفيذ فلا ينتهي العام إلا وقد بنى نفسه مادياً، لا بأس أن يستفيد من مال (جوزيف) في تجارة ما، سيتشاطر معه الأرباح، لكنه لم يدر كيف سيتقاسم معه الخسائر إذا خسر المشروع!

ومضى (يوسف) يستعرض في رأسه كل المشاريع الممكنة: التفكير هذه المرة يختلف عن أيام التفكير في مشاريع التوكتوك و البلياردو وتنس الطاولة، يستطيع أن يفتح مطعمًا، أو أن يُصدّر كبد البقر إلى مصر؛ هم هنا لا يأكلونها عادة وسيحصل عليها بأسعار زهيدة، ويمكنه أن يستورد من مصر خضروات أو فاكهة في مقابلها، لاحظ (يوسف) أن كل أفكاره تنصبّ في بند المعدة، ولاحظ أيضًا أنه لا يفقه شيئًا في أساسيات التجارة والمشاريع، لا بأس فلا أحد يولد خبيرًا، لكن الوقت ضيق و ليس أمامه إلا باقي العام ليخرج بنتيجة مربحة، هو إذن لا يحتاج إلى مشروع تقليدي بل إلى خبطة كخبطة (جوزيف) و عفريته، أو إلى اختراع ناجح وهو آخر علاقته بالعلم دروس الفلسفة.

ومرت ساعات و (يوسف) يقلب أفكاره ذات اليمين وذات الشمال ولا جديد، حتى بدأ اليأس يزحف إلى قلبه، وفجأة...قفزت إلى عقله فكرة وكأنها كُرّة ركلها أحد الأطفال لتصطدم برأسه؛ إذا كان هو عاجز عن استنبات فكرته الخاصة فلمَ لا يتبنّى أفكارًا صديقة؟

(سعيد) - صديق الطفولة وابن رفيق والده في رحلة الهروب من حرب العراق - استمر لمدة عام يصدع رأسه بخصوص فكرة عقار لعلاج الإدمان...أي إدمان، حتى إدمان العادة السرية أو مواقع التواصل الاجتماعي، و برغم تخصص (يوسف) الأدبي فإن إلحاح (سعيد) في الكلام عن عقاره جعل (يوسف) يدرك قدرًا لا بأس به عن فكرته، وفي المقابل حاول (سعيد) تبسيط فكرته لأقصى درجة كي تجذب انتباه (يوسف)...

- الدوبامين...الخلاصة في الدوبامين.

هكذا كان يبدأ (سعيد) كلامه دائماً...

- مواد الإدمان ترفع مستوى الدوبامين بشكل هائل في الدماغ مسببة له قدراً رائعاً من السعادة، المخ المغمور بالدوبامين يفرغ من هذه الكميات من الدوبامين فيقوم بتعطيل بعضاً من مستقبلات الدوبامين ليريح نفسه من هذا العمل الزائد، ولكي يشعر المدمن بنفس شعور النشوة السابقة بعد تدمير هذه المستقبلات فإنه يلجأ لمزيد من الجرعات التي ترهق المخ من جديد، وهكذا في حلقة مفرغة حتى ينهك المخ ويتدمر.

- وماذا يصنع عقارك؟

وهنا يتوه عقل (يوسف) الأدبي في كلام (سعيد) العلمي عن كيمياء المخ وقدرة عقاره على فصل هذه المتلازمات عن بعضها، ويجد عقله يتساءل عن علاقة (سعيد) بالعقاقير بالرغم أنه لم يتخرج لا في طب ولا في صيدلة، بل هو دارس للعلوم قسم كيمياء ويعمل في معامل وزارة الصحة...لا عجب؛ فأغلب الفلاسفة ليس بينهم دارس أكاديمي للفلسفة إلا قليل منهم...

ثم يفيق (يوسف) من تفكيره في معضلة التخصص و الإبداع على شكوى (سعيد)، إذ ترفض أي جهة في مصر تبني مشروعه والمجازفة بتجربته.

- وهل تظن أن مراكز الأبحاث الدولية والجامعات العلمية بجيوش باحثيها في غفلة عن هذه الفكرة؟

- الفكرة كلها اكتشفها بالصدفة، الصدفة وراء نصف اكتشافات العالم، بالضبط كما ساقط الصدفة لاكتشاف مفعول الفياجرا والبنسلين، أو كما قاد الخطأ إلى اكتشاف عود الثقاب أو مادة التيفال أو فرن المايكروويف... إلخ.

لكن قلّ من يمتلك عيناً تلاحظ.

- وكيف جاءت صدفتك؟

يضحك (سعيد) وهو يقول:

- من صديقي العَطَّار المدمن...

ثم يستطرد...

- عندما تضيق به ذات اليد عن شراء الكيف كان يذهب إلى محل عطارتهم و يخلط مجموعة من الأعشاب غريبة الأسماء ويتصبر بها حتى تفرج، ومن هنا جاءتني فكرة أن هناك مادة في هذه الأعشاب تريح العقل من إلحاح الدوبامين، وعَمِلْتُ لسنوات مستغلاً عملي في معامل الوزارة، ففوجئت بنتيجة عكسية؛ أنها تعالج تعطيل حساسات الدوبامين في المخ، بنظام (دَاوِنِي بالتي كانت هي الداء)...

ثم يعود (سعيد) ثانية للغرق في شرح تفاصيله العلمية.

وبقي العقار حبيس أدراج عقل (سعيد)، ومن وقت لآخر يحاول تسويق الاختراع بالداخل أو بالخارج بلا فائدة، بل عوقب مرة بأنه استعمل معامل الوزارة في عمل خاص به، وبين المحاولات الفاشلة تلك يدخل (سعيد) في حالات اكتئاب محترمة يكون (يوسف) مُلزمًا بحكم الصداقة أن يتشاطرها معه، حان الأوان يا (سعيد) أن نتشاطر الأرياح أيها المخترع الكئيب!

وسحب جرس الباب (يوسف) من أفكاره، غريبة: إن موظف الأمن لم يخطر به بقدوم أحد لزيارته، على كل حال فالطارق ليس شخصاً غريباً، (نيكول) التي اتصلت به يوم أن قرر مغادرة سياتل إلى لوس أنجلوس ونيويورك ولم يرد على اتصالها؛ إنها الآن تقف وراء باب شقته.

وقف (يوسف) ينظر في تردد ودهشة للشاشة التي تعرض ما تصوره الكاميرا المثبتة بباب شقته، إن (نيكول) تدق الجرس في إصرار وواضح أنها قررت ألا ترحل حتى تقابله، لقد عاهد (يوسف) نفسه على أن يكون له من اسمه نصيبه من العفة، ولكن واضح أن (نيكول) تصر على أن يكون لها نصيبها الخاص بها هذا اليوم!

لكن ملامحها الحزينة لا توشي أبداً بأنها جاءت بحثاً عن المتعة.

فتح (يوسف) الباب فدخلت (نيكول) ووقفت صامتة لثوانٍ ثم انفجرت فجأة في البكاء وهي تقول:

- (جوزيف)؛ لقد فقدت كل شيء!

ثم ارتمت في أحضانه وراحت في وصلة طويلة من البكاء والتهنّف،  
و(يوسف) يقف مذهولاً ويسترجع من ذاكرة (جوزيف) موقع (نيكول)  
من الإعراب في حياته، بعد لحظات أدرك إنها صداقة مخلصه لم  
تخرج عن حدود البراءة إلا قُبلةً قديمة قررا بعدها أنهما أصدقاء  
فحسب، وصارا الصديقين الأقرب يحكي كل منهما للآخر عن حياته  
حتى جوانبها العاطفية بل والحميمية.

هدأت وصلة (نيكول) من البكاء فرفعت رأسها عن كتفه ومسحت  
بأصابعها آثار بكائها عن ملابسه ثم قالت وملامح البكاء لا تزال  
عالقة بعينها وأنفها وفمها:

- هل لديك بييرة؟

- أنا آسف يا (نيكول) لكنني تعلمت خلال سفري الأخير أن أقلع  
عن الشراب.

استغربت و قالت:

- وما علاقة الشرب بالبييرة؟

تدارك (يوسف) كلامه فقال:

- أقصد أقلعت عن كل ما هو كحوليات، هل أحضر لك عصيراً؟

- قهوة لو سمحت.

أحضر (يوسف) كوبين من القهوة وذهب إلى حيث تجلس (نيكول)  
في صالة الاستقبال الواسعة فجلس أمامها وأعطاهما كوبها، فانطلقت  
هي في الكلام من قبل أن يسألها:

- لم أكن أقصد أبداً حدوث ذلك الحمل، صحيح أن (جيمس) وأنا اتفقنا على أننا غير مستعدين لحدوث ذلك إلا بعد الزواج الذي اتفقنا أن يكون بعد الترقية التي ينتظرها (جيمس) في عمله، لكن الحمل بالطبع لم يكن مسئوليتي أنا وحدي، كنت مستعدة أن أتحمّل ثورته على أنها مجرد تنفيس عن غضبه ثم نفكر سوياً فيما يجب أن نفعله، لكنه بكل نذالة هجر الشقة وترك لي مظروفاً من المال ورسالة يُحملني فيها مسئولية ما حدث وأن هذا المال تكاليف عملية الإجهاض وأنه بذلك يخلي مسئوليته، بل وطلب من عمله أن ينتقل إلى مكتبهم في فلوريدا.

ثم أخذت تبكي ثانية لكنها استمرت في الكلام وسط دموعها:

- أكثر ما يجرحني أنه عاملني كأنني عاهر ولست حبيبته التي طالما حلم معها بالمستقبل الذي نبنيه سوياً وبطفلين يكبران ليذهب أحدهما إلى هارفارد والآخر إلى ستانفورد.

اندمج (يوسف) مع قصتها فقرر أن يجارها وقال:

- حدث كل ذلك وأنا مسافر في الشهور الأخيرة؟

- لقد كنت فعلاً بحاجة إليك وقتها، لكنني قررت أن أتحداه وأن احتفظ بطفلي وأن أتولّى تربيته وحدي حتى أثبت له ولأسرتي أنني قادرة على الحياة بدونهم، ولكن...

ثم دخلت في البكاء من جديد وهي تقول:

- ولكن الشركة التي كنت أعمل بها استغنت عني وعن مئات الوظائف في عملية إعادة الهيكلة، وهكذا وجدت نفسي بلا مورد، فأجريت عملية الإجهاض حتى لا أرى طفلي يذهب إلى أسرة بديلة أو إلى سكة التشرّد بدلاً من الذهاب إلى هارفارد، وهكذا وجدتي بلا عمل ولا طفل ولا حبيب، و صلّيتي مقطوعة بأسرتي منذ فترة طويلة كما تعلم، لم يبق لي سوى مجموعة من الأصدقاء يتناقصون واحداً تلو الآخر بأن يذهب كل منهم وراء رزقه أو أحلامه... لا أريد أن أصحو يوماً فأجد نفسي مثل جارتنا القديمة (مدام مارجریت) عندما وجدت نفسها في الخمسينات من عمرها بلا أسرة ولا زوج ولا أصدقاء ولا وظيفة لها في الحياة سوى تلقي معاشات الضمان الاجتماعي؛ فأنتهت حياتها في لحظة يأس. أنت تعرفني فتاة محبة للحياة و أكره أن أسقط فريسة للاكتئاب الذي يبتلع الناس هذه الأيام كأنه وباء، لقد أصبحت أستيقظ أحياناً في الليل مرعوبة، و تزورني الكوابيس بانتظام كأنها مسلسل تلفزيوني يومي، تمر عليّ الوحدة في المساء كأنها موجة من الحمى... ساعدني يا (جو) كي أخرج من كبوتي.

قال (يوسف) وهو يتقمص شخص (جوزيف):

- بكل تأكيد يا (نيكول)، أنتِ أعز صديقة لي.

- أنا أحتاج لأن أقيم عندك لفترة حتى أعرّ على عمل جديد، فبخلاف أن الوحدة تقتلني فأنا بصراحة لا يمكنني الاستمرار في دفع إيجار الشقة التي أقيم فيها.

فوجئ (يوسف) بهذا الطلب الغير متوقع، هل تريد أن تأتي لتقييم هنا في غرفة و أنا في غرفة أخرى والشيطان يجلس في الردهة؟ صحيح أنها و (جوزيف) أصدقاء بلا علاقة جسدية و أن الآلاف هنا يؤجرون غرفاً في شققهم ليجدوا من يشاطرهم تكاليف الحياة وأحياناً ما يكون هذا الشريك من الجنس الآخر، لكنهم لا يبالون عادةً إن قامت بينهم أي علاقة، الجنس بالنسبة لهم كتناول الطعام ، فهل سأصمد أمام هذا الإغراء.

لكنه لم يستطع أن يرفض طلبها وهي في هذه الحال، ولا أن يجرح كرامتها فيعرض عليها مالأً تسدد به احتياجاته؛ فقال لها:

- متى تريدان أن نذهب لجلب أغراضك؟



## (٥٣)

وقعت صفة والد (سالمة) على قلب (سلمى) قبل أن تقع على وجهها، إنها لم تعتد حتى أن ينهرها أبوها، ولم يسبق له أن رفع يده عليها حتى وإن كانت مخطئة.

واعتصمت في حجرتها رفضاً لما جرى وبكاءً من عقوبتها وهي ترى أنها لم ترتكب خطأ أصلاً.

واستغرب إخوة (سالمة) وأخواتها من ردة فعلها، فخطؤها واضح بالنسبة لهم، وحتى إن صفعها الوالد بغير ذنب فهم لا يرون أن الأمر يستحق كل ذلك الغضب منها!

واغتاضت (سلمى) لما وجدت أخواتها يطلبن منها أن تذهب لتعتذر لأبيهم.

وعبتاً حاولت الأم أن تواسيها بأنها تعرف أبها وأنه قاسٍ قليلاً في تربية أبنائه لكن قسوته تلك قد أحسنت تربيتهم، كما أنه طيب القلب، وأخذت تتلو على مسامعها قصص حنانه السابق معها ومع إخوتها.

لكن (سلمى) أرادت أن توصل رسالة؛ المبدأ أصلاً خطأ، بل كثير من المبادئ هنا لا تعجبها، لكنها لم تجد إلا تعاطفاً مكتوماً مع حزنها، في حين لم يلق كلامها تجاوباً منهم.

ثم بدأ التعاطف ينقلب استتكاراً لما اعتبروه مبالغةً منها في ردة فعلها، ما المشكلة؟ أنها ليست المرة الأولى التي يضربها فيها الوالد أو يضرب أحداً من إخوتها أو أخواتها بل وأحياناً أمهم!

بل إن الحاج (محمد البكري) رجل عاقل لا يضرب إلا نادراً ولا يضرب إلا صفعاً خفيفاً بكف يده!

وأحست (سلمى) أنها لو مكثت في غرفتها شهراً فلن يُلْقَ أحدٌ لها بالأب، في حين أن الأب حين حاول أن يصالحها اكتفى بأن نادي عليها وطلب منها أن تعدَّ له فنجاناً من القهوة، وهو ما اعتبره الأم والأخوات لفظة طيبة من جانب الأب!

قررت (سلمى) أن تكون إيجابية، صحيح أنها لن تمكث هنا إلا ما بقي من شهور هذه السنة، لكنها يمكن أن تصنع شيئاً خلال هذه المدة، الكثير من المفاهيم الخاطئة هنا تستطيع أن تغيرها، يكفيها أن تحاول لفت انتباههم إلى الكثير من السلبيات التي يحيونها.

العديد من الأنشطة التي كانت تتخبط فيها قديماً - تقصد في المستقبل - والكثير من الأفكار و المبادئ التي كانت تؤمن بها وتشارك في فعاليتها؛ تستطيع أن تنقل ذلك هنا...إلى الماضي.

الفكرة كائنٌ حي - قالت (سلمى)...

ليست بحاجة إلى منابر إعلامية ومنتديات ثقافية حتى تشر بين الناس.

تستطيع بث ذلك التغيير بين أخوتها... أن تحمل مشعل النور بين جاراتها وقربياتها، حتى يعمُ الضياءُ عقول الفتيات والنساء هنا .

وسرحت (سلمى) وهي تتخيل نفسها داعية التغيير في رشيد لتعود إلى القرن ٢١ لتفاجأ باسمها مَسْطَرًّا كأول من نادى بالتوير، لكنها انتبهت أن ذلك لو تمَّ فسيُسَطَّرُ باسم جدتها (سالمة) لا باسمها هي... لا يهم - فكرت (سلمى) - فصاحب القضية الذي ينتظر تخليدًا لاسمه ليس بصاحب قضية أصلاً.

وقامت (سلمى) من فراشها، وأخذت تضع في عقلها الخطة التي ستسير عليها، ستستهدف أخواتها وجاراتها وقربياتها، ما أكثر التجمعات هنا فلا يكاد يمرُّ يوم بدونها، لعل هذه هي الحسنة الوحيدة لغياب التكنولوجيا و الأجهزة الحديثة و مواقع التواصل التي عزلت الناس في أيامي كُلاً في جزيرته الخاصة - قالت (سلمى).

وأمسكت بقلم رصاص وورقة - لم تكن تتوقع أن تجد القلم الرصاص في ذلك الوقت - وأخذت تضع في رَويَّة المفاهيم التي ستحاول نشرها .

لو حدثتهم كيف أن الدنيا سيتغير شكلها و مفاهيمها تماماً عما قريب فستُصدِرِ بذلك لنفسها شهادة رسمية بجنونها .

لكنها تستطيع الكلام و مداعبة أحلامهن عما يجب أن يكون عليه شكل الحياة .

لا يجب أن تكون صادمة فتحدّث الناس مثلاً عن سفر الفتاة مع أصدقائها أو حرّيتها في ارتداء ما يحلو لها من أزياء، هذه مرحلة بعيدة.

يمكن أن تحدّثهم عن حقوق الطفل و أصول التربية الصحيحة، وعن عدم التمييز بين الولد والبنت في المعاملة...

عن تعليم الفتيات، عن حقوق المرأة، عن حقها في اختيار الزوج وحقها في رفض التعدد أو الموافقة عليه...

عن مواجهة التحرش... لا... لا... لا يوجد تحرش هنا أصلاً...

فلتكلّمهم عن التوعية و التعددية السياسية... أيضاً، هذه صعبة في القرن ال ٢١ فكيف بها الآن...

يمكن أن تستبدلها بالتوعية الصحية و بممارسة الرياضة، بل أن تنظم فصلاً رياضياً للفتيات و النساء هنا...

أن تتبنى حقوق الإنسان و محاربة العبودية، حق الجارية (صُبح) مثلاً في تحديد مصيرها و حقها في الزواج...

صحيح؛ لماذا لم تتزوج (صُبح)؟ بل كيف ستتزوج أصلاً؟ إنها فتاة جميلة و متفجرة الأنوثة، ما الذي بينها وبين الحاج (محمد البكري)؟ لماذا هو الوحيد بين أعمامي الذي له زوجة واحدة!



## ( ٣٦ )

جاءك رمضان يا ( جوزيف ) فماذا أنت فاعل؟ إنه لا يريد أن يثير حفيظة أم (يوسف) أو أخته (سارة) أو أي أحد من أهل المنطقة إذا أدركوا أنه مُفْطِرٌ، صحيح أن بعض السائقين والصناعية يجاهرون بالإفطار في نهار رمضان، لكن الناس تعرف عن (يوسف) أنه شابٌ ملتزم نوعاً بل ويكثر من التردد على المسجد، والبعض لاحظ فعلاً أنه صار لا يتردد على المسجد إلا لصلاة الجمعة التي يذهب إليها من باب الفضول ليسمع و يرى ويسجل، لكن رمضان شيء مختلف، سيكون عليك يا (جوزيف) أن تتبه كثيراً فلا يلاحظك أحد وأنت تأكل أو تشرب خلسة.

ظن (جوزيف) أن المشكلة انتهت عند هذا الحد، لكن مفاجأة أخرى كانت في انتظاره، رمضان هو الموسم الذهبي لمكبرات الصوت في المساجد التي كانت تزعجه، بالذات مؤذن المسجد المجاور وصوته الأجنس المنقّر في الأذان وبالذات في أذان الفجر، ففوجئ أن مكبرات الصوت يزداد نشاطها في رمضان ما بين تراويح ودروس يومية يُصرُّ ملقوها على إذاعتها عبر مكبرات الصوت، برغم أن رداءة نوع المكبرات تجعل الكلام يخرج مشوشاً يصعب على الأذن تفسير ما فيه...إنه كابوس لمدة شهر يا (جوزيف).

لكنه أدرك بعد يوم واحد أن رمضان جاءه بحصيلة ذاخرة من الفلكلور والعادات التي تستحق أن تُسجل؛ ما بين المسحراتي الذي

لا يوقظ أحداً! لكنه يحافظ على تراث هذه المهنة العريقة ونفحاتها اليسيرة، وبين صانعي الحلوى والمشروبات الرمضانية، وما يسمونه مائدة الرحمن لإفطار الفقراء والغرباء، سهرات المقاهي إلى قرب الفجر والأمسيات الرمضانية التي تنظمها المراكز الثقافية و التي عرف طريقها عن طريق (سارة) التي تجد سلواها من حياتها الجافة في أنشطة هذه المراكز.

وذات يوم وجد (سعيد) يقبل نحوه مسروراً و يزفُّ إليه بشارة أن الشيخ (جبريل) سيؤم صلوات التراويح في الجامع الضخم الذي في أقصى الحي (جامع عمرو بن العاص) و ذلك لعدة ليالٍ، و وقف جوزيف للحظات لا يدري ما وجه البشارة في ذلك حتى فطن و أسعفه مخزون ذاكرة (يوسف) حبه لصوت ذلك الشيخ، حسناً فلنجرب.

وأخبره (سعيد) أن عليهما التواجد من قبل الإفطار هناك كي يدركا مكاناً معقولاً قبل الزحام الشديد المتوقع، مطاً (جوزيف) شفثيه بامتعاض ولكن لا بأس من التجربة.

وانتبه (جوزيف) أنه - وهو الرحالة المتجول الأصيل - لم يزر المعالم التي يزخر بها هذا الحي من الآثار الإسلامية والقبطية برغم مرور كل ذلك الوقت على تواجده مكان (يوسف)، وكان من قبل يستغرب حين يسافر إلى بلد بعيدٍ خصيصاً كي يزور أحد معالمها ثم يفاجأ بأن من أهل هذا البلد من لم يزر ذلك المعلم أبداً، فينظر إليهم نظرة استخفاف ويعتبرهم قليلي الثقافة والرقي الفني!

وقبل المغرب بساعة كان يتخذ موقعه مع (سعيد) في الجامع الذي  
ذُهِلَ لأزدحامه المبكر برغم اتساعه الكبير، ولَمَّا صدح المؤذن بأذان  
المغرب تساءل (جوزيف)؛ إذا كان يمكن للأذان أن يكون جميلاً ومنغماً  
هكذا فلماذا يُسمح لمؤذن المسجد المجاور للبيت أن يفعل فينا ما يفعله؟  
حتى ظننت أن رفع الأذان بذلك الصراخ من شعائر دينهم .

وقرر (جوزيف) - وهو ينصت إلى مؤذن الجامع رخيماً الصوت  
- ألا يكون سلبياً كباقي أهل الحارة وأن يكون إيجابياً و يسعى لتغيير  
ذلك المؤذن .

واكتظ الجامع زيادة و زيادة، و فهم (جوزيف) من كلام من حوله  
أن من بخارج الجامع أضعاف من بداخله، وأقيمت الصلاة، ورويداً  
رويداً بدأ (جوزيف) في الانسجام مع التلاوة، وأخذ الانسجام يتحول  
إلى إعجاب ثم إلى خشوع .

وعَجِبَ (جوزيف) لهذه الدموع التي بدأت تترقرق في عينيه برغم  
أنه لم يفهم إلا قليلاً مما يقرأه الشيخ، و أخذ عقله يحاول تفسير هذه  
الدموع، هل هي بسبب جمال الصوت؟ إنه لم يبك من قبل لسماع  
مطرب أو مغنى أوبرا أو لسماع أي مقطوعة موسيقية برغم عشقه  
للموسيقى و دراسته لمقاماتها، فماذا إذن؟

إنها تُدَكِّرُه بتلك التجربة الروحية التي جربها في أحد الصلوات  
الجماعية في ذلك المعبد البوذي جنوب الهند، أو بتلك الحلقة الصوفية  
النقشبندية التي حضرها في إسطنبول...

لا...ذلك أمر مختلف، في تلك التجربتين كان الأداء جماعياً- قال (جوزيف)- وكانت مشاركتي إيجابية في الحركات و في الصوت، لكني هنا متلقي سلبي، لعله يشبه التلقي السلبي حينما أندمج مع أحد المشاهد المؤثرة في فيلم رائع فتساب دموعي معه؟ لا...هذه الدموع طعمها مختلف وهذه القشعريرة آتية من مدارات روحية لم أعشها من قبل.

كيف تستطيع طقوس الأديان أن تثير حالات النشوة و الخشوع تلك في نفس الإنسان؟ - تساءل (جوزيف)- هل احتاج إليها الإنسان فاخترعها؟ فلماذا احتاج إليها أساساً و كيف اخترعها؟ أم أنه اكتشف تأثيرها الرائع فمارسها؟ و إذا كانت اكتشافاً فلماذا هي أصلاً لها هذا التأثير العجيب؟ و من صنعها إذن؟

ونفض (جوزيف) عن عقله تساؤلاته و أغمض عينيه و غرق من جديد في بحر الخشوع الذي لا يفهم له سبباً.



## ( ٣٧ )

وهكذا انتقلت معظم أعمال (نواف) إلى مكتب (دبي)، ولم يستغرب الموظفون هناك وجود (السيدة نواف) بقدر ما دهشوا من سرعة انخراطها في تفاصيل العمل وكأنها كانت تتابع كل شيء منذ زمان.

بل لاحظ أولئك الذين لا تفوتهم شاردة ولا واردة في جو العمل - ولا يخل من أمثالهم أي محيط عمل - أن (نواف) أكثر إلماماً ببعض التفاصيل، لكن ما اعتادوا عليه من شخصية (نواف) الصارمة في العمل لم يسمح لهم بالتعليق على ذلك أو حتى تداوله فيما بينهم إلا همسات هنا أو همهمات هناك وفي أذن من يثقون بهم فقط، فطبيعة العمل الخاص هو الحذر الشديد وبالذات تجاه شخص صاحب العمل. واستقرت أحوال العمل بعد أن انضم (نواف) إلى (نواف) فيه، ونجحاً في إخفاء حقيقة أن (نواف) هو من يدير الدفة وهو في جسد (نواف) ولكن عبر (نواف) التي هي في جسد (نواف)، ولم تسقط منهما إلا هنأت بسيطة والتي لاحظ منها أولئك الخبثاء ما لاحظوا، ولكن بالطبع لم يخطر على بال أكثرهم خبثاً أو خيالاً حقيقة ما هما عليه من تحول.

وظنَّ (نواف) و (نواف) أن قاربهم قد استقر وأنه سيعبر رحلة بقية العام في سلام، حتى تلاطمت القارب أمواج جديدة!

(نوف) لم تكن تعرف من نساء العمل اللواتي حول (نوف) سوى (كوليت)، لكنها في مكتب دبي عاينت ما لم تكن تعرفه، موظفات عربيات وأوروبيات تعملن هناك، والقاسم المشترك بينهما هو الجمال والتفاني في إرضاء (المستر نوف) في العمل، لكن (نوف) كأثنى كانت لتدرك ما وراء تفاني بعضهن.

كان طبيعياً حال ظهور زوجة (نوف) في العمل أن تتحول بعضهن إلى الاهتمام (بنوف) والتقرب منها حتى لا يثرن غيرها، بينما بقيت بعضهن على ما اعتدن عليه من التقرب (لنوف)، وكان هذا وذاك كفيلاً بإثارة الغيرة في قلب (نوف) والتساؤل عما بعد مرور ذلك العام؟

لكن الذي لم تتصوره (نوف) أن تدب الغيرة في قلب (نوف) أيضاً من موظفيه الشباب وهم يحيطون ويتقربون من زوجته (نوف) وإن كانوا يظنونها رئيسهم (نوف)، ورغم أن (نوف) قد وضع لها كثيراً من القواعد في التعامل خصوصاً مع أولئك الذين يحلو لهم إظهار مواهبهم في خفة الظل أو الأناقة أو الوسامة، وهي المواهب التي لم تكن تظهر في مكتب الرياض حيث جميع العاملين من الجنس الخشن! إلا أن (نوف) لم تكن لتغير طبائع هؤلاء أو لتلوم أحدهم على اهتمامه بأناقته أو شكله، هي أصلاً استغرقت تعليمات (نوف) خاصة وأن من يتعامل معها يتعامل على أنها (نوف)، و لكن تقبلتها بغير نقاش طويل حتى لا تثير غيرته أكثر.

وبدأت بعض مناوشات و تعليقات الغيرة على استحياء فيما بينهما إلى أن حانت سفريّة ضروريّة إلى بيروت، و احتار (نواف) من يسافر منهما، إنه يشّاق إلى (كوليت) و لكن ما فائدة سفره وهو في جسد (نوف)، و (كوليت) بالتأكيد اشتاقت إلى زوجها و لكن ما فائدة ذلك أيضاً وجسده الآن ملك (نوف)، و (نوف) الآن ترفض أن تسافر هي إلى بيروت وإلى (كوليت) تجنّباً لما لا يصح أن يقع بينهما!

وهنا سألته (نوف) صراحةً؛ ماذا ينتوي أن يفعل مع (كوليت) في نهاية العام؟ هي تنتظر منه أن يبادر بطلاقها، هي ترى أنّهما الآن روحٌ انشطرت في جسدين حقيقيّة لا مجازاً، وتظن أن تجرية التبادل تلك وما تبعها من ذوبانها في تجرية من الحب لا يمكن وصفها ولا تصورها، ظنت أن كل ذلك كفيلاً بأن يُغنيه عن سواها بقية العمر، لكنها فوجئت بإجابة مائعة من (نواف):

- دعينا لا نستبق الأحداث و لا نقاطع في الأمور، وقت أن يسترد كلُّ منا هويته تأكدي أنني لن أصنع إلا ما يرضيك.

وقرأت (نوف) ما وراء الكلمات من تسويق، وزاد مكتب (دبي) عليها من هواجسها ما لم تكن تراه من قبل.

واتخذ تفكيرها منحىً آخر!



## ( ٣٨ )

استغرب (جوزيف) و قال لنفسه:

كيف لم أفكر في هذا الأمر من قبل؟ المفترض أن (سالمة) الآن هي أقرب إنسان لي في القاهرة، هي الوحيدة التي يمكنني أن أتواصل معها ونتكلم في هذا التحول السحري و لا تعتقد أنني مجنون تنقصه طاسة يلبسها فوق رأسه، أو أن بي حمى أثرت على كهرباء دماغي حتى أفقدتني عقلي، بل لعل المسكينة هي أيضاً تحتاج إلى من يشاركها لبس الطاسة، أقصد إلى من تفضل معه، إلى من يسمع صرخاتها مما هي فيه من غربة، ثم إنها فرصة ذهبية لي كدارس للأنتربولوجيا أن أتعرف - ليس دراسة بل معايشة - على عقل إنسانة مما قبل المدنية الحديثة وتفاصيل حياتها...إنها حتى لم تكن تعرف ما هي الكهرباء!

لكن كيف أصل إليها؟ حسب رؤيا (برقان) لي فإن اسمها الآن (سلمى) و تدرس التاريخ في عامها الجامعي قبل الأخير، إذن فهي رحلة إلى رحاب الجامعة وبقليل من البحث - أو بكثيره لا فرق - وسأصل إليها، المثير في الأمر هو كيف ستكون ردة فعلها عندما تراني!

يومان كانا يكفيان لأن يصل (جوزيف) إليها، لا توجد في دفعتها (سلمى) غيرها، وهي مشهورة بما فيه الكفاية؛ تلك الفتاة التي كانت شعلة أنشطة ثم تحولت وفجأة توقفت عن معظمها مع تغير ملحوظ في شخصيتها وتصرفاتها .

- آنسة (سلمى) مساء الخير.

- مساء النور؟

- أظنك تعرفيني كما أعرفك.

- لا أظن أننا تقابلنا من قبل، بعد إذنك.

واستدارت لتمشي فبادرها قائلاً:

- هل تحبين إذن أن أناديك (سالمة) بدلاً من (سلمى) اسم

حفيدتك؟

تسمرت قدمها ثم التفتت إليه وهي مذهولة و أوصالها ترتجف،

فبادرها ثانيةً:

- أرجوك تماسك، أنا مثلك أحد ضحايا قلادات (حسن) و(برقان)

وطلسمهم، بالتأكيد تعرفينني، لكن حذار أن يغمى عليك فيلتف حولنا

زملاؤك ثم نكون مطالبين بتفسير ما حدث.

ابتلعت ريقها في صعوبة واحتاجت لدقيقة حتى تماكنت أعصابها

واستطاعت أن تتطرق لتقول:

- أنت...

بادرها قائلاً:

- أنا (جوزيف) الأمريكي بديل (يوسف) المصري.

تطوح جسدها منها فمالت للوراء و أسعفها حسن الحظ أن كانت تقف بجوار جدار فاستتدت عليه .

- أرجوكِ للمرة الثانية أن تتماسكي، بالتأكيد هي مفاجئة كبيرة لك، هل نجلس قليلاً؟

دقيقتان من الوجود بعد أن جلسا إلى إحدى الطاولات حتى قطعت هي حبل الصمت و قالت:

- لماذا ظهرت الآن؟ وأين كنت من البداية؟ لقد كدت أُجَنُّ طوال الفترة الماضية ولا أستطيع أن أخرج ما في صدري لأحد .

- وأنا كنت مثلك مصدوماً وربما أكثر .

- أكثر مني؟ مستحيل، على الأقل أنت تنتمي لهذا العصر المجنون وتفهم ما فيه من تغيرات وتطورات لم نكن حتى نحلم بحدوثها، أما أنا فكان عليَّ استيعاب صدمتين في وقتٍ واحد .

- أما أنا فكان عليَّ استيعاب تغيير الجسد وصدمة اللغة وصدمة الفقر وصدمة الجنسية المختلفة...ألا تلاحظين أننا عكس بعضنا في كل شيء؟

ابتسمت لأول مرة منذ بداية اللقاء وقالت:

- وكيف ذلك؟

- ذكر وأُنثى، غربي و شرقية، أنا من العالم المعاصر وأنتِ من الزمن القديم .

ضحكت ضحكة خفيفة و قالت:

- فعلاً، والآن أخبرني كيف استقبلت هذه الصدمات.

ولساعتين أو أكثر أخذنا يتكلمان بلا توقف وكأنهما يسابقان عقارب الساعة كي يُفَرِّغ كل منهما بعضاً مما يكبته في صدره، حتى أفاق (سالمة) فجأة:

- يا خبر! لقد أخذنا الحديث والوقت ويجب أن أنصرف الآن، لكننا لا بد أن نتقابل ثانية، لقد جئتي كأنك النجدة، حتى وإن كانت نجدة متأخرة.

- بالتأكيد سوف نتقابل، كما أننا في هذا العصر نستعمل اختراعاً يسمى الهاتف وآخر...

قاطعته (سالمة) بضحكة عفوية عالية خالفت ما هي عليه من تحفظ طوال الشهور الماضية و قالت:

- وآخر اسمه المحمول، هل تظن أنني كنت سأحل محل (سلمى) هذه الشهور دون أن أعرف على التقنيات الحديثة؟

ابتسم (جوزيف) و قال:

- أنا آسف، اعذريني فما زلت أراك (سالمة) من عصر ما قبل الكهرباء.

- وبالتأكيد تخيلت أنني سأعود إلى بيتي على ظهر حصان أو جمل.

ضحكا سوياً ثم قالت هي:

- لعلمك لقد استوعبت كل هذه التقنيات والمخترعات في أسبوع واحد، وأنا الآن سأعود إلى بيتي على متن سيارتي الخاصة وليس على متن توكتوك.

وقالت جملتها الأخيرة وهي تنظر إليه في خبث، فضحك (جوزيف) وقال:

- عليك أن تري الشقة التي يسكنها (يوسف) الآن، ستحتاجين إلى دليل لشرح ما فيها من تكنولوجيا كما احتاج (يوسف) نفسه.

وضحكا من قلوبهما كما لم يضحكا من شهور وتبادلا أرقام المحمول ومضى كل واحدٍ منهما في طريقه وهو يحمل في قلبه إحساس من عشر على عائلته بعد أن كان تائهاً لشهور.



## ( ٣٩ )

وهكذا أخذت (سلمى) تضع بالورقة والقلم خطتها وترسم خطواتها كأنها مدير تسويق يضع خطة حملته الدعائية، فتحدد الفئات التي ستستهدفها في حملتها وطريقة عرض بضاعتها عليهم.

يمكنها أن تنظم ما يشبه الصالون الثقافي، إن النساء عادة ما يجتمعن ظهراً في بيت إحداهن بعد أن ينتهين من أعمال المنزل وقبل أن يعود الرجال لتناول الغذاء، وأحياناً ما يجتمعن عصرًا بعد خروج الرجال مرة أخرى بعد قيلولتهم، فتعقد النساء من جديد مجالس الثرثرة والنميمة.

وهذه هي فرصتي...قالت (سلمى)!

سأحاول مجالس الهذر هذه إلى جلسات توعية، سأبدأ بالقصص وبالتاريخ - وعندي منهم الكثير - بل يمكنني أن أنسج من سفرياتى السابقة - أقصد اللاحقة - قصصاً كأنها من نسج الخيال، أفتح لهن من خلالها طاقات النور، وأبث من خلال كل ذلك الأفكار التي أهدف لنشرها بينهن.

وبدأت (سلمى) تضع خطتها موضع التنفيذ، وبدأت تسرد قصصها التاريخية والخيالية، ونجحت من أول يوم في شد انتباه الفتيات والنساء إلى حكاويها، ومرة وراء مرة تصدرت الاهتمام في جلسات النساء، وتقننت هي في انتقاء قصصها واكتشفت في نفسها موهبة السرد

حتى إنها كانت لتدهش من نفسها أحياناً و بهيئاً إليها أنها تتصت في استمتاع إلى راوية أخرى تتحدث وليس إلى نفسها .

وتحولت لقاءات النساء هذه إلى ما يشبه الصالون الأدبي أو قل إلى مقهى للحكواتي لكنه يعقد في حرملك النساء . وبعد أن كانت اللقاءات تبدأ بالسلامات و كلام المجاملات و تبادل بعض الأخبار ثم تسلّم ناصية المجلس إلى (سلمى) كي تبدأ حديثها؛ صارت اللقاءات التي تحضرها (سلمى) بمثابة ندوة لها، ثم صار الأمر أكثر انتظاماً فقامت المهتمات بكلام (سلمى) و حكاويها بتخصيص أيام ثابتة لها تكون ندوات خالصة مخصّصة لها بعيداً عن اللاتي أظهرن عدم اهتمام بكلامها أو من أكلت الغيرة قلوبهن من (سالمة) الجديدة .

وصار للقاءات اسم متعارف عليه (مجلس سالمة) يعقد ثلاث مرات أسبوعياً لمدة ساعتين كل مرة، و صار أغلب وقت (سلمى) مشغول في الإعداد لهذه اللقاءات و انتقاء ما تقوله فيها بحيث توصل رسالتها ضمناً في حكاويها .

فطنت (سلمى) من البداية أنها يجب أن تلفت الانتباه بغير أن تثير الريبة أو التساؤل؛ أتى لك هذا الكلام؟

ولا أن تثير حفيظتهن بأفكار صادمة لهن، و أسعف (سلمى) أنها وجدت في قبو البيت وسط الكتب الكثيرة التي ورثها والد (سالمة) عن جدها كتاب الأغاني للأصفهاني و كتاب ألف ليلة و ليلة، فكان أن جعلتهما مصدر رواياتها لمن يسألها عن مصادرها، لكنها بالطبع

زادت من عندها قصصاً من رحلات جاليفر وآليس في بلاد العجائب بل وهاري بوتر بخلاف ما نسجه خيالها، وهي تعلم جيداً أن أياً منهن لم تقرأ إلا الأغاني ولا الليالي، بل و غالبيتهن لم يسمعن عنهما أصلاً.

كانت تركز على القصص التي تحكي بطولات المرأة واستقلاليتها و تمردها على الاضطهاد و تكافؤها مع الرجل، وعلى القصص التي تظهر قوة المرأة إذا كانت متعلمة، وفي مرات أخرى تحكي قصصاً عاطفية البطل فيها الرجل العاطفي الحنون الذي يكتفي بامرأته عن كل نساء الدنيا .

لكن (سلمى) وجدت أن قصصها لا تغير في قناعات من تحدثن شيئاً، فعندما تحاورت مع بعضهن وجدت أنهن يحضرن...يسمعن... ينبهرن...ثم ينصرفن و كأن شيئاً لم يقل، ولا ينطبع في وجدانهن شيئاً مما ترميه وراء قصصها .

لم تُحبط (سلمى) و أدركت أن القصة وحدها لا تكفي بغير بعض الإسقاط و التعليق، فقررت أن تغير طريقتها بأن تُقلد بعضاً ممن سمعتهم من الدعاة الذين ظهروا في المستقبل، فصارت تقص الحكاية وفي وسط الأحداث تتوقف لتسقط الحدث على حياة من يسمعونها وعلى واقعه :

— لماذا لا تكوني مثل زينب؟

— يا حظ من يكون زوجها محباً و مخلصاً مثل علاء الدين.

- هل رأيتنَّ أهمية التعليم ؟
- سعاد كانت تدرك أنها لا تقل قوة و لا أهمية عن زوجها أو إخوانها الذكور.
- وهذه هي عاقبة التفرقة بين الولد والبنت في المعاملة والتربية.
- وهنا بدأت المشاكل تطل برأسها في وجه (سلمى)، فبعض الحاضرات رفضن تلك الإسقاطات:
- هذا زمان غير زماننا و أصولهم غير أصولنا والتشبه بهن مُحال.
- والبعض الآخر احتجبن عن مجالسها إذ مُنعن عن الذهاب لما حاولن أن يقتدين ببطلات قصص (سلمى):
- ما الذي غيرك يا امرأة؟ من أين أتيت بهذه الأفكار؟
- إنهن البطلات اللاتي تحدثنا عنهن (سالمة).
- يمين طلاق ألا تذهبي إلى هناك مرة أخرى.
- أما باقي الحاضرات فكنَّ يكتفين بمتابعة أحداث القصة و يعتبرن إسقاطات (سلمى) مجرد فاصل إعلاني ينتظرن انتهاءه حتى تواصل رواية حكايتها.
- وأخطأت (سلمى) لما حاولت مرة أن تجادل من أعلن رفضهن لهذه الإسقاطات، إن بعض ما تعتبره هي من المسلّمات يعتبرنه هن من المنكرات.

حتى فصول الرياضة و الأيروبيكس التي حاولت تنظيمها فوجئت  
بأنها لم تجد من النساء من تتحمس لها...

حتى أقنعت بعضهن بصعوبة بالحضور، وبذلت جهداً كبيراً معهن  
في تليفق ما يناسب من الملابس لهذا الفصل الرياضي.

- ألا يكفيننا هدّ الحيل في أعمال المنزل؟

هكذا قالت كل من حضرن معها فصلها الرياضي اليتيم الذي  
نظّمته، وانصرفن جميعاً قبل نهايته وهن يتدّرّن على شكل ملابسهن  
المضحكة!

ووجدت (سلمى) أنها ستخسر كل ما بدأتها وأدركت أنها تعجلت  
في خطواتها، لذلك قررت أن تعود إلى المربع الأول.



## (٤٠)

عثرت (سارة) مصادفةً على بعض رسومات (جوزيف) التي يصور فيها شخصياته الكرتونية، ودهشت أنها لم تعهد في أخيها من قبل أي مواهب فنية، واستعجبت أكثر أن تعليقاته على الرسوم كتبها بالإنجليزية بل و بلغة طليقة وبعامية أمريكية جعلتها أحياناً لا تفهم كثيراً من الكلام، واستغربت أكثر أن تعليقات (جوزيف) على المكان وأهله أنها بصيغة (هم)، ببساطة سألته لمن هذه الرسومات وببساطة كأنه كان يعمل حساب أن تعثر عليها؛ أجابها أنها له:

- لن أظل سائق توكتوك إلى الأبد، عملي أتاح لي مخالطة كل أصناف الناس و تأمل مفارقاتهم، فجأةً خطرت لي الفكرة بعد أن شاهدت أفلام أنيميشن أمريكية وها أنا أنفذها لأفاجأ بموهبتي التي لم أكن أعلم عنها شيئاً من قبل.

٩ -

- التعليقات التي بالإنجليزية؟ لقد نقلتها من بعض مواقع الكاريكاتير الأمريكية؛ أحببت أن أستفيد من طريقتهم في تنفيذ الرسومات و في كتابة التعليقات، أنت تعلمين أننا الآن نقلد الأمريكيان في كل فنوننا بل ننقل عنهم أفلامهم نقل مسطرة أحياناً حتى في تصميم أفيشات الأفلام.

ولم تفوّت (سارة) الفرصة بعد أن أظهرت إعجابها وحماسها  
لموهبة أخيها:

- لا ينبغي أن تظل هذه الرسومات حبيسة الأدرج، لابد أن  
نعرضها على الفنانين في قصور الثقافة.

حاول (جوزيف) أن يتملص منها لكنه لم يُرد أن يثير ريبها لما  
سألته:

- لماذا ترسم تلك الرسوم إذن إذا كنت لا تريد أن تعرضها على  
أحد؟

فأخذته معها إلى المراكز الثقافية، وبالفعل نالت رسوماته إعجاب  
كل من رآها عدا بعض من يهيمنون على أنشطة الرسم والجرافيك  
هناك! فقد أظهروا عدم اكتراثهم بها و قال بعضهم بكل ثقة أنها  
تحتاج لتحسينات حتى تكون صالحة للعرض، و (جوزيف) يضحك منهم  
في سرّه، لكن البعض الآخر عرض عليه أن يساعده في نشرها في بعض  
الدوريات.

لكن لا كلام هؤلاء ولا كلام أولئك كان له أي صدى عند (جوزيف)،  
إنه لم يستنفر كل قواه طوال تلك الشهور ليخرج بقصته ورسوماته تلك  
كي تعرض في دوريات مصرية محدودة، إن هدفه هناك عند الشركة  
التي اشترت منه سابقاً مشروع العفريت، ولكن لا بأس أن يساير (سارة)  
فقد كان يريد أن يرى ويدرس ذلك المجتمع الثقافي عن قرب.

أكثر من قابلهم هناك شباب متحمس ومُحَبَّب في ذات الوقت من كل شيء، يشعرون بالغربة ولا يدري لماذا؟ يناقشون هنا في حرية بعض التابوهات الفكرية التي لا يجرؤون على مناقشتها خارج هذه الجدران. لكنهم يناقشون أحياناً قضايا تجاوزناها نحن منذ عقود - قال (جوزيف) لنفسه ...

بل و يتبنون أفكاراً تجاوزها حتى أصحابها ...

وكثير منهم يتفنن - لست أدري لماذا - في جعل مظهره مختلفاً وغير اعتيادي، وكأنه يقول للناس من حوله أنا لست منكم، وبعضهم - مثل (سارة) - متوازن في كل شيء، يستمع لآراء الكل و يتفرج على كل المعروض ويصفق ثم يمضي خارجاً لعالمه الحقيقي وواقعه.

ما أظن أن نشاط (سارة) الثقا في هذا إلا تنفيساً عن بعض كبتها؛ فتاة مليحة و تفوح أنوثاً و جاوزت الثلاثين من عمرها ولا زالت عذراء القلب والقالب، وتعيش في مجتمع فقير في فرص الزواج بسبب تعقيدات أهله فهي بالتأكيد تعاني غلياً و كبتاً في آن واحد ...

أنا أستطيع بنظرة واحدة أن أخترق عين الفتاة فأقرأ كل تجاربها العاطفية والجنسية، هذه فتاة لم تعرف الحب إلا عن طريق النظرات أو المكالمات، و أقصى تجربة يمكن أن تكون مرت بها أن تكون قد تفرجت على ما لا يصح لها مشاهدته من لقطات أفلام أو مقاطع فيديو، لو كانت عندنا لاعتبروها قديسة أو شاذة، لكنها في الحقيقة ضحية تعقيدات مجتمع لا يعرف له هوية محددة.

دعك من كل هذه المتاهة يا (جوزيف)، ما يهمك الآن هو رد شركة Pixar على مشروع الفيلم الذي أرسلته إليهم عبر البريد الإلكتروني...

وهذه هي المشكلة!

لم يكن في إمكان (جوزيف) أن يرسل الشركة على أنه (جوزيف)، سيحددون له موعداً ليعرض عليهم المشروع كاملاً و مناقشة بعض التفاصيل وتوقيع الكثير من الأوراق كما حدث سابقاً، كان عليه إذن أن يرسلهم على أنه (يوسف) و يكون على الشركة أن تتولى هي إجراءات سفره إلى أمريكا.

ومرّ الوقت ولم يجد جوزيف أي صدىً لمراسلاته. جرّب المحاولة مع شركات أخرى ومجلات أمريكية للكاريكاتير ولم يجد أي صدىً مختلفاً عندهم.

إحباط و لكنه متوقع، وهذا ما خفف وطأته على قلبه، هذه الشركات و تلك المجلات تتلقى يومياً مئات بل ربما آلاف الأفكار، وكونك مؤلف سابق لديهم يا (جو) لا يهمهم في شيء سوى ما تقدمه لهم من أفكار وابتكارات، و لن يشفع لك اسمك إلا في أن تجد من ينصت إلي فكرتك ليقمها بحساب الربح و الخسارة فقط، فما بالك حين تكون اسماً مجهولاً و من بلد آخر؟

لا بد من سلوك الطريق المختصر كي تجد أفكاره طريقها إليهم، لو جاءهم المشروع عن طريقه هو (كجوزيف) صاحب التجربة الناجحة لوجد المشروع - إذا أعجبهم - طريقه مباشرة إلى استوديوهات

التصوير، لو كان يستطيع السفر إلى أمريكا لعرف كيف يسلك تلك الطرق المختصرة حتى وهو (يوسف)، لكن جواز سفر (يوسف) عليه رفض من السفارة الأمريكية، تَبَّ لهذا الحظ التعس.

وبالتأكيد لو طلب من (يوسف) استقدامه إلى أمريكا سيتوجس خيفة من نواياه وسيرفض.

لماذا إذن لا تكمل تجربتك المحلية؟ لماذا لا تعرضها على الشركات أو المجلات هنا؟

وحاول (جوزيف) أن يقوم بذلك بالفعل، وساعده في ذلك بعض من تعرف عليهم في مراكز (سارة) الثقافية، لكنه كان يريد الوصول إلى شركات الإنتاج السينمائي أو مجلات الكاريكاتير التي تدفع بسخاء كما في أمريكا، لكنه ما لبث أن اكتشف أن الطريق إليهم له ممراته ودهاليزه الأشد صعوبة من الممرات التي حاولها - كيوسف - مع الشركات والمجلات الأمريكية، والأهم من ذلك أن السينما هنا لا تزال بعيدة جداً عن إنتاج أفلام الأنيميشن بالشكل الذي يريده.

كان طبيعياً أن يسحب ذلك (جوزيف) في دوامة من الاكتئاب، هذه هي موهبته التي يجيدها وليس لها متففس إلا حيث كان في أمريكا، وهو الآن عالق في مصر، ومن يضمن له أن (يوسف) سيوفي بوعده ويقاوم إغراءات أرض الأحلام وهي تقول له هيت لك؟

وفجأة...قفزت إلى عقله فكرة مجنونة، ولم لا؟ وكل ما هو فيه الآن جنون في جنون أصلاً؟ إن شركة بيكسار تعرف (جوزيف)، فلم لا

يصل إليها عن طريق (يوسف) الذي هو الآن (جوزيف)؟ هل يخاف أن يسرق فكرته ومجهوده؟ إنه الآن بالفعل يتمتع بثمار فكره القديم ومجهوداته بل وكل حياته، فلم لا يسحب رداء الثقة ليغطي فكرته الجديدة تلك؟ المسخوط ديكاً لن يتضرر كثيراً إذا سُخِطَ دجاجة! ولعدة ليال يدير (جوزيف) الفكرة في رأسه، ويحسب كل احتمالاتها السيئة... فليكن ما يكون.

وللمرة الثانية يتصل (بيوسف) ولكن دون الحاجة لأدخار هذه المرة بفضل هاتفه الذكي الجديد الذي سمح بتثبيت برامج للمحادثة عليه:  
- لا تقل لي أن ال ٣ آلاف دولار قد انتهت و أنك تريد المزيد من المال.

- ولنفترض ذلك؟ أليس هذا حقي؟

- قلت لك أن مالك محفوظ، و اتفقنا أنه لا داعي لإثارة التساؤلات حولك، عموماً كم تريد؟

- أنا بالفعل لا أريد مالاً و لكن أريد شيئاً آخر أهم...

وشرع (جوزيف) يشرح (ليوسف) ما يريده منه، وتفاصيل وخطوات الوصول والتفاوض مع شركة Pixar ، بعد أن انتهى (جوزيف) من شرح ما عنده قال (يوسف):

- أراك أصبحت تثق بي فعلاً.

- ولم لا تقل أنه الحل الوحيد المتاح أمامي؟

- على كل الأحوال هي ثقة...وهل تريدني أن أحول لك الأرباح المنتظرة إلى حساب (يوسف) في مصر؟ أم أضيفها إلى حسابات (جوزيف) هنا في الولايات؟

سكت (جوزيف) لأنه يعرف رأي (يوسف) في مسألة تحويل المال تلك، ولأنها أيضاً مسألة محيرة و مربكة، لكن (يوسف) استرسل قائلاً:

- أنا عندي مخرج لمسألة تحويل المال!

- وما هو؟

- أنا أيضاً فكرت في أن أستغل هذا العام في جمع بعض المال ينفعني بعد أن أعود (كيوسف)، و عندي فكرتان يمكن إدراجك فيهما وتكونان مبرراً لما سيدفق عليك من مال و أنت في مصر.

- وما هما الفكرتان؟

- الأولى أنني لما سافرت نيويورك و لوس أنجلوس لم أجد في الفنادق لُوف للاستحمام، فخطررت لي فكرة أن أستورد هذا اللوف من مصر، و ببعض التجهيز البسيط له سيكون ملائماً لاستعمال الفنادق بل ومراكز التجميل، يقولون أن هذا اللوف بخلاف فوائده في النظافة و تقشير خلايا الجلد الميتة فإنه يعالج تكون السليوليت تحت الجلد، وسيتم استيراد هذا اللوف عن طريقك.

- والفكرة الثانية؟

- هي خدمة تسديها لي و لصديقي (سعيد) أكثر منها مشروعاً...  
خدمة في مقابل خدمة.

وشرع (يوسف) يشرح بدوره (لجوزيف) فكرته في تمويل اختراع  
(سعيد).

- ماذا؟ ستخاطر بأموالي في تمويل اختراع لا أحد يعلم مستقبله  
ولا نسبة نجاحه؟

- ليس بالتمويل الكبير الذي تتخيله، المطلوب فقط تمويل الخامات  
وتجارب المعمل حتى يتم تنفيذ نموذج أولي للعقار، ثم يتم الاتفاق مع  
أي من شركات الأدوية هنا و ما أكثرها، وهي التي ستتولى تجاربه على  
الحيوانات ثم البشر، وفي حال نجاحه سيتم الاتفاق معها على حصص  
إنتاجه وتسويقه، وإن أردت أن تدخل شريكاً في التمويل فلك حصتك  
من الأرباح، وإن رفضت فسأقوم بالتمويل من حصتي من أرباحك من  
فكرة فيلمك الجديد.

قال (جوزيف) بتوجس:

- حصتك من الفيلم؟

- أئن أقوم بدور الوسيط بينك و بين شركة السينما؟ العدل يقول  
أن أحصل على نسبة ١٠ ٪ من الأرباح، والعدل يقول أن تحصل على  
حصتك من أرباح اختراع (سعيد) إن وافقت على تمويله، وطالما أن  
جداراً من الثقة بدأ يُبنى فيما بيننا فيمكننا أن نتفق الآن على كل  
التفاصيل وحصص أرباح كل منا من المشاريع الثلاثة.

سكت (جوزيف) مقتنعاً بكلام (يوسف)... لو كان يريد الاستيلاء على أمواله وحياته لما فكر لا في هذا اللوف ولا في مشروع (سعيد) الذي أحبه بعد شهامة الاستضافة أيام حريق المنزل، ثم قال بعد قليل:

- وما هو المطلوب مني في مشروع (سعيد)؟

- أن تكون حلقة الوصل بيني وبينه، أنت الآن صديقه (يوسف) الذي سيذهب ليزف إليه بشارة أن ذلك الأمريكي الذي اشترى القلادة سوف يتبنى مشروعه، وأنا هنا سأقوم بالإجراءات اللازمة لاستقدامه إلى أمريكا.

- اتفقنا... بالمناسبة أريد منك أن تشحن لي بعض الأغراض التي لن أجدتها في مصر و ليس معي ثمنها بصراحة.

- هل هي...

قاطعه (جوزيف):

- اطمئن، هي ليست ممنوعات، هي مثلاً كبسولة أكسيد النيتروز، وصبغة مخلقة غالية الثمن و أشياء من هذا القبيل.

ابتسم (يوسف) و قال:

- وماذا ستصنع بهذه الأشياء الغريبة.

- برغم أنها من أسرار المهنة لكم لا بأس، فمن يؤلف قصة يحتاج لأن يعايش على الواقع بعض ما يدور في خياله، لا أستطيع أن أفصح لك أكثر من ذلك.

- لا بأس، ولكن أبعث لي بالتفاصيل كي لا أتوه أو أخطئ.

- لا تخف، والأفضل أن تكلف (نيكول) بذلك، الفتاة موهوبة في البحث و التقصي.

وشعر كلاهما بالارتياح بعد نهاية المكالمة، ليس لمجرد أن المشاريع ستجد طريقها للنور بهذا التعاون، و إنما أكثر لروح الود والثقة التي بدأت تظهر بينهما، لكن (يوسف) بدا أكثر سعادة، لقد اكتشف أنه وإن لم يكن مبدعاً أو صاحب مواهب أو مبتكر اختراعات، لكنه يصلح لأن يكون راعياً أو مستثمراً أو وسيطاً في مواهب واختراعات الغير، وهؤلاء كثيراً ما يجنون من المال أكثر من صاحب الموهبة ذاته!

أما (جوزيف) فكان ينتظر ما طلبه من (يوسف) من أغراض بفارغ الصبر، وربما أكثر من لهفته على نجاح قصته، فقد حانت ساعة الانتقام لكرامته التي أهدرت في موقف مركبات الأجرة، وأيضاً لإحداث بعض التغيير فيمن حوله!



## (٤١)

هل يمكن للإنسان أن يتعلم أو يكتسب معرفة و هو نائم؟  
تمنّت (سالمة) ذلك .

فهي طوال اليوم وفي كل يوم تستقي علماً أو معرفةً أو خبرةً جديدين، لقد اكتشفت أن المعرفة ليست محصورة بين دقات الكتب أو في صفحات الإنترنت أو داخل قاعات المحاضرات .

الحياة نفسها خبرة، وهي لم تختبر من قبل إلا حياتها المحدودة التي كانت في رشيد، و لم تختبر إلا نوعيات أناسها المعدودين .

لكن هنا - قالت (سالمة) - أمواج من البشر بأطياف وألوان أكثر ثراءً وتنوعاً من كل شخصيات مسرح شكسبير التي قرأت عنها، وتعقيدات في الحياة أكثر إحكاماً من العقدة الجوردية؛ تلك العقدة في الحبل والتي لا يمكن حلها إلا بقطعها بالسيف .

لذلك كان (جوزيف) بالنسبة لها صندوق الدنيا الذي رأت من خلاله كل هذه الدنيا ومفتاح الحضارة الغربية عرابة كل هذا التغيير الذي حدث في العالم .

كانا يتهاقنان كل يوم و يزورها أحياناً في الجامعة، و كانت لا تملّ وهو يحكي لها بالساعات عن رحلاته في كل أرجاء الدنيا، وكان هو يستمتع بأن يحكي كل ما لديه .

وكانت (سالمة) بالنسبة ل (جوزيف) - دارس الأنثروبولوجيا وعاشق السفر- بمثابة الكنز؛ تأشيرة سفر للماضي بلا تزوير، وكتاب مفتوح عن الماضي وملئ بتفاصيل لن يجدها في أي كتاب تاريخ...

- كيف استطعتم اختراع كل تلك الاختراعات في ذلك الزمن القصير؟
- كيف كنتم تقومون بكل الأعمال يدويًا وكنتم تنتقلون بدون مركبات آلية ومع ذلك كان لديكم وقتٌ أكثر منا؟
- كيف تحتملون حياتكم بهذا الضجيج والتوتر والإيقاع السريع؟
- بل كيف ستحتملين أنتِ أن تعودي للماضي البدائي؟
- وكثيراً ما يدور بينهما الجدل عن تفاصيل و مفارقات حياتهم:
- لا أتصور أن يتقبل الإنسان فكرة أن يكون لديه عبيد وجواري.
- حال العبيد والجواري أيامنا أفضل من حال بعض عمال وعاملات اليوم.
- لكنهم على أي حال عمال أحرار؛ يستطيعون ترك الوظيفة لغيرها في أي وقت.
- ولماذا لا يفعلون؟ بل عندما تقهرهم ظروف العمل فلماذا يكتفون بالتظاهر أو الإضراب؟
- هل تساوين بين العبودية وقهر الحاجة للعمل؟

- لا طبعاً، لكن كلاهما قهراً، وأي قهر لا يمكن التخلص منه فهو نوعٌ من العبودية، بالضبط مثل من تسمونهم الرقيق الأبيض هذه الأيام؛ هنَّ أشدُّ بؤساً بمراحل من الجواري في أيامنا.
  - لا زلتِ تصرين على التقليل من قيمة الحرية، أنا أرى أن ققط الشوارع وعصافير الأشجار أوفر حظاً ممن يتم اعتقالهم في أقفاص البيوت.
  - و لو خيرت قط البيت لما اختار الشارع، ولو خيرت جارية الأمس لما اختارت أبداً حال بائعات هوى اليوم... مَنْ مِنْ جواري اليوم تمتلك حق الاختيار؟ من منهن تستطيع أن تقول لا؟ جارية الأمس لرجل واحد وجارية اليوم تفشل في إحصاء من عاشرتهم في أسبوع واحد، جارية الأمس لها حق الرعاية في مرضها وكبرها بينما جارية اليوم تنتهي حياتها يوم انتهاء صلاحيتها كسلعة.
  - لكن من تسمينهن جواري اليوم يملكن الأمل على الأقل في غدٍ مختلف، ومنهن من تصبح مليونيرة.
  - وكثير من جواري الأمس كنَّ يعشن حياة الأميرات.
- وهكذا من موضوعٍ لآخر وكلُّ منهما يريد أن يغترف من الآخر كل ما يستطيع عن زمنه وطريقة حياته، لكنَّ ما أدهش (جوزيف) هو ذكاء (سالمة) واستعدادها الفطري للتعلم، إنها تقرأ الموضوع الذي تهتمُّ به فتفهمه وتتنه بل وتحفظه فلا تنساه.

ومن وقتٍ لآخر تثار بينهما المناقشات لكنها لا تصل أبداً إلى حدة الخلاف:

- أنا أظن أن نقص العلم هو ما جعل أيامكم أيام إيمان، بينما يتراجع ذلك الإيمان مع ثورة العلم والمعرفة.

- هل أنت ملحد؟

- كنت ملحداً يوماً، لكن الاكتشافات الحديثة لمدى التعقيد الرهيب الذي عليه الجينوم البشري والدقة البالغة في انفجار وظهور الكون ثم استمراره بهذا التوازن العجيب وبهذه الدقة المدهشة، كل ذلك جعلني أستسلم لفكرة جوب وجود عقلٍ جبار ويدٍ قادرة وراء كل ذلك... لكن من يدري؟ فقد يصل العلم إلى تفسير مقنع يقف وراء كل ذلك دون الحاجة لوجود إله، وعلى كل الأحوال أنا وإن كنت سلمت بوجود الإله لكني لا أؤمن بصدق الرسالات والأديان.

- ولماذا لا تؤمن بالرسالات؟ هل يخلق الإله عبده ثم يتركهم و شأنهم؟

- ولماذا يترك الخالق كل ذلك الشر والظلم يفتك بمملكته؟ لماذا لا يتدخل ويكتفي بإرسال رسلٍ لا يوجد دليلٍ جازمٍ على صدق رسالتهم.

- ولماذا إذن تبعهم الناس؟ إن الإيمان في فطرة الإنسان.

- بالضبط كما قلتي، هو شيءٌ فطري و غريزةٌ بدائية، لكنه ليس دليلاً على صدق أصحاب الرسالات.
- ولماذا يدعي الرسل ذلك؟ ما الفائدة التي سيجنونها من وراء ذلك وطريقهم كله كان أشواكاً وأذية؟
- الخلود! سيستفيدون الخلود في التاريخ، هذه شهوة أقوى من كل الشهوات عند طالبي الشهرة والتخليد، في سبيلها يتحملون كل عنت وأي أذى.
- ومن أين أتوا بكتبهم و تعاليمهم؟
- من كتب و تعاليم من قبلهم.
- ومن أين أتى من كانوا قبلهم بتعاليمهم، بل وكيف استقى الإنسان أصلاً علومه منذ البداية؟
- بالتطور التدريجي؛ بدأ الإنسان بدائياً يلتقط ثمار الأشجار ثم تعلم الصيد ثم الزراعة واستقر على ضفاف الأنهار، لينشأ فكره وتتطور معارفه؛ بدائية جداً في أولها ثم عبر أجيال سحيقة تطورت علومه رويداً رويداً، مع حدوث بعض الطفرات التي كانت تنقل البشرية نقلة نوعية كاختراع العجلة مثلاً أو اكتشاف الكهرباء.
- و ما الدليل على ذلك؟ ما الدليل أن الإنسان نشأ بدائياً ثم علّم نفسه بنفسه

- الحفريات القديمة و آثار الإنسان الأول، بل حتى يومنا هذا لا زالت عشرات القبائل حول قارات العالم تعيش هذه الحياة البدائية؛ مثل (السينتال) وشعب (الرووك) في جزر آسيا و(يانومامي) و (الآوا) في غابات الأمازون و ( هادزا) و(الهيما) في إفريقيا، وغيرهم وغيرهم، بل كان أهل قارات بأكملها بدائيين تماماً وقت اكتشافها مثل أستراليا، وهكذا كنا نحن أيضاً مثلهم بالتأكيد .

- هذا دليل على عكس كلامك!

- رد جوزيف باستغراب:

- وكيف هذا؟

- أن تكون هناك عشرات القبائل لا زالت تعيش البدائية، فهذا دليل على أن الإنسان لا يمكن أن يعلم نفسه بنفسه، وإلا لما استمر هؤلاء عشرات القرون لا يتعلمون شيئاً ولا يتقدمون خطوة واحدة للأمام، ومعنى انتشارهم و وجودهم في معظم قارات العالم بل إن هناك قارات بأكملها كانت بدائية حتى جاءها الغزاة والفتاحون فهذا دليل أن ذلك هو الأصل في الإنسان بدون استثناءات؛ لا بد أن هناك من يبدأ بتعليم الإنسان - أي إنسان - يأخذ بيده ويضع قدميه على أول الطريق ثم يكمل التلميذ مشواره وإلا لبقى بدائياً كحال كل هذه الشعوب البدائية، ويكون السؤال الصحيح هو: من علم الإنسان أول مرة؟

وسكت (جوزيف) متأملاً، لقد صدمه منطلق (سالمة) رغم بساطته.



احتار (جوزيف) - بعد أن وصله الطرد من (يوسف) - بأيهما يبدأ؟

بتطفيش مؤذن المسجد قبيح الصوت؟

أم بتأره مما حصل له في موقف الأجرة؟

واختار أن يبدأ بتأره حتى يبرد قلبه، ولأنه أيضاً يحتاج لمعاونة شخص معه في خطته تلك، وليس أمامه إلا (سعيد) الذي تألم وثار جداً وقتها لكن لم يكن بيده حيلة، كما أنها فرصة ل (سعيد) كي يرد الجميلة وهو يظنه (يوسف) الذي فتح له باب الأحلام في أرض الأحلام...لن يتورع (سعيد) عن مساعدته بأي شيء مهما كان جنونياً... فغر (سعيد) فاه وقال (لجوزيف):

- لن أسألك من أين أتيت بهذه الفكرة يا (يوسف) رغم أنني ككيميائي لم أكن لأقترح عليك بأخبت منها، ولكن سأسألك من أين أتيت بمكوناتها؟

رد (جوزيف) وقد توقع كل الأسئلة التي قد تخرج من شخص ملاح و متشكك (كسعيد):

- الفكرة يسهل الحصول على أمثالها ببعض الصبر في البحث على الإنترنت، وهناك أشرار لكن خدمون مستعدون للتطوع

بإسداء النصائح، أما المكونات فالبركة في ذلك الأمريكي (جوزيف)؛ هناك في أمريكا يمكنك الحصول على كل شيء.

- لكن ما الذي يدفعه لشراء تلك الصبغة لك؟ صبغة كتلك تتحمل درجات حرارة احتراق عالية جداً بالتأكيد غالبية جداً.
- ربما يرد لي بعضاً من ثمن السبحة التي اشتراها بنصف ما تستحق من ثمن.

هز (سعيد) رأسه كمن يفكر:

- لقد توطدت علاقتك كثيراً به رغم أنها مجرد سبحة اشتراها منك، لكن الغريب؛ أي عقل شيطاني أصبحت عليه يا (يوسف)؟ أكاد أراهن أنك من زرعت تلك الرائحة الكريهة في شقة (أبو سهير)!
- أياً من كان فعلها فقد نال (أبو سهير) ما يستحقه، والآن اجهز فمعدنا الليلة للانتقام.

الخطة بأن يتسلل (جوزيف) و (سعيد) لحوش ذلك الرجل الذي يشتري بعض الجازولين والديزل (البنزين والسولار) من عربات الشركات الناقلة له و يخزنه عنده؛ ليبيعه لسائقي الأجرة في ذلك الوقت الذي تفاقمت فيه أزمة الوقود، سائقو الأجرة مستعدون لدفع ضعف ثمن الوقود ولا تتوقف مركباتهم.

عبوات من شراب الذرة السائل سيفرغونها - (جوزيف) و (سعيد) - في الخزانين، الكل يعرف مفعول السكر عند إضافته للجازولين، لكن الحرفة أن تضيف ذلك الشراب الغير معروف هنا والذي يؤدي نفس مفعول السكر، و الأكثر حرفة أن الكثير يعتقد أن تأثير السكر ذلك لا يحدث عند إضافته للديزل أيضاً، وهذا أيضاً جزء من الخدعة.

وزيادة في التمويه - و في الإثارة أيضاً - سيضيفان تلك الصبغة الحمراء الباهتة اللون و التي لن تحترق بسهولة في المحركات لتخرج مع العادم بلونها الأحمر المرعب.

أخذ (جوزيف) يتخيل مشهد السائقين و الركاب بل و المارة وهم يشاهدون تلك الألوان تخرج مع العادم مع فرقعات مهولة تصدر من محركات السيارات!

وقبيل الفجر تجمع السائقون لتموين سياراتهم في الخفاء، ولتمويه قرر (يوسف) أن تمر مركبته بنفس التجربة!

لو تخلف عنهم فستتجه بعض أصابع الاتهام إليه، لذلك سيخوض التجربة معهم لكنه سيوقف مركبته مع ظهور أول بوادر تلك الحفلة من التوكتوك.

وبالفعل وقف (جوزيف) يتفرج على الألعاب النارية تخرج أصواتاً وألواناً من سيارات الأجرة، ويعاين الصياح و الفزع الذي ملأ شوارع المنطقة كأنها منطقة كوارث، وتمنى أن يكون ذلك الشرطي الذي وشى به مالكاً أو مشاركاً في سيارة من السيارات المتضررة بشدة.

ولم تأت الظهيرة إلا وكأن القيامة قد قامت ليس في الحي فحسب، بل في الشوارع البعيدة التي خرجت إليها سيارات الأجرة تلك، وسارعت الشرطة بالتحفظ على كثير من تلك السيارات، بل وداهمت ذلك الحوش الذي ملأ منه السائقون خزانات سياراتهم وقبضت على صاحبه.

وملأ رجال الشرطة السرية موقف السيارات و أنحاء الحي...

واختفى (بعليكة) ورجاله من المشهد... لا بأس، فلم يأت دور الانتقام منه بعد!

وفشل الميكانيكيون في تفسير ما حدث، لكن المركبات التي تحفظت عليها الشرطة ستخضع لفحص طويل.

وجاهد (جوزيف) في تمثيل دور المتألم لمركبته، ونجح في إخفاء مشاعر الفرح بالانتقام التي ملأت قلبه.

وملأت صيحات الألم وندب انقطاع الرزق بيوت أصحاب وسائقي المركبات المتضررة، وبسببها تحول الفرح في قلب (جوزيف) إلى غصّة، وللمرة الثانية تظهر معاني القدر واللطف، إذ لم يقع ضحايا لانتقامه المجنون، وتزاحمت عشرات الأفكار في عقله حول الجريمة والعقاب والمجتمع والفوضى وأحكام الفقر والفساد والقدر والاختيار، فقرر أن يستغل كل تلك المشاعر و يفرغ كل ذلك التضارب في أوراقه ورسوماته.

وأرقت نظرات (سعيد) اللائمة والنادمة في نفس الوقت، والذي طفرت من عينيه تساؤلاتها؛ من أين أتيت بهذه الأفكار الشيطانية

يا (يوسف)؟ صحيح أنني أعذرک في انتقامک، لكن هكذا؟ ليس هذا (يوسف) الذي أعرفه.

لا بأس... قال (جوزيف)، فلا يلبث (سعيد) أن يطير إلى أرض أحلامه.

والآن لا بأس من بعض المرح مع مؤذن المسجد!



هذه المرة سوف أعمل وحدي، لن يوافق (سعيد) على العبث مع المؤذن، سيظن أنني أستخف بالشعائر بينما أنا لا أريد إلا الإصلاح، وبرغم أن الكل هنا يجمع على النفور منه ومن صوته إلا أنه يأبى أن يرحل ويترك إقامة الشعائر لمن هم أفضل منه... صندوق النذور في المسجد له سحره، والناس هنا لا تحب إحراج أحد.

لكن ليس أنا!

طالما سأكمل العام هنا فلا بد أن أكون إيجابياً... ولا بأس أيضاً من بعض الكوميديا!

وهكذا اشترى (جوزيف) ميكروفوناً مطابقاً للذي يؤذن فيه الرجل، واختلى به في حجرته وأعمل فيه أدواته، فقام بزرع كبسولة غاز أكسيد النيتروز فيها وأوصلها بالأسلاك الداخلية، المفترض أن تتفتق هذه الكبسولة الصغيرة عند توصيل الكهرباء بالميكروفون... والآن حان أوان تبديل الميكروفونين!

اختار (جوزيف) أذان العشاء لتنفيذ خطته، ذلك أكثر أذان مشهود بين أهالي الشارع، والمسجد لا يغلق بين صلاتي المغرب و العشاء بسبب ضيق الوقت بينهما .

لا يحتاج إلا لدقيقتين يخلو فيها المسجد ليبدل الجهازين دون أن يراه أحد .

وجاء المؤذن و رفع أزرار تشغيل النظام الصوتي، وتوصلت الكهرباء بالميكروفون الجديد، واستتشق الرجل ذلك الغاز عديم اللون، وبالطبع لن يستطيع تمييز رائحته لأنها أول مرة يشمه .

وما كاد الرجل يبدأ أذانه حتى ظهر المفعول الفوري لذلك الغاز... وبدأ المرح!

أخذ الرجل يضحك بهستيريا في البداية، ثم أمسك بالميكروفون وأخذ ينشد:

نحن غرابا عك!

ثم أطلق زغرورة طويلة وأخذ بعدها يعيب في زوجته ويصف ضاحكاً مساوئها .

لم يترسل الرجل في نوبته، فقد اقتحم المسجد سكان الشارع الغاضبون وأزاحوا الرجل عن الجهاز وهموا بالفتك به، لكنهم تجمدوا عند مظهر الرجل...

لأول مرة يشاهدون إنساناً وعيناه تدوران في مقلتيهما بالفعل .

والرجل يؤكد لهم أنه عصفورة و لكنه لا يدري لماذا تفشل محاولاته  
للطيران.

وأخذ الناس يحوقلون و يضربون كفاً بكف، و (جوزيف) يقف  
وراءهم يكتم ضحكاته.

ودخل إمام المسجد مسرعاً، وبعد أن استوعب الصدمة قرر  
التصرف و صرف هذه الفوضى، فأمر بعض الشباب باصطحاب  
الرجل إلى المستوصف القريب.

لا بأس...قال (جوزيف) لنفسه، فلن يلبث أن يفيق الرجل من  
تأثير الغاز و بالطبع لن يعود للأذان ثانية بعد اليوم.

وأفاق (جوزيف) على صوت الإمام يخاطبه:

- هيا أذن للعشاء يا (يوسف)!

- ماذا!!

- ماذا دهاك يا (يوسف)، لقد كنت لا تتقطع عن الجماعة حتى  
أخذك منّا ذلك التوكتوك، و كنت تؤذن أحياناً عندما يتأخر المؤذن، هيا  
أنقذ الموقف و ذكرنا بأذائك الجميل.

وأسقط في يده و لكن لم يجد بُداً من الانصياع، فبدأ يؤذن،  
والغريب أن خرج الصوت جميلاً من حنجرة (يوسف)، والأغرب أن  
(جوزيف) وجد نفسه يجودّ في الأذان ويحاول مطابقته لأذان جامع  
عمرو بن العاص الذي أعجبه، ودهش أن المقام الموسيقي الشرقي

للآذان كان يخرج من قلبه وليس من حنجرتة فقط، بل انتبه أن كلمات الآذان تصلح لأن تطبق عليها المقامات الغربية أيضاً.

وبعد الآذان سرح في قصته و أخذ يطابق مقالبه تلك كي يضعها في قصة فيلمه، حتى أفاق ثانية على الإمام وهو يناوله مفتاح المسجد ويقول له:

- خذ المفتاح مؤقتاً حتى نتدبر مقيماً آخر للشعائر، ولا تنس أن تحضر لتؤذن للفجر!

وقبل أن يفيق من الصدمة قال له الإمام:

- هل لديك استعداد أن تحل أنت محل المؤذن القديم؟



## ( ٤٢ )

أنهى (يوسف) الكثير من الإجراءات طوال الأسابيع الماضية؛ أرسل مشروع فيلم ( جوزيف ) إلى شركة Pixar وبالفعل لاقت الفكرة ترحيباً ووجد المشروع طريقه للدراسة ومن ثم التنفيذ مما جعل خط الاتصال مفتوحاً بين (يوسف) و (جوزيف) للرجوع إليه في كثيرٍ من التفاصيل والتعديلات، ولاستكمال مسودته النهائية بعد إضافة بهاراته و مقالبه!

وأحس وقتها يوسف أن نسبة ال ١٠٪ مالٌ حلالٌ قد تعب في مقابله .

وفي أثناء ذلك أنهى إجراءات استقدام صديقه (سعيد) إلى أمريكا والذي كاد أن يتوقف قلبه من الفرح بقرب خروج مشروعه إلى النور، وأين... في أمريكا ذاتها .

ولم يندم يوسف على وجود (نيكول) إلى جواره، لقد قامت بدور السكرتيرة في كل ما سبق، وكما قامت بتوفير طلبات مقالب جوزيف وهي تستغرب منها، فقد أنهت إجراءات كثيرة لم يكن (يوسف) ليعرف كيف ينجزها بمفرده، فقامت بالتواصل مع شركات الأدوية لتتبنى إحداها تجارب عقار (سعيد)، و قامت كذلك بتخليص كل الأمور الخاصة بمشروع اللوف وبدأت الطلبات تأتيهم من الفنادق ومراكز التجميل إعجاباً بالفكرة .

وعرض عليها (يوسف) صراحةً أن تقوم بدور السكرتيرة وبراتبِ ودوامٍ كاملين بما في ذلك تديير الكثير من شؤون البيت الواسع، وأصرت هي على أن يخصم من راتبها ثمن إقامتها:

- لسنا حبيبين حتى أقيم عندك، اعتبرني أؤجر غرفة عندك في شقتك الواسعة، يكفي أنك استضفتني تلك الفترة حتى عرضت عليّ ذلك العمل.

قالت (نيكول) ثم أكملت وهي تضحك:

- إنه عملٌ رائع أن تختصر زمن المواصلات فالبيت هو مكان العمل، بل إن مشواري للعمل أقصر من مشوارك، أنا أخرج من غرفتي إلى غرفة المكتب الملاصقة لها بينما تضطر أنت لنزول درجات سلّم الطابق العلوي.

لم يحدث بيننا أي شيء...قال (يوسف) لنفسه.

أنا لم أحاول و هي أيضاً كذلك.

إذا كنت أنا تمنعني توبتي عن أخطائي التي حدثت منذ ارتديت جسد (جوزيف)، فما الذي منعها هي؟  
الحياء؟ لا أظن.

فلا حياء هنا في الجنس.

الجنس عندهم مثل الطعام...من يجوع يطلبه بلا حرج.

ولكن له آدابه كما للطعام بالضبط .

كل ما تخبرني به ذاكرة (جوزيف) أنه و (نيكول) لم يكونا أبداً إلا أصدقاء، لكن ذاكرته تخبرني أيضاً أنهما لم يمكثا من قبل وراء باب مغلق ولأسابيع طويلة كما يحدث الآن، لا أظن أن الشيطان في أجازته السنوية هذه الشهور .

أحياناً تلمع عيناها لمعةً غريبة و نحن نتحدث، وأحياناً يحلو لإبليس أن يناقش معي تفاصيل بعض مفاتها، لكن (أحياناً) الأولى لم تتزامن أبداً مع (أحياناً) الثانية . فعلاً...الجنس إحساس مشترك وهذا أحلى ما فيه وأصعبه في ذات الوقت .

الغريب أن ذاكرة (جوزيف) تخبرني كذلك أنه كثيراً ما اشتهاها في نفسه لكنه لم يحاول معها أبداً، هذا الخبير اللعين يعرف أنها ليست فتاة العلاقات العابرة أو الليلة الواحدة، هي فتاة مستقيمة بمقاييسهم هنا! هي إما زوجة وإما حبيبة مخلصه حتى يتم الزواج، لكنها أبداً ليست من أهل التذوق العابر...وهذا مالا يريده (جوزيف).

لكن لماذا تحلو لها الإقامة هنا في الشقة؟ هل صحيح ما تقوله أن ذلك أوفر تكلفةً لي و لها إذ نقسم النفقات؟ هل خوفها من الوحدة ومن مصير (مدام مارجریت) جارتها السابقة هو ما يمنعها من إيجار شقة أو غرفة مستقلة لها؟ هل تنتظر زوجاً أو حبيباً جديداً كي تنتقل للإقامة معه كما ألمحت لي ذات مرة؟ لكنها قالت لي كذلك أن جدار ثقتها في الرجال قد انهدم بسبب (جيمس) ومن الصعب بناؤه من جديد .

بيدو أنني سأورث لك شريكة في المنزل يا (جوزيف)!

وسحبه صوت (نيكول) من أفكاره وهي تقول له:

- هيا يا (جوزيف)، سوف نتأخر على المصري (سعيد).

وأفاق (يوسف) على كلماتها، لا بد أن يذهب الآن إلى المطار لاستقبال (سعيد) كي يخطو خطوته الأولى في أرض تحقيق الأحلام.



وصلا المطار وخرج (سعيد) إليهما يدفع عربة فوقها حقيبة واحدة، وابتسم (يوسف) وهو يراهن أنه يستطيع تخمين كل ما تحويه هذه الحقيبة؛ جانب منها للملابسه التي يحفظها جيداً بما فيها مناماته، وسيحتل جزءاً آخر منها التموين الغذائي الذي بالتأكيد أصرت عليه والدته أن يصطحبه معه كأنه ذاهب إلى الصحراء، في حين ستشغل أوراقه ومراجعته الجانب الباقي من الحقيبة.

وصافحه (سعيد) وأخذ يشد على يديه ويهزها في قوة وفرح، وكاد (يوسف) أن يحتضنه أو أن يصارحه: إني أنا صديقك (يوسف) فلا تبتئس ممن خذلوك، لكن أسرها (يوسف) في نفسه ولم ييدها له واكتفى بالابتسام وهو يرى الابتسامة التي غابت عن وجه (سعيد) لسنوات تعود إلى وجهه من جديد: الآن أصبح لك من اسمك نصيب بعد أن كنت رمزاً للحزن والاكئاب... قال (يوسف) لنفسه.

وطوال الطريق و (سعيد) يحاول جاهداً أن يشرح بعضاً من تفاصيل فكرة اختراعه، وللمرة الألف يسمع منه (يوسف) حديثه عن الدوبامين، و أن عقاره يعمل على المخ فيمنعه من تعطيل مستقبلات الدوبامين، إنه يعالج الغرق في الدوبامين بمزيد منه! فيزهده المخ مع الوقت مخدره الذي أدمنه.

وبعد أن أحس (سعيد) أن (يوسف) و (نيكول) قد شردا منه في التفاصيل العلمية والكيميائية للعقار، غير حديثه إلى شكرهما على استضافتهما له في بيتهم، إذ سيقم (سعيد) معهما ولكن في الطابق العلوي في غرفة مجاورة لغرفة (يوسف):

- لا داعي للشكر فهذا جزء من التمويل.

قالت (نيكول) ثم أكملت:

- وإذا كان ولا بد من المجاملة فأشكر (جوزيف) وحده فأنا سكرتيرته فقط .

ولاحظ يوسف أن لغة (سعيد) الإنجليزية كانت أفضل كثيراً وهو يشرح اختراعه منها وهو يتحدث في الأمور العادية، ولم يتمالك نفسه من الضحك عندما قال (سعيد) (لنيكول) بدهشة:

- وأنتِ تقيمين معه في نفس الشقة؟



## ( ٤٣ )

ليس فأراً واحداً بل عائلة فئران مجتمعة تلعب في صدري... قالت  
(كوليت) لنفسها .

(نواف) يسافر فجأة وهو متغير ويودعني وداعاً بارداً لم أعتده  
منه حتى ونحن متخاصمين...

ليس فقط يعاملني من بعدها بفتور بل و يتجاهل بعض مكالماتي  
على غير العادة بحجة أنه مشغول...

أُحس أنه لا يتذكر كثيراً من تفاصيل حياتنا، فكلما حدثته في  
الهاتف عن أمر من أمور الماضي أو ذكرى من ذكرياتنا أجده يتلعثم  
قليلاً ثم فجأة يتذكر ويبدأ في مجاراتي في الحديث؛ لم اعهد (نواف)  
لا ضعيف الذاكرة ولا شارد الذهن هكذا .

أنا كأي أنثى تمتلك الرادار الذي ينبئها بفتور زوجها عنها، وما  
فيه (نواف) ليس فتوراً بل تغيراً غريباً لا أعرف له توصيفاً دقيقاً .

أما الفأر الآخر فهو من زوجته (نوف) التي صارت فجأة تكثر  
من الاتصال بي و تعاملني بودٍ غير معهود، وتسألني عن أخباري وعن  
أحوالي وأنتنا ينبغي أن نوطد علاقاتنا ببعضنا وأن نتعامل كأسرة واحدة  
حميمة العلاقات بل وتريد أن تزورني في بيروت...

وتطمئن أحياناً على أحوال العمل عندي...

وهذا هو الفأر الثالث...

منذ متى و (نوف) تتدخل في العمل، بل كيف أدخلها (نوف) في أعماله هكذا فجأة بعد أن كان يرفض عملها رفضاً قاطعاً معتبراً ذلك الرفض مسألة مبدأ، بل حتى عندما نصحته أن يدع (نوف) تعمل فتتلمذ بذلك المشاكل بينهما ثار و اتهمني بالتواطؤ معها، واتهمني في نفس الوقت أنني أريد أن أخرب فيما بينهما - الاتهامان في نفس الوقت لست أدري كيف؟

الآن (نوف) ليست فقط تعمل بل تشارك (نوف) في العمل ذراعاً بذراع...دواماً بدوام...قراراً بقرار في مكتب دبي الذي انتقلا إليه فجأة، وهذا هو العضو الرابع في أسرة الفئران تلك.

حتى صديقتي (جويل) التي توسطت لها عند (نوف) لتعيينها في مكتب دبي تقول لي:

- مستر (نوف) تصرفاته مختلفة بعض الشيء، والأغرب أن (نوف) متداخلة في أمور العمل و كأنها تعرف كل الخيوط منذ البداية، هناك شيء غريب فيه، حتى مشيئة السريعة المشهور بها صارت بطيئة.

(نوف) كان لا يفوت شهراً - أو شهرين على أكثر تقدير - دون الحضور إلى بيروت، الآن صار يتهرب من المجئ إلى هنا و يخترع في ذلك حججاً مختلفة يصعب أن تتجمع كلها وراء بعضها بهذا الشكل. مرت على زيارته الأخيرة تلك حوالي ستة أشهر، وكلما ألمحت له في الهاتف باشتياقي إليه يحول الكلام إلى موضوع آخر، حتى صارحته ذات مرة:

- (نوف) يجب أن تحضر إلى بيروت، هناك أمور مهمة في العمل تحتاج لمباشرتك الشخصية.

- البركة فيك أنتِ يا (كوليت)، أنتِ أدري مني بكل التفاصيل وأنا أفوضك في اتخاذ أي قرار.
- هناك عقود تحتاج لتوقيعنا المشترك نحن الاثنين كما تعلم.
- يمكنك إرسالها لي وأنا أوقعها وأعيد إرسالها لك من جديد.
- أفهم من ذلك أنك ما عدت تشناق إلى بيروت؟
- لا طبعاً، من قال هذا، أنا فقط مشغول جداً وسأحضر في أقرب فرصة.
- متى إذن؟ لقد مضى عليك ستة أشهر لم أرك فيهن.

رد بفتور:

- اصبري قليلاً...هانت!
- ولأنني لم أعتد أن أكون امرأة ضعيفة...
- ولأنني لا أطيق الحيرة والتوتر...
- ولأن ليس من رأى كمن سمع...
- ولأن لي في (نواف) مثلما لـ (نوف) بالضبط...
- فقد اتصلت به:

- (نواف)؛ أنا في المطار قادمة إلى دبي!



## ( ٤٤ )

حمدت (سلمى) ربها أن تراجعت في الوقت المناسب، لو كانت استمرت في طريقها قليلاً لقاطع مجلسها الرفضات ولمنع عنه الباقيات من آبائهن و أزواجهن، و لربما اشتكى الرجال إلى والدها و أن (سالمة) تحرض النساء فتكون العواقب وخيمة أهونها أن يمنعها أبوها عن هذه المجالس أصلاً.

أدركت (سلمى) أنها تسرعت كثيراً وأنها ما كان ينبغي لها أن تصادم المجتمع بهذا التعجل، ماذا تصنع؟ فليس أمامها إلا بضعة أشهر كي تقول كلمتها قبل أن تمشي.

لابأس...ستعود إلى بعض السكوت في المجالس وإلى الاكتفاء بالقصص الشيقة فيها، حتى عادت النساء يطالبنها من جديد بأن تقص عليهن ما يفتقدنه من حكاويها.

ستبدأ (سلمى) الطريق الطويل، طريق غرس المغزى من القصة في اللاوعي عندهن، و هكذا أخذت تسترد ما فقدته و عادت مجالسها للازدهار من جديد و للانتظام كما الأول.

لكنها أحست أنها لا تتقدم أي خطوة، إنها تزرع أشجاراً لا تنمو ولا تثمر إلا في سنوات طوال، اغتاضت (سلمى) كثيراً لما أحست بالعجز، كيف استطاع إذن دُعاة و دَاعِيَات التتوير و التغيير الذين قرأت عنهم أن ينجزوا ما أنجزوه؟

وتجمعت فوق رأسها كل سحب الحيرة والغيظ والإحساس بالعجز،  
حسناً؛ لنجرب شيئاً جديداً ...

قالت (سلمى) لنفسها ...

سأقترح على الحاضرات أن أمحو أميَّتهن و أعلمهن، هذا أمر لن  
يعترض عليه أحد، بالذات تلك المرأة العجوز (خضرا) التي تحرص  
على حضور كل مجالسي و تكتفي بالصمت المطبق مصحوباً بنظرات  
غير مريحة لدرجة أنني أحس أنها أحد المخبرين...أو بالأصح إحدى  
العسس!

تفاجأت (سلمى) أن كثيرات لم يتحمسن لفكرة محو الأمية تلك  
واعتبرنها تحصيل حاصل و أنهن يفضلن ألا يضيعن وقت المجالس فيما  
لا يفيد! لكن (سلمى) لم تيأس و اكتفت باللاتي تحمسن وبدأت معهن  
فصول محو الأمية و غالبيتهن كنَّ حديثات السن.

لكن (سلمى) استغربت أن (خضرا) حرصت على حضور كل  
فصولها بجانب مجالس حكاويها، و اكتفت أيضاً بالحضور الصامت،  
والأغرب أن (سلمى) أحست أن (خضرا) ليست بحاجة إلى أي محو  
أميَّة، أحست أنها مدربة جيداً على ما تكتبه و ليست مرتبكة كباقي  
النساء والفتيات اللاتي تعلمهن، إنها تعرف جيداً كيف تمسك القلم  
وكيف تخطّ الحروف بل والكلمات ولا تحاول حتى أن تمثل أنها أميَّة.

لو كانت دسيسة لحاولت على الأقل أن تتظاهر بالأمية وأن تحاكي  
الفتيات في غشوميتهن، وبدأت (سلمى) تشعر بالريبة تجاهها، وتعمدت

أكثر من مرة أن تطيل النظر في عيني (خضرا) كأنها تتعمد أن تخبرها أنها تتوجس فيها، و الغريب أن (خضرا) قابلت تلك النظرات بنظرات أكثر ثباتاً و بابتسامة كلها ثقة.

وأخذت (سلمى) تتحسس ما وراء هذه المرأة الغامضة، لا أحد يقول أكثر من أنها (شيخة) مباركة، كانت زوجة لأحد الرجال الصالحين وكان يمتلك بستاناً من النخيل ولم يرزقا سوى بولدٍ وحيد، وفي أحد مواسم الحج خرج الزوج حاجاً مصطحباً ابنه الذي كان قد ناهز الخامسة عشر وقتها، لكنهما لم يعودا مع القافلة التي كانوا فيها، ولم يعرف أحدٌ عنهما شيئاً من يومها.

واستقبلت (خضرا) الصدمة بصمت عجيب، وصارت لا تتحدث إلا بالذكر والبسمة والحوقلة والحسبنة، ثم فجأة هجرت دارها التي كانت تعيش فيها واستوطنت كوخاً على ضفاف النيل، و حفظ أهل زوجها لها ميراثها من بستان زوجها وصاروا يحجزون لها ربع ريع البستان طبقاً لميراثها الشرعي، فكانت تأخذ ما يقيم حياتها حد الستر وتتصدق بباقي ريعها كله، ثم أصبحت كثيراً ما تخرج في الطرقات تتغنى بقصائد الذكر والمديح النبوي، ولا أحد يعلم من أين أتت بهذه المدائح ولا ممن حفظتها.

وارتاب بعض الأهالي فيها الجنون ولكنها فاجأتهم جميعاً بما أظهرته من كرامات، فالكل يحكى أنها ذهبت ذات ظهيرة إلى جمع من الرجال كانوا يجلسون حول طاولة إحدى المقاهي و وقفت على رؤوسهم ووجهت كلامها لأحدهم و قالت:

- يا (عبد البر) بدلاً من أن تحدثهم عما تتهمني به من الجنون  
والمس الشيطاني، اذهب وتهيأ لاستقبال ولدك من سفره.

وبهت الرجال لأن (عبد البر) هذا كان قبل قدومها إليهم يحدثهم  
همساً أنها قد مُسَّت بجنون بسبب مصيبتها، ثم ذُهِلت رشيد كلها  
بعودة ابن الحاج (عبد البر) في اليوم التالي بعد سفرٍ طويل كان فيه  
موفداً في بعثة تعليمية إلى فرنسا، وأن باخرته قد وصلت الإسكندرية  
في اليوم الذي أخبرتهم فيه (خضرا)، لكن الابن لم يصل رشيد إلا  
ثاني يوم.

ومن بعدها كفَّ الناس عن الريبة في أمرها بل صار الكل يتبرك  
بها، والكثير يحاول أن يتسقط منها خبر المستقبل أو أن يطلب منها  
رقية أبنائه، لكنها لم تكن تجيبهم إلى مطالبهم إلا بمقدار، وكانت  
أحياناً تدهشهم بالأخبار التي لا تلبث أن تقع.

وتغيرت نظرة الريبة لدى (سلمى) إلى (خضرا) لكنها أيضاً لم  
تفهم لماذا تواظب على حضور مجالسها و الانتظام في دروسها.

لذلك قررت (سلمى) ذات يوم أن تفتح حواراً معها فهي لا تحب أن  
تعيش في توتر وترقب، سوف يكون الدرس اليوم في بيت (سلمى) لذلك  
فسوف تستبقيها وقت انصرافهن و تفتح معها أي حديث.

وفوجئت (سلمى) في نهاية الدرس أن (خضرا) قد بقيت من تلقاء  
نفسها في مكانها بعد انصراف الحاضرات وجلست تنتظر لـ(سلمى) في  
ابتسام غريب، واحتارت (سلمى) كيف تبدأ الكلام معها، لكن (خضرا)  
بادرتها وقالت:

- قولي ما لديكِ يا بنيتي و لا تترددي أو تجهدي نفسك في انتقاء الكلمات.

ردت (سلمى) بعد تردد:

- لا شيء غير أنني أستغرب مواظبتك على دروسي رغم أنني أحس أنك متعلمة و لا تحتاجينها.

- لا أحد كبير على تلقي العلم يا (سلمى) ! يا ابنتي.

وبهتت (سلمى) للحظات ثم هيء إليها أنها لم تسمع الكلام جيداً، إلا أن (خضرا) قالت:

- هو كما سمعتِ بالفعل؛ (سلمى) و ليست (سائلة).

أحست (سلمى) بالأرض تميد بها تحت قدميها لكنها تماكنت نفسها وسألتها وهي تبتلع ريقها:

- ومن أنبأكِ هذا؟

- أنبأني من أخبرك في منامك بما حدث لك و لجدتك.

ردت (سلمى) في وَجَل وانفعال:

- من أنتِ؟ ما حكايتك؟ هل أنتِ معهم؟

- هوناً عليكِ يا (سلمى)، أنتِ و كل أهل رشيد تعرفون من أنا، وقد أخبروكِ عن حكايتي لما سألتهم، و لهذا كنت أوجل هذا الحديث حتى تعرفيني جيداً و لا تذهب ظنونك بعيداً كما تحاول أن تذهب الآن.

- وماذا كنتِ تريدين مني؟

- بل ماذا تريدين أنتِ بمجالسك و دروسك هذه؟

- أريد التغيير، أريد التوير، أن أعلم هؤلاء النسوة و أن أبصّرهن بحقوقهن .

-إذن فأنتِ تريدين القفز بهن للأمام قرناً من الزمان .

- قرنٌ أو بعض قرن أو حتى عقد واحد من الزمان، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت .

- وهل تظنين أن هذا طريقٌ للإصلاح؟ أعني هل تعتقدين أن ما تفعليه سيثمر أي نتيجة؟

- وهل يكون إلا بذلك؟ بالتعليم و التوعية .

نظرت (خضرا) إليها بطرف عيناها و سألتها في ثقة:

- يا دراسة التاريخ! هل يوجد تغيير واحد في تاريخ حياة المجتمعات تمّ بغير قوة تحركه؟ هل انتشرت أي فكرة بغير دافع يدفعها وسلطة تعمل على نشرها؟

فكرت (سلمى) قليلاً وكأنها تستعرض ما درسته وما قرأته في شاشة عقلها ثم قالت:

- سأختار الطريق الطويل، وحتى لو لم أوثر إلا في محيط مجتمع رشيد فهذا يكفيني .

- وهل شهورك المتبقية لك قبل عودتك تكفي كي تحققي ما تريدين؟

- اعتبريها صرخة أطلقها في البلدة، كلمتي أقولها و أمشي.

- ثم تأتي (سالمة) و تتلقى هي تبعات صيحتك و كلمتك؟ من بدأ مشواراً فعليه إكماله أو على الأقل تحمل تبعاته!

نظرت إليها (سلمى) في ارتباك و سألتها في حذر:

- وماذا تقصدين؟

أجابتها في ثقة:

- أقصد أنك إن اخترت أن تغيري الماضي فعليك أن تبقي فيه لنهاية المشوار فيكون هو حاضرك و مستقبك، والأمر إليك فانظري ماذا تختارين!

صمتت (سلمى) تفكر ثم قالت:

- و (حسن) و (برقان) هما من طلبا منك أن تخبريني بتلك الرسالة؟

- (حسن) و (برقان) هما أكثر من يريدان عودتك أنتِ وجدتك بل عودتكم جميعاً أنتم الستة.

نظرت لها في حيرة و قالت:

- لا (حسن) ولا (برقان)؟ فمن يكون إذن؟ الشيخ (البرغواطي)؟

ردت عليها (خضرا) بنفاد صبر:

- أنتِ فضولية جداً يا (سلمى) وتجهدين عقلك فيما لا يجدي،  
والأصوب أن تجهديه في تقرير مصيرك...والآن!

صمتت (سلمى) ثم قالت في غيظ:

- و هل كتب عليّ أن أبقى باقي السنة أشاهد الخطأ و أسكت  
عليه؟ أليس لنا من أمرنا شيء؟ خطوات رسمت لنا ليس لنا إلا أن  
نخطوها و لا نقدر أن نغير من مسارها شيئاً؟

- بل إن ما أعرضه عليك هو عكس ما تقولين، لكن من يغير  
مساراً فعليه أن يخطوه و يكمله.

صمتت (سلمى) ثانية ثم قالت و لكن في هدوء هذه المرة:

- وإذا اخترت العودة فعليّ أن أوقف كل ما أصنعه؟

- استمري في دروس التعليم، العلم نورٌ في كل زمان ومكان، لكن لا  
تستعجلي حدوث ما تعلمين أنه سوف يحدث لكن في وقته، وما يدريك؟  
لعله بعد أيامكم اللاتي جئتِ منها تأتي أيامٌ تستخف ما كنتم عليه  
وتعتبره عين التخلف!

وسكنت لثوانٍ ثم قالت:

- عيشي اللحظة يا (سلمى)، استمتعي بأيام قد تشكل لك يوماً  
أهم بل أحلى ذكريات حياتك.

هزت (سلمى) رأسها و همّت (خضرا) بالانصراف، فقالت (سلمى)  
و كأنها تذكرت سؤالاً خطر لها:

- سيدة (خضرا) كنت أودّ أن أسألك سؤالاً آخر.

تهتدت (خضرا) والتفتت إليها وقالت:

- تريدين أن تعري في علاقة مصيبتى بما صرت إليه، وبعدها  
تسألينى عمّن أرسلنى إليك وفوضنى أن أقول لك ما قلت.

سكنت (سلمى) ولم ترد فكل ما هي فيه استثناء مطلق لا مجال  
للاستغراب فيه، فاقتربت منها (خضرا) ونظرت في عينيها بعمق ثم  
قالت والدموع تترقرق في عينيها بغير أن تدمع:

- فأراد ربها أن يبدلها خيراً منهما وأقرب رُحماً.

ثم استدارت وانصرفت، و لم ترها (سلمى) بعد ذلك في مجالسها.



## ( ٤٥ )

الارتباك كان هو عنوان المشهد بعدما هرعت (نوف) إلى مكتب (نوف) لتقول له:

- (نوف) أدركني؛ (كوليت) اتصلت بي من دقيقة، وهي في السماء الآن تطير نحو دبي.

عشرات من الأسئلة تزاхمت عند عقليهما كلها تريد إجابة، وأبسطها سؤال: أين ستقيم (كوليت).

(كوليت) تعلم أن مكتب (نوف) يحتل طابقاً في البرج المطل على الخليج، وتعلم أنه يمتلك ثلاث شقق أخرى في البرج ويقيم هو و(نوف) في إحداها.

الرفاهية في دبي ليست أن تقيم في فيلا بل في شقة في قمة أحد أبراج هذه المدينة متعددة الطوابق، وقمة العملية أن يكون مقر عملك هو محل سكنك فتوفر ساعات مهدرة في الشارع في ساعات ذروة المواصلات.

و (كوليت) طلبت صراحةً في المكالمة تجهيز إحدى الشقق فهي في زيارة طويلة قد تمتد شهوراً.

ولكن ماذا عن بقية المعضلة؟

إن فتوراً في العلاقة قد حدث بين (نوف) و (نواف) عندما سألتها عما ينتوي فعله بخصوص (كوليت) في نهاية العام، فأجاب إجابة مائعة، فها هي (كوليت) تقفز إلى القارب مطالباً بحقها في (نواف) الذي هو الآن (نوف)!

- المطار هو الحل يا (نواف)، سأخترع أي سفرٍ أسافر فيه الآن، وتول أنت حلّ مشكلتك بنفسك.

- هل هذا معقول؟ أنتِ قلتِ أنها جاءت لتمكث شهوراً، فهل ستفريين طوال هذه الشهور؟ هل نسيتِ جدولنا المزدحم هذه الأيام؟ هناك أطنان من الأوراق ستستلزم توقيعك، بل ماذا عن (أسيل)؟ سكتت (نوف) ثم قالت في لوم:

- أنت من وضعتنا في هذه المشكلة، لو كنت قنوعاً ورضيت بالانسجام الرائع الذي حدث بعد التحول بيننا و طلقتهما لما كنا في هذا الوضع.

- هل سأقولها مائة مرة؟ كيف أطلقها و أنا (نوف) الآن وكيف ستطلقينها أنتِ و أنتِ لستِ (نواف) في الحقيقة، هذا غير مقبول لا شرعاً ولا قانوناً.

- (نواف)! هذه زوجة افتقدت زوجها المتغيب عنها منذ ستة أشهر، وجاءت لتعيش معه حيث يقيم، هل تفهميني؟ هل أحتاج لأن أشرح المزيد؟

صمت (نواف) ثم قال:

- تهربي منها، لا تتركِ فرصة للاختلاء بينكما .

سألته باستغراب:

- وحتى متى؟

- حتى نفكر في تصرفٍ جديد، أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وفكرت (نوف) مع نفسها، إن الفرصة قد جاءتْها بقدَميها حتى عندها، ستضع كلمة الطلاق في قلب (كوليت) و على لسانها، ستعود إلى بيروت رافعة راية الطلاق...

لكني لن أصفول (نواف) كأيام الصفو الأولى التي كانت بعد التحول...

قالت (نوف) في سرها:

- لقد شرخ قلبي.



## (٤٦)

- لم أكن أعلم أن الأمر سيكون مثيراً لهذا الحد؛ أن تتعامل مع إنسان تعرفه و تراقب تصرفاته و هو لا يدري عن حقيقة أمرك شيئاً.

قال (يوسف) لنفسه...

تُرى؟ لو سألت (سعيد) الآن - وهو يظنني (جوزيف) - عن رأيه في صديقه (يوسف) ماذا سيقول؟... لا... ليس لهذا الحد، يكفيني أن أراقب تصرفاته في بلاد الفرنجة كما يحلو له أن يسميها، أن أشاهد هذا الحماس الذي اشتعل في قلبه بعد أن كانت روحه قد انطفأت، أن أستمع بمراقبة تعاملاته مع (نيكول) وهو الشاب الخجول الذي كان يرتبك إذا فاجأته الظروف بأن يتعامل مع أي أنثى، فهذا هو الآن يتعامل مع (نيكول) طوال الوقت.

(نيكول) هي من تولت الاتصالات مع الشركة التي سيقوم (سعيد) بتنفيذ اختراعه في معاملها، هي من تولت التفاوض مع الشركة في طريقة التمويل وحصص كل طرف في حال نجاح العقار، وستكون هي حلقة اتصاله معهم ومع موردي الخامات التي يحتاجها عقاره، بل سيقوم معها ومعها في شقة واحدة، وكاد (يوسف) أن ينفجر ضاحكاً لما ظهر من عرق الارتباك على جبهة (سعيد) بعد أن عرف بذلك وتلغثم وهو لا يدري ماذا يقول وهل يقبل أم يرفض.

الحقيقة أن الوضع كله كان محيراً ل (سعيد) فقد فكر لماذا يُصرُّ (جوزيف) على استضافته في بيته؟ صحيح أنه سيمول تنفيذ نموذج الاختراع ولكن ذلك ليس سبباً كافياً لأن يستضيفه خصوصاً في وجود (نيكول).

ولماذا تقيم (نيكول) مع (جوزيف) أصلاً وهي سكرتيرته فقط كما قالت هي؟ هل هؤلاء الناس عمليون واقتصاديون إلى هذه الدرجة؟ أن يقيم صاحب المشروع والسكرتيرة مع الممول في بيته فيقتصدون في الوقت والنفقات؟ هل معقول أن (نيكول) مجرد سكرتيرة وصديقة قديمة (لجوزيف)؟

ليس هذا شأني على كل حال.

قال (سعيد) لنفسه ...

أنا هنا في مهمة لتحقيق نجاحي وأحلامي، وإذا أحسست بأي ضيق أو شعرت أنني خيال مآتة يتبادل العشاق قبلاتهم تحت ظلاله فسأطلب فوراً أن أنتقل إلى أي مسكن غير هذا المكان الذي يسمونه شقة وهو في الحقيقة قصر، لكنه قصرٌ (مودرن) جداً .

أخذت (نيكول) (سعيد) في جولة في الشقة، و (يوسف) يضحك في نفسه من الخجل الواضح و الطبيعي في تعامل (سعيد) معها؛ لم تكن تدعي الحياء في تعاملك معهن إذن يا صديقي ...

قال (يوسف) لنفسه ...

ثم أحس بالخجل من نفسه من سابق سقطاته.

هل ستصدقني يا (سعيد) إذا قلت لك أنني سقطت ثلاث مرات قبل مجيء (نيكول) في حين لم أذق منها قبلة واحدة بعد أن جاءت لتقيم معي في شقة واحدة؟

ورويداً بدأ (سعيد) في الاعتياد على وجود (نيكول)؛ سكرتيرة صباحاً و ديرة المنزل مساءً و مجرد صديقة (لجوزيف) طوال اليوم. وأصبحت هي تراعي مستوى المساحات المكشوفة من جسدها لِمَا لاحظته من توتر (سعيد) حيال ذلك، فامتعت عن ارتداء الشورت - بكل مستويات طوله - بعد أن كان الزي الرسمي لها في المساء.

وكان يحلو (ليوسف) أن يراقب ملامح (سعيد) في تعامله معها وكأنه يحاول أن ينفذ إلى أعماق تفكيره، إنه يعلم رأي (سعيد) المسبق في (نساء الفرنجة)، إذ لا يَراهنَّ إلا مُنحلات، لا يرتدين بل لا يعرفن ثياب الفضيلة التي لا تنسج في بلادهن أصلاً، وكان يستشيط غضباً عندما يرى إحدى سائحاتهن في حي مصر القديمة وترتدي ثياب أختها الطفلة وتريد أن تدخل بها أحد المساجد أو الكنائس الأثرية هناك.

لم يبق إلا أن تحتضن صديقها تحت ظلال المنبر...

كان يقول (سعيد) (ليوسف) و هو يتميِّز غيظاً...

لم يكف هؤلاء مؤامراتهم السياسية على بلادنا فهاهم يتآمرون على أخلاقنا وتقاليدنا المحافظة.

ألا يكتفون بتدنيس شواطئنا؟ بل و يريدون أن تظلل سحب ثقافتهم  
المنحلة سماء آثارنا ومقدساتنا؟

فماذا لو علمت يا (سعيد) أن هذه التي تتعامل معها ليل نهار  
أجهضت من حرام؟

وتمنّى (يوسف) لو رطن (سعيد) أو برطم بأي كلام عربي وسط  
حديثه مع (نيكول) أو معه حتى يفصح عن نظرتة إليهم.  
لكن (سعيد) لم يفعل ذلك لحسن الحظ...قال يوسف.

ولو فعل ذلك لما تماكنت نفسي من الضحك و لفظن (سعيد) أنني  
أفهم العربية فيتحفظ في كلامه أمامي و تضيع كل الإثارة في مراقبته.

ها هي الظروف تضع واحدة من نساء الفرنجة في تعامل مباشر  
مع (سعيد) و طوال اليوم تقريباً، حتى في ذهابه إلى معمل الشركة  
كانت هي تقوده بسيارة (جوزيف) إلى هناك، بل و تطوعت في إعداد  
برنامج سياحي له في سياتل كانت هي فيه مرشدته السياحية...  
وما أكثر الأماكن التي تستحق الزيارة في سياتل؛ عدد لا يحصى من  
المنتزهات والحدائق كلها أجمل من بعضها، لكن أكثر ما أثار اهتمام  
(سعيد) كان برج (إبرة الفضاء)، وذهل من تجربة الغداء في مطعم  
(سكاي سيتي) الرابض في قمة البرج ليطل على المدينة و على المحيط  
الهادي من ارتفاع ١٨٠ متراً.

واهتم (سعيد) بمتاحف سياتل العلمية و الفنية وهو الشيء الذي  
أثار إعجاب (نيكول) باهتماماته الثقافية، لكن ما أثار استغرابها هو

رفضه القاطع للجلوس في أي مقهى من مقاهي ستاربكس وبدون ذكر أي سبب لهذا الرفض:

- أنت هنا في عاصمة إمبراطورية ستاربكس، هل يعقل أن تكون في سياتل و لا تزور أول فرع له في تاريخه؟  
- اعذريني، فقط لا أريد ذلك.

وكثيراً ما كانت هذه الجولات تقتصر عليهما بدون (يوسف)، إذ تكون عادة بعد انتهاء (سعيد) من عمله و هما في طريقهما للعودة إلى المنزل، ساعدت هذه اللقاءات (سعيد) كثيراً على تحسين لغته الإنجليزية في المحادثات اليومية العادية بعد أن كان لا يتقنها إلا في المجال العلمي، كما ساعدت أكثر على ذوبان الجليد في نفس (سعيد) تجاه نساء الفرنجة، و بدأ يرى الجانب الآخر لهن في تعاملاته مع (نيكول).

أكثر ما أعجبه فيها أنها فتاة عملية نشيطة، لا تكتفي بأداء واجبات عملها بل تهتم بالتجويد في أدائه، فلم تهتم مثلاً بمجرد البحث عن قائمة موردي خامات اختراعه بل صرفت ساعات من وقت فراغها للاستقصاء عن أفضلهم و نوعية خاماتهم و من أين يحصلون عليها، بل اهتمت بالقراءة في الإدمان والدوبامين و كيمياء المخ، وكثيراً ما تناقشت معه أو استفسرت منه عن بعض النقاط العملية فيه...

- هل تعشقين الشكولاتة؟

- وهل توجد أنثى لا تعشق الشكولاتة؟

- وبماذا تشعرين و أنتِ تَأْكَلِينَهَا؟

- أشعر أحياناً و كأنني أطيّر فوق سحابة بنية اللون كلونها...  
بالرغبة في المزيد منها بغير توقف ، وهذه هي معركتي معها ومعاناتي  
منها.

- لكن ماذا لو وضعت أمامك أكواماً من الشكولاتة و المطلوب منك  
أن تتناولها وحدها بدون ماء؟

فكرت (نيكول) قليلاً ثم ظهر الجزع على وجهها و اقشعر جلدها  
و قالت:

- لن أستطيع ذلك بالتأكيد، سأتوقف بعد قليل منها وتعاف  
نفسي الباقي.

- هذا بالضبط هو ما يفعله عقاري...يجعل المدمن يعاف مخدره.

وبالطبع تطرقت أحاديثهم إلى خارج مجال العمل، ووجد (سعيد)  
عندها معرفة جيدة بأهل الشرق وحياتهم و أفكارهم، وإن كانت لا تخلو  
من تشويهه.

- بالتأكيد يعمل إعلامهم قصارى جهده على تشويه صورتنا ما  
استطاعوا...

قال (سعيد) لنفسه...

ورويداً تحولت محاوراتهم التي صارت تشغل جزءاً كبيراً من أوقات  
فراغهم إلى نقاش ثقافي و حضاري شرقي غربي، و أدرك كل منهما كم

التشوه في نظرة الآخر إليه، بالطبع حاول كل طرف أن يصحح هذه النظرة وأن يمسح غشاوة عدستها.

واستغرب (سعيد) أن وجد نفسه يتحاور في سعة صدر في أفكار غريبة كان مجرد إثارتها أمامه يثير اشمئزازه وحنقه، ودهش (سعيد) أنه لم يَسُب (نيكول) ولم يلعن تربيتها حين أخبرته بقصتها مع (جيمس) ولم ينظر إليها كعاهرة، بل وجد عقله يعتبرها مجرد ضحية، وحاول أن يقنعها أنها ضحية نظام فاشل في علاقة الرجل والمرأة، لكنها أصرت أنها ضحية أنانية (جيمس) وسوء اختيار قلبها له، بدليل أن بعض صديقاتها نجحن في علاقاتهن وأن منهن من تزوجت بالفعل من صديقها الحميم...

- كما تقولين؛ البعض نجحن، لكن كم (جيمس) وسط هؤلاء الرجال؟

- كثيرون للأسف، لكن ما هو البديل؟

- البديل هو اقتصار العلاقة على الزواج ولا شيء قبله.

فغرت (نيكول) فاهها وقالت في دهشة:

- هكذا مرة واحدة؟ بدون مقدمات ولا سابق تجربة؟ على أي أساس سيختار كل طرف إذن؟ ماذا لو صُدِمَ أيُّ منهما بطبع في الآخر لم يكن يعرفه؟ ماذا إذا صُدِمَ فيه جنسياً؟ صدقني معظم المشاكل الزوجية تأتي من الفراش.

- وأنتِ؟ ألم تُصدّمي في (جيمس) برغم كل هذه الاحتياطات؟

هزّت رأسها موافقة وقالت:

- للأسف صدّمت، و للأسف لا يوجد نظام اجتماعي ليس فيه سلبيات، لكننا اخترنا النظام الأكثر وضوحاً وصراحة مع النفس.

- بل قولي الأكثر لذة و إمتاعاً للنفس، ثم النتيجة كمُ الخيانات والأطفال غير الشرعيين و الأسر المفككة.

ثم أحسّ (سعيد) بفضاظة كلامه فاعتذر عن كلماته الجارحة، فردت عليه (نيكول):

- لا عليك، كلامك لا يخلو من بعض الحقيقة.

ثم أكملت و دمعة تتجمد بين رموش عيناها:

- صدقتي أنني لم أحن (جيمس) أبداً و أنا معه، ولم أكوّن في حياتي أي علاقة عابرة من علاقات الليلة الواحدة.

- أنا آسف مرة أخرى.



## ( ٤٧ )

صار (جوزيف) شخصاً استثنائياً في حياة (سالمة)...العلاقة الإنسانية الوحيدة خارج دائرة أسرته وصدقاتها، علاقة لم تستطع أن تسميها أو أن تصفها، تشعر أحياناً أنه حفيدها لِمَا بينهما من فاصل زمني، وأحياناً تراه كأنه أبوها أو جدّها لما لديه من خبرات عريضة في الحياة تتعلم منها الكثير.

وفي المقابل كانت (سالمة) كذلك بالنسبة (لجوزيف) وأكثر، الأسرة والصديق ومخزن الأسرار الذي يفضي إليه بكل أسراره و مغامراته، كان يفكر فيها أول ما يفكر بعد كل مقلب ناجح من مقالبه، و يسارع بعده إليها كي يقص عليها في استمتاع، تخيل لو أنها لو لم تكن في حياته لايجد من يحكي له مصائبه و مقالبه وأفكار رسوماته؟ كان يمكن أن يُجنّ فيها.

لا معنى للإبداع عند أي مبدع إن لم يجد من ينهر به، حتى المقالب...

وكانت (سالمة) تضحك أحياناً حتى تدمع عيناها، لكنها لامته كثيراً على حادث موقف المركبات...

- أنا أيضاً تأملت كثيراً بعدها ولم أذق النوم لعدة ليالٍ ولكن هل كنت تريدني أن أترك ثأري؟

- وهل كان ثأرك يحتاج لكل هذا الانتقام؟ ثم إنك قلت أن كثيراً من الأبرياء قد تضرروا.

- لقد فكرت كثيراً ولم أجد أي خطة بديلة للأسف، وتضايقت أن بعض من كنت أقصدهم بالانتقام لم يتضرروا بالذات هذا ال (بعليكة)، وتضايقت بالذات لما تضرر من تضرروا في أرزاقهم وبعضهم لم يشارك في أذيتي، لكنني بعد تفكير وجدت أنهم شركاء في الموقف العبثي كله، ولولا موافقتهم الضمنية وسكوتهم من البداية على تلك الفوضى والبلطجة لما كان لموقف السيارات أن يكون بهذا الشكل.

- أنت تريح ضميرك فحسب بهذا الكلام، أليس كذلك؟

- بل هي من أساسيات قوانين المجتمعات؛ الصامتون على الظلم والفوضى هم أكثر المضارين منها.

وسكتت (سائلة) و قد التمعت في ذهنها فكرة، فسألته:

- برأيك يا (جو)، في أي جانب مما حدث يقع الشر والظلم؟

- بمعنى؟

- المتضررون من انتقامك يرونه شراً وظلماً حاق بهم بينما تراه أنت العدل والجزاء فيما فعلوه بك من شر، وهذا الذي تراه شراً فيما فعلوه بك يرونه هم عقاباً عادلاً لوشايتك بهم التي يرونها فعلاً شريراً منك بينما تراه أنت فعلاً طيباً، وهكذا ستجد أن الشر والظلم الذي تشنكي وجوده في الدنيا لم تستطع في موقف صغير أن تحكم عليه حكماً مطلقاً بأنه شر.

- بل الشر عند من بدأ أول فصول ذلك المشهد العبثي، عند من سمح بوجود الفوضى في موقف السيارات و تغاضى عنها بل وتكسب منها.

- وحتى هؤلاء ستجد عندهم ألف مبرر لما يفعلونه، وستجدهم يلقون باللائمة الشر على من فوقهم، وكلما صعدت في سلم الأسباب وجدت عندهم المبررات، وحتى لو وصلت لقمة الهرم ستجد من فوقها يلقي باللائمة على من تحته و لربما ألقاها على آخرين خارج هرمه ومنظومته، وهكذا... إلخ. حتى المحتل الغاصب ستجد عنده مائة مبرر لما يفعله و يراه عين الخير و الصواب.

ضحك (جوزيف) في سخرية و قال:

- هل كي تحلين لي معضلة الشر كعائق أمام الإيمان تتفين وجود الشر أصلاً و تجعلينه نسبياً؟ ألا ترين شراً أو ظلماً في هذه الدنيا؟

- بل هو موجود بالطبع، ولكني أريك كم هو ملتبس و معقد، وحتى في حادث أنت طرفه لم تستطع منع نفسك من ظلم بعض الأبرياء و اعتبرتهم يستحقون ما حصل لهم، فما بالك إذا جئت لتقيس و تقيّم ما يحدث في العالم بأسره؟

أطرق (جوزيف) مفكراً و هز رأسه و قال:

- فلماذا سمح بوجود الشر من البداية في عالمه الذي خلقه؟

- هل كنت تريده أن يصادر علينا خياراتنا؟ هل تريد أن تكون مسيراً أم مخيراً؟

- مخيراً بكل تأكيد، ولكن لماذا يجعل تحت أيدينا كل هذا الكمّ من الشر والظلم؟ لماذا لم يقلله؟ إن لم يكن رحمة بنا فرحمة بعقولنا كي لا تطيش في إيمانها به.

سكتت (سالمة) لثوانٍ ثم قالت:

- هو عالمه وهو حرٌّ فيما يخلقه فيه، وما قد تراه شراً قليلاً قد يراه غيرك شراً كثيراً في حين لا يراه ثالث شراً أصلاً، والأهم من كل ذلك أن وجود الشر في الكون لا ينفي وجود خالقه.

هز (جوزيف) رأسه وسكت لدقيقة ثم غير مجرى الحديث وقال لها مبتسماً:

- والآن أخبريني عن آخر مغامراتك مع هذه الدنيا الجديدة عليك، أنا جاهز لتلقي الأسئلة.



- من هو (يوسف) هذا يا (سلمى)؟

هكذا سألتها صديقتها (نهى) بخبث ونظرات موحية:

ردت عليها (سالمة) وهي تحاول التظاهر باللامبالاة:

- صديق... مجرد صديق.

- وأين تعرفت عليه؟ ولماذا قطعتِ صلتكِ إذن بكل أصدقائك من الشباب؟

نظرت (سالمة) إليها في حيرة كحيرة العالم الفيزيائي (ماكس بلانك) إذا سأله طفلٌ صغير أن يشرح له نظرية الكمّ الفيزيائي...  
بالتأكيد أنا خير من يجيبك و لكن كيف ستفهمي كلامي؟

وانتهت (سالمة) إلى أن الصورة التي يراها الناس هي صورة (سلمى) تقابل بانتظام شاباً اسمه (يوسف)، لذلك طلبت من (جوزيف) أن يكتفيا بالمكالمات الهاتفية و لا داعي أبداً لأن يلتقيا ثانية في الجامعة...

- ولماذا؟

- لأن الزملاء بدءوا يتساءلون و يتهامسون.

- وما شأننا بهم أو شأنهم بنا؟

- نحن نعيش بين الناس و لسنا جزراً منعزلة.

- الذين يتساءلون اليوم هم نفس الذين تساءلوا من قبل عن سبب تغير (سلمى) مع أصدقائها و بالتأكيد كانوا يعييون من قبل عليها كثرة أصدقائها و انفتاح حياتها...صدقيني لن تسلمي من كلام الناس أبداً، والصواب أن تفعلي ما تقتنعين به و لا تلقي بالأل لكلام أحد.

- إذن تستوي نظرات الناس عندك سواء رأوك طيباً أو شريراً؟

- كلا بالطبع لا تستوي، لكني أقصد حياتي الخاصة، فليس لإنسان أن يحكم عليها طالما أنني لم أؤذِ أحداً.

- ولكن كل مجتمع له أعرافه و تقاليده، ومن يصادم هذه الأعراف والتقاليد في تصرفاته فهو بذلك يؤذي مجتمعاً بأسره وليس مجرد أفراد منه.

- حتى وإن كانت تقاليد خاطئة و أعراف بالية؟

- ومن يحكم عليها بأنها خاطئة و بالية؟

- العقل والمنطق...لقد واجهت من تصرفات الناس هنا ما لا يصدق عقل، أهونها مكبرات الصوت التي تصدح ليل نهار وينادون بها على كل شيء في حياتهم، و عندما تناقشت معهم فيها صدموا من كلامي في البداية لكنهم مع النقاش المنطقي أقروا بخطئها وأنها في البداية كانت موطن استنكارهم ثم بعد ذلك ألفوها، وفي النهاية قلدها جميعاً.

- وما علاقة هذه التصرفات بالعادات و التقاليد؟

- جميع العادات تمر بنفس دورة الحياة، يلد التصرف أحدهم ثم يقلده بعضهم ثم مع الوقت ينتشر في المجتمع حتى يصبح من تقاليده، لهذا سميت تقاليد من تقليد الناس لها...عفواً هذه تقاليد تخص أصحابها ولا شأن لي بها.

- دعني أسألك سؤالاً؛ هناك شعوب لا ترى عيباً في الضراط أمام الآخرين لأنهم يرونها سموماً لا يجب أبداً حبسها داخل الجسم - وهي كذلك بالفعل - فهل إذا سافر أحدهم إلى أي بلد يكون من حقه إطلاق أمعائه أصوات و رائحة على الناس كيف يشاء؟

ضحك (جوزيف) حتى أخذه السعال ثم قال بعد أن هدأ:

- لا طبعاً؛ لأنه بذلك سيؤذي من يأنفون مما لا يأنف منه قومه،

لكن دعيني أكون أكثر وضوحاً، دعينا نتكلم عن العادات والتقاليد التي تؤثر بعمق في حياة الناس، ما ضرر المجتمع أن يتقابل فلان و فلانة أو حتى أن يتواعدا؟ لماذا يجبرهما المجتمع على كبت غرائزهما فقط لأن هناك من يرى في علاقتهما عيباً؟

- المجتمع لم يكبت غرائزهما، إنه فقط نظمها بقوانين الزواج كي يضمن حقوق المرأة و الأطفال إذا حدث حمل وأيضاً كي لا تنتشر العلاقات الغير شرعية فتشيع الفاحشة.

- هذا هو مربط الفرس، اعتبار هذه العلاقة بدون هذه الورقة فاحشة و عيباً، واعتبار ثمرة هذه العلاقة أبناء زنى لا محل لهم من الإعراب في مجتمعكم، والنتيجة؟ كبت للشباب و أمراض نفسية بالجملة.

- الكبت لا يكون إلا بغلق جميع المنافذ، لكن الزواج بمثابة بناء السد أمام النهر التائر و تصريف المياه منه بحساب و حكمة كي يروي الأرض بدون أن يفرقها.

- الذي تسمينه سداً حكيماً في إرواء الأرض هو ما جعل صديقتك (نهى) تلجأ للورقة العرفية بعد أن فاض الصبر بها و بحبيبها، مجرد محاكاة لورقة الزواج، ثم وقعا في ذات المشكلة الأصلية لما حدث الحمل. - هذا لأنه لم يكن زواجاً حقيقياً ذلك الذي يعقد بعيداً عن أعين الأهل في الخفاء.

- عدنا لنفس النقطة...العيب الذي اخترعه المجتمع.

- بل عدنا لنقطة أنهما لم يتزوجا حقيقةً.

- وماذا منعهما من الزواج الحقيقي؟

- التعقيدات التي وضعها المجتمع، كمية التكاليف المادية التي افترضوها لقبول أي عريس، المفهوم الغريب أن الزواج لا ينبغي قبل أن تنتهي الفتاة من دراستها وأن يلتحق الشاب بعملٍ مضمون.

- إذن فأنت تريدان أن يتزوج الشاب وهم دون العشرين؟ من في ذلك السن يتحمل مسؤولية زواج وبيت وأسرة؟

- في زمني كانوا يتحملون، وليس في بلادي وحدها؛ ستجد في أوروبا وقتها مجتمعات يبدأ الشاب فيها مسؤولية الأسرة في سن الخامسة عشر!

- الزمن قد اختلف والناس قد تغيروا وما كان يصلح في الماضي لا يصلح الآن.

- لا شيء تغير في الدنيا، أنتم فقط من عقدتم دنياكم.

- هل تقترحين إذن أن تتزوج الفتاة وتترك دراستها الجامعية بل ربما الثانوية لتتحمل مسؤولية الزواج؟

- ولماذا تتركها؟ هل المتفوقة التي تلتحق بالسلك الجامعي بعد تخرجها لا تستطيع الزواج إلا بعد الحصول على درجة الدكتوراه؟ إن بعض الأساتذات الجامعيات لديهن من الأبحاث والمحاضرات ما يفوق مسؤولية أي طالبة، فهل المطلوب من الأستاذة الجامعية أن تترهب في محراب الجامعة؟

- دعك من الفتاة، ماذا عن الشاب؟ كيف سينفق على أسرته الجديدة؟

- كما كان ينفق عليه أبوه قبل الزواج، أو كما يفعل الشاب و الفتاة عندكم عندما يقرران العيش معاً.

- أنت تريدين مجتمعاً من الأغنياء.

- بل كان كل الناس يفعلون ذلك في أيامي، وحتى اليوم ستجد أُسراً متوسطة الحال تُزوّج أبناءها و بناتها في كنفهم وتحت سقف بيتهم حتى يتيسر للابن حاله و ينفصل بحياته وأسرته.

- وأين الخصوصية؟ كيف يكون في مقدور حديث السن أن يحسن اختيار شريكته؟

- كما يختار طلاب الثانوي عندكم بالهجر والملل فإن معظم الزوجات وقتها كانت ناجحة و نادراً ما يقع الطلاق.

- كان الطلاق نادراً لأن مجتمعكم كان يعيبه، وكان يقهر المرأة في الرضا بنصيبها، هذا إن كان لها من البداية أي دخل في الاختيار أساساً، في حين يتيح للرجل الفرصة الثانية والثالثة للزواج بكل أنانية.

- برغم أن ما تقصده من قهر المرأة هي حالات فردية ولكن ما هو البديل؟ تعقيدات اليوم في الشرق؟ أم العلاقات بلا ضوابط كما في الغرب؟

- إذا تخلصتي من نظارة العيب التي تتظيرين من خلالها ستجدين أن ما وصل إليه الغرب هو التطور المنطقي عبر تجارب الأمم؛ أولاً جسد الفتاة والفتى ملك خاص بهما و ليس لأب أو عائلة أو مجتمع أن يحجر على هذه الملكية بدعوى الشرف، ثانياً كبت الرغبات إما أن يدمر النفسية أو أن ينفجر في علاقات سرية كما في حالة صديقتك (نهى)، ثالثاً لن يصل الشاب أو الفتاة للنضج في الاختيار إلا بالاحتكاك بالآخر وتعدد التجارب.

- ويقبل الأب و الأخ على بناتهم أن ينخرطوا في هذه العلاقات؟

- طبعاًآآ! وهذا هو الاتساق مع النفس والعدل في الحكم، ليس عندنا حالة الفصام التي في مجتمعات الشرق فتتقاضى للرجل عما قد تقتل بسببه المرأة.

- حسناً؛ سأخلك كل نظارات العيب والشرف بل والدين وسأرتدي نظارتك تلك، هل هذه الطريقة قد حلت مشاكل علاقات النساء والرجال؟ أعني أنكم في الغرب تواجهون مشاكل لا تحصى برغم ما تقول؛ فكم فتاة تضطر لإجراء الإجهاض لحمل غير مرغوب فيه؟ وكم أم عزباء عندكم؟ وكم فتاة أو امرأة تجد نفسها في العراء إذا تخلى عنها حبيبها وليس لها دخل مالي؟ صديقتك (نيكول) التي حدثتني عنها و التي أخبرك (يوسف) بما جرى لها إنما هي مجرد مثال من ملايين الفتيات في مجتمعاتكم.

- (نيكول) لو لم يطردها عملها أو لو لم تكن علاقتها بأسرتها مقطوعة لكان وضعها مختلفاً.

- وكم فتاة عندكم تتفق عليها أسرتها بعد انتهاء دراستها؟ كلهن  
مُطالِبَات بالعمل وبأن ينفقن على أنفسهن، لهذا فإن كثيراً من نساء  
الغرب يعانين القلق المزمّن ونسبة من يصبن بالاكتئاب منهن نسبة  
مخيفة، خصوصاً وأن الشباب عندكم يعزفون عن الزواج ويريد أغلبهم  
استمرار العلاقة هكذا.

- المشكلة هنا مشكلة مادية، دعينا لا نخلط الأوراق.

- بل كلها أوراق نفس اللعبة وعناصر في منظومة واحدة، لا يمكنك  
أن تلعب بورقة و تتجاهل الأخرى، وحتى إذا تجاوزنا تعقيدات ما قبل  
الزواج ونجح الشاب و الفتاة في العثور على نصفه الآخر؛ كم زوجاً  
عندكم ينتهي بالطلاق؟ كم هي نسبة الخيانة الزوجية عندكم؟ أرقام  
كبيرة لا شك، أليس هذا دليل فشل هذه المنظومة؟ أو على الأقل وجود  
خلل جسيم فيها؟

- على الأقل لا نعاني من الكبت والحرمان الجنسي، انظري إلى  
التحرش الجنسي هنا في الشارع.

ردت عليه بدهشة:

- ليس عندكم كبت جنسي؟

ثم أردفت:

وهذه الأرقام العالية من الاغتصاب في الغرب ماذا تكون؟ وذلك  
الكمّ من القضايا المرفوعة يومياً بسبب التحرش الجنسي في العمل

والجامعات؟ و تلك النسبة المفجعة للفتيات عندكم اللاتي يفقدن  
عذريتهن على يد أحد محارمهن؟ ماذا تسمي كل ذلك؟

- الأمر أعقد من أن نشير بأصابع الاتهام لهذا السبب أو ذاك،  
حياة أي مجتمع منظومة متداخلة و معقدة.

- إذن فأنت تقر أن منظومتكم ليست مثالية ومليئة بالثغرات؟

ابتسم جوزيف و قال:

- كل هذا الحوار الطويل والجدل الحضاري فقط كي لا تقابليني؟

ابتسمت بدورها و قالت:

- ومن قال أنني لا أريد أن أقابلك!



## ( ٤٨ )

بالتأكيد اختارت (سلمى) أن تكمل باقي شهور زيارتها للماضي على خير، لا داعي لاصطناع بطولية لن تقدر على دفع ثمنها، إنها برغم مرور كل تلك الشهور عليها ما زالت تحنّ لحياة المستقبل، تفتقد هاتها المحمول و تطبيقاته... السينما و التلفاز...الأصدقاء وسفرياتهم ومقاهيهم و أنشطتهم...تفتقد حتى الحمام! لكنها ما عادت تفتقد مطاعم الوجبات السريعة ولا حياة الصخب و السرعة وبالتأكيد لا تفتقد التلوث...

إذن فلنكمل مشوارها على خير و تقضي شهورها تلك في دروسها التي بدأتها، على الأقل تكسب ثواباً في محو أمية بعض النساء هنا .  
فرصة أيضاً أن تتعلم بعضاً من فنون نساء الماضي؛ أي فتاة هنا تجيد ما نعتبر صاحبه في زماننا خبيرة في الطهي أو التطريز أو الأشغال، كل أصناف الطعام يقمن بإعدادها من خاماتها الأولية، حتى الشرابات و الجيلي.

ثم خطرت في ذهنها فكرة، لماذا لا تكتب بعد عودتها قصة تسجل فيها ما عاشته؟ رواية تدون فيها حياة نساء الماضي وحواديتهن وأفكارهن؟ إنها فوجئت بهنّ هنا يرفضن كثيراً من الأفكار التي حاولت عرضها عليهن في حملتها التويرية بل يرفضن ما تعتبره من حقوق المرأة البديهيّة، حتى من تجاوبن معها في بعض أفكارها فعلمن ذلك من

باب التجربة، كأنهن يجربن وصفة طعام جديد ثم ما لبثن أن لفظنه لأنه لم يعجب أزواجهن!

ستدون في روايتها كذلك الأمور التي لم تعجبها، والأخرى التي صدمتها مثل الجارية (صُبْح) والتي تنتظر حدثًا سعيداً والفاعل هو أبوها - والد (سالمة) - والجميع يعرفون ذلك و يتقبلونه على أنه أمر طبيعي والمولود المنتظر هو أخوهم، و (صُبْح) لا تزال جارية البيت حتى تنال حريتها بوفاء والد طفلها .

والأغرب هي (أم سالمة) التي تتعامل مع (صُبْح) وكأنها تتعامل مع ابنتها وهي حبلى! لعلها فضلت ذلك عن وجود ضرة لها، ولعل الأب لم يشأ أن يوزع جهده و وقته وماله بين بيتين، وفضل أن يجمع نساءه تحت سقفٍ واحد!

رواية ستسجل فيها تفاصيل حياة الناس وتقاليدهم وأحوال بيوتهم، فرصة ذهبية أن تلتقط صورة الماضي بكاميرا ألوان وليست كاميرا أبيض وأسود تعطيك صورة مبتسرة من لونين فقط.

وهكذا أدارت (سلمى) كاميرتها في عقلها و بدأت في تصوير كل شيء طوال اليوم ثم تدوّن ما تودُّ تدوينه على الورق قبل أن تأوي إلى فراشها، ثم انتهت أن ما تدونه لن تستطيع اصطحابه معها، لا بأس... سوف تذاكر كل ما دونه قبل أن تعود، ومن يدري؟ فلعل الزمن يحفظ لها أوراقها تلك فتكون وثائقاً في المستقبل.

وضحكت وهي تتصور نفسها في المستقبل وقد وقعت أوراقها تلك  
بين يديها بعد أن كتبتها بقرنٍ و نصف!

وللمرة الثانية تحس (سلمى) بالحماس لشيءٍ تشغل به وقتها  
ولكن بنظرة مختلفة هذه المرة، نظرة محايدة غير ناقدة، نظرة تتقبل  
وتتأمل، نظرة تَنفُذ في وعي الناس وترى من وجهة نظرهم هم.

حياة لا تخلو من مميزات على ما فيها عيوب...

حياة أناسٍ قد يرون في عيوبهم مميزات... ولا يدركون ما عندهم  
من حسنات.

- كل شيء في مقابل شيء آخر.

قالت (سلمى) لنفسها.



## ( ٤٩ )

(كوليت) لم تأتِ إلى (دبي) فقط كي تفتقد حضن زوجها، بل جاءت لتباشر عملها من هناك أيضاً، ومن اليوم الأول لوصولها طلبت من (نواف) تخصيص غرفة لها في المكتب.

وما عادت تستغرب - فكل شيء أصبح غريباً هذه الأيام - عندما وجدت ممانعة من (نواف) في مقابل ترحيب من (نواف) و التي - من جملة الغرائب - تنظر إليها بكل براءة وكأنها ليست من غيرت (نواف) عليها، وتتنظر أيضاً إليها بوداً و... نظرة أخرى غريبة حسيّة تجعل (كوليت) ترتبك منها!

بيدو أنني سأجنّ قريباً... قالت (كوليت) لنفسها...

ولكن قبل حدوث ذلك يجب أن أفهم، و إذا لم يأتني (نواف) في الشقة الليلة أيضاً فساذهب أنا إليه و ليكن ما يكون.

صحيح أنني امرأة متحررة لكني سيدة متزوجة لا تعرف إلا زوجها، ومن حقي أن أطالب بنصبي منه ولن أخجل من ذلك، ولا بُدّ من وضع النقاط فوق الحروف... اليوم... وبدلاً من تلك الحرب الباردة الدائرة في المكتب والتي لا أجد فرصة فيه للاختلاء (بنواف)، وكلما حانت الفرصة إما يقفز (نواف) خارجاً لأي سبب، أو تقفز (نواف) فوق رؤسنا و يُصرُّ (نواف) أن يستبقها مهما حاولت أنا أن أصرفها.

والغريب - كالعادة - تلك النظرة التي لا أفهمها في عيني (نوف).

جاء الأوان كي تردّ (جويل) ليّ الجميل، عادة ما ينصرف (نوف) وفي ذيله بعد دقائق تنصرف (نوف)، في الأيام السابقة كنت أنتهز لحظة خروجه وأقول له أنني أريده على انفراد، فيتحجج بأي شيء وراءه و أنه سيتصل بي بعدها فوراً، وبالطبع لا يتصل.

اليوم ستتعلم (جويل) أن تؤخر الفاكس الذي تنتظره (نوف) منذ بداية اليوم بفاغ الصبر من كوريا الجنوبية...فارق التوقيت بيننا وبينهم حجة مقبولة للتأخير و متكررة، سيظهر ذلك الفاكس فجأة لحظة خروج (نوف) من المكتب، سأكون أنا قد انصرفت قبلهما بفترة.

(جويل) تؤكد لي أن هذا الفاكس سيؤخر (نوف) في المكتب نصف ساعة على الأقل، ستتعلم (جويل) أيضاً أن تضع الكوريين على خط الاتصال مع (نوف) كي لا تكون هناك فرصة لها أن تستدعي (نوف) من على الجوال، هذا يكفيني جداً يا (جويل) لرد جميل هذه الوظيفة التي هاديتك بها.



يدق جرس باب شقة (نوف)، سارعت الخادمة بفتح الباب وهي تظنها السيدة (نوف) و قد نسيت مفاتها كما يحدث أحياناً.

تفاجأ (نوف) بالخادمة تتاديبها:

- سيدي (نوف)؛ السيدة (كوليت) في انتظارك.

بُهتت (نوف) ماذا تصنع، و (نواف) لا يرد على جواله، لا بأس،  
كلها دقائق و يأتي لينقذ الموقف...

- (نواف) لماذا تتهرب مني بهذا الشكل؟ ما هذا التغير الغريب  
الذي طرأ عليك ناحيتي؟

قالت (كوليت)...

ردت (نوف) ملطفةً للحوار:

- دعك من وساوسك يا (كوليت)، أنا فقط مرهقة من ضغط  
العمل!

- ومنذ متى و أنت يرهقك العمل؟ لقد كنت تأتيني بيروت أحياناً  
طائراً من نيويورك عبر ميلانو، فتأبى أن تستريح إلا بعد أن نغتسل.

احمرَّ وجه (نوف) خجلاً و غيظاً في حين أكملت (كوليت)...

- أنا لم آتيك الآن كي أستجدي أحضانك، أنا فقط أريد أن أفهم.

ثم أكملت في غضب:

- ومن حقي أن أفهم...منذ آخر يوم لك في بيروت وأنت لست  
أنت.

وتذكرت (نوف) ذلك اليوم، و تذكرت كيف تدفقت وقتها هرمونات  
الذكورة في دماغها، ودخلت ذاكرة مخ (نواف) معها على الخط  
فاستحضرت لها ليلايه الدافئة معها.

وارتعبت (نوف) لما وجدت دماءها تتغير تجاه (كوليت) فتسري  
فيها حرارة الرغبة الملعونة مرةً أخرى...

تبًا لأجساد الرجال وهرموناتهم مرةً أخرى! قالت (نوف)  
لنفسها ...

وعادت حالة فصام المشاعر وتضاربها تشق وجدان (نوف) تجاه  
(كوليت)، لكنها جاهدت نفسها حتى تغلبت مشاعرها نحوها كضرةً  
على مشاعر الرغبة الذكورية فيها كأنثى، وكتبت ذلك الشوق المضطرم  
في جسد (نواف) نحو زوجته العائدة بعد غياب، ووجدتها فرصة  
سانحة لتنفيذ خطتها فقالت لها وهي تقاوم أن تحتضنها:

- لقد أخرجتيني آخر مرة عندما حاولت وصالك وأنت نائمة.

نظرت لها (كوليت) تملؤها الدهشة و قالت:

- لو كانت أول مرة يحدث فيها ذلك بيننا لربما صدقت هذا  
الكلام العجيب، قل إنك تتحجج بأول حجة جاءت على بالك، قلها  
بصراحة أنك ما عدت تحبني.

سكتت (نوف) وغيرت اتجاه نظراتها إلى ناحية أخرى وقالت:

- إن بعض الظن إثم... وليس كله!

هزّت (كوليت) رأسها وقالت وهي تغالب دموعها وتستحضر كل  
رصيدها من الكبرياء:

- حسناً يا (نواف)، لقد فهمت، سأعود إلى بيروت وأنتظر كي  
نجري إجراءات الطلاق و ترتيبات تخارجي المالي من مشاريعك.

ردت (نواف):

- أنتِ من تطلين ذلك و لستُ أنا!

لم ترد (كوليت) بل استدارت وخرجت من الشقة، وأصرت أن  
تغالب بكاءها وهي تستدعي المصعد الذي وصل ليخرج منه (نواف)  
والذي فوجئ بوجود (كوليت) أمامه فصاح مندهشاً:

- (كوليت)؟

فرمقته (كوليت) - وهي تظنه (نواف) بالطبع - بنظرات تتزاحم  
فيها تعابير الحزن والغضب واللوم و...دمعة متجمدة يأبى كبرياء  
صاحببتها أن يتركها لتتزل، وتركته ولم تردّ ودلفت إلى المصعد وأغلقت  
خلفها.

وفهم (نواف) ما جرى، فدخل الشقة وهو يستشيط غيظاً، وأخذ

ينادي بغضب:

- (نواف)...أين أنتِ يا (نواف).

ولم ينتبه إلا من نظرات الخادمة التي أخذت تنظر إليه نظرتها

إلى شخص مجنون ينادي على نفسه بصوتٍ عالٍ وبغضب!



## (٥٠)

جلس (سعيد) مع (يوسف) في غرفة مكتب (جوزيف) وأخذ يشرح له بإنجليزيتة التي تحسنت كثيراً آخر تطورات مشروعه، لفت انتباه (يوسف) أن (سعيد) يكثر من ذكر (نيكول) في حديثه ويشي على مجهوداتها معه و يمدح شخصيته، فابتسم في خبث و قال له:

- أراك مهتماً بالحديث عن (نيكول) و مرتاحاً إليها برغم تحفظك معها في البداية.

ابتسم (سعيد) في حياء و قال:

- أنا كنت كذلك فعلاً لكنني اكتشفت فيها جوانب جميلة بعد أن تعاملت معها.

- أراك أعجبت بها؟

تلعثم (سعيد) و قال:

- لا لا، إنها صديقتك أنت.

- مجرد صديقة وليست صديقتي الحميمة.

- برغم أنني لا أقتنع بوجود صداقة بريئة بين شاب وفتاة، ولكن كيف لا تكون (نيكول) صديقتك الحميمة وهي تقيم معك في نفس الشقة؟

- مجرد وضع مؤقت بسبب تخلي (جيمس) و عملها السابق عنها .
- لكن الظروف اختلفت وهي الآن تستطيع أن تستقل في أي شقة صغيرة.
- لقد تَرَبَّى عندها رعب من الوحدة بعد ما حدث لها، كما أن هذا الوضع أنسب لنا وأكثر عملية.
- إذن فهي لم تبحث عن حبيب طوال هذه الشهور؟ أظن أن (نيكول) تحبك ولولا ذلك لفكرت أنا في الارتباط بها.
- رد (يوسف) باستغراب:
- كيف؟ كيف تقول ذلك؟
- لعلها تخجل أن تصارحك بمشاعرها أو أن تلمح لك بها أو لعلها تخاف من تكرار تجربة (جيمس) خصوصاً وأنها تعرف رأيك في الزواج.
- أقصد كيف تفكر أنت فيها؟ إن مبادئك تمنعك من الارتباط بفتاة حملت من صديقها السابق.
- رد (سعيد) باستغراب:
- أنت تقول ذلك؟ ثم كيف عرفت بمبادئك؟
- ارتبك (يوسف) قليلاً ثم تدارك نفسه وقال:
- لا تنس أنني دارس للأنثربولوجيا واحتككت بمعظم ثقافات

العالم وبالتأكيد أعرف مبادئ أهل الشرق، خصوصاً وأنتك إنسان متدين وتحافظ على صلواتك.

- صدقتي أن (نيكول) هذه لو كانت فتاة شرقية لكانت فتاة في غاية الالتزام بمبادئ الشرق، زد على ذلك ما عندها من مميزات أهل الغرب.

- لا أظن أن (نيكول) ستقدر على الحياة في مصر، ولو حدث فستصدم أنت مع الوقت بطباعها الغربية المتأصلة فيها... أنت بعد ينجح اختراعك و تمتلئ جيوبك بالمال لن تصلح لك إلا فتاة مصرية... أنا أعرفك جيداً.

مستغرباً:

- وكيف تعرفني جيداً من هذه المدة القصيرة؟

تدارك (يوسف) وقال:

- خبرتي من الدنيا التي زرت أغلبها و نماذج الناس الذين احتككت بهم... صدقتي يا (سعيد) لن تصلح لك إلا فتاة مصرية بل و من (مصر القديمة) أيضاً... ما رأيك في أخت صديقك (يوسف)؟

رد عليه بدهشة:

- وكيف عرفت ب (سارة) أخت (يوسف)؟

تلعثم (يوسف) من جديد وابتلع ريقه وقال وهو يلعن سداخته في

سر:

- كانت هي من تتراسل معي بشأنك لأنها تجيد اللغة أكثر من أخيها .

فكر (سعيد) قليلاً ثم ابتسم وقال:

- (سارة) فتاة ممتازة و جميلة، ولولا ظروف في المادية السابقة لتقدمت لخطبتها، لا أخفيك سرّاً لقد أعجبت بها فترة مراهقتي وشبابي الأول، لم أقل شيئاً من ذلك (ليوسف) طبعاً، لكن أنا أتحفظ على الأفكار التي تولدت لديها من الفعاليات الثقافية التي تحضرها، ولا يعجبني فيها أنها ليست محجبة حتى الآن برغم أنها تجاوزت الثلاثين.

- عجيب أمرك يا (سعيد)؛ تتحفظ على (سارة) لأنها ليست محجبة وترغب في (نيكول) التي حملت من صديقها؟  
صمت (سعيد) ثم قال:

- انظر؛ الأمر فعلاً برمته غير منطقي، ربما لأنني أفكر في الاستقرار هنا و عدم العودة إلى مصر إن أمكن ذلك، وربما هو الانبهار (بنيكول) لأنها غربية والإنسان بطبيعته يميل للأغرب، أو كما يقول المثل العربي في تراثنا: فتاة الدار عوراء، وأحياناً أتعجب أنني كنت أحب (سارة) يوماً، وأحياناً أحس أنني لا زلت أرغب في (سارة) برغم تلك الحواجز الفكرية التي بيني وبينها.

- ألا ترى أنها حواجز وهمية؟

هز (سعيد) كتفيه لأعلى و قال:

- ربما .

ثم ضحك و قال:

- أقول لك شيئاً؟ أحياناً أتخيل لو أن (سارة) و (نيكول) كل واحدة منهما مكان الأخرى؛ لكانت (نيكول) الآن محجبة و لكانت (سارة) إحدى عشيقاتك!

و لم يتمالك (يوسف) نفسه فصاح في وجه (سعيد) في غضب و قال:

- احترم نفسك... (سارة) أختي أشرف بنت في الدنيا!

قالها بلهجة عفوية مصرية صميمة!



## (٥١)

في بداية مكالمتهما ظن (جوزيف) أن (سالمة) تريد منه ألا يتقابلا ثانية و أن يكتفيا بمكالمات الهاتف، و في نهاية المكالمة اعتقد أنها تريد مقابله ولكن بعيداً عن أعين الفضوليين، ثم ظهرت له الحقيقة أنها حددت اللقاء معه في إطار علمي بحث!

لم يفهم (جوزيف) لماذا اختارته ليكون مرشداً لها في زيارات المتاحف الأثرية و العلمية في القاهرة.

من أوحى لها أنني خبير بهذه الأمور؟ تساءل (جوزيف)...

أم لعلها تريد أن تلقاني بغير أن يبدو هذا اللقاء على أنه مواعدة؟ وفي نفس الوقت تختار مكاناً لن تجد فيه أحداً يعرفها! ربما، وربما أيضاً هي فعلاً قررت الاهتمام بالمتاحف بعد أن تشبعت من البحث النظري.

هذه فتاة ولدت في الزمن الخاطيء، لو كانت من بنات أيامنا لحصدت جائزة نوبل يوماً ما، عقلية هذه الفتاة الموزونة وشغفها بالعلم لا يصح أبداً أن تعود بهما إلى عصرها المظلم.

لأول مرة أجدني حائراً في فهم فتاة...إنها تعاملني بود عالٍ وترفع بيننا الكلفة في حين تتحفظ جداً في تعاملها مع الشباب الآخرين، لكنها في نفس الوقت تضع حدوداً في تعاملنا لدرجة أنها لا تصافحني أبداً.

هل تراني حفيدها مثلاً؟ إذن فكل هؤلاء الشباب أحفادها .

هل جمعتنا ظروفنا الاستثنائية؟ ربما .

لن أجهد عقلي في فهمها، لكن ما أدركه جيداً أنها مختلفة وأني لا أريدها أن ترجع إلى زمانها في نهاية هذا العام ...

- قل فوراً و بدون تفكير... فيم كنت تفكر و أنت شاردي؟

هكذا فاجأته (سالمة) مبتسمةً بينما كان هو شاردي في انتظارها في مدخل المتحف الجيولوجي، بادلها الابتسام و أجاب:

- كنت أفكر لماذا تأخرتي.

قالت بدهشة و هي تنظر إلى ساعتها:

- أنا لم أتأخر.

ثم سحبت رأسها للوراء و نظرت له بخبث و قالت في ابتسام:

- أنت تراوغني، تقول هذا كي تأخذ فرصتك في التفكير، لا...

لا...لن أتركك قبل أن تجيبني و بدون تفكير.

- صراحة؟ كنت أفكر كم أنت فتاة مختلفة.

- بالتأكيد مختلفة، فتاة من القرن التاسع عشر سقطت في ثقبٍ للزمن إلى القرن الحادي والعشرين.

- وهل كل فتاة يمكن استدعاؤها من القرون الخالية كانت لتهم

مثلك بالعلوم والمتاحف؟ كم فتاة منهن ستتقن في شهور ما يحتاجه غيرها لسنوات كي يتقنه؟ أنا أشعر أنني بصحبة (ماري كوري) أو (هانّا آرينت).

ضحكت (سالمة) و قالت:

- كل زمان ستجد فيه مثل تلك العالمة و تلك الفيلسوفة .

- ولكن ليس كل زمان ستجد فيه (ماري كوري) فرصتها، أنت قلت أنك كنت في غيبوبة في الماضي و لولا مجيئك هنا ما أفقت من سباتك المعرفي...كم فتاة مثلك مدفونة في غياهب الماضي؟

- وكم إنسان اليوم - امرأة كانت أو رجل - مدفونة مواهبه في ظروف شخصه أو أحوال بلده أو كسل نفسه؟ ما من إنسان إلا وله موهبته لكن أغلب الناس ما بين غافل عنها أو متكاسل مستسلم أو الأحوال حوله تقهره.

- وما ذنب الموهوب أن يُدفن تحت ركام قهر الظروف والأحوال؟ بل ما ذنب الإنسان العادي أن لا يحصل على أبسط حقوقه بسبب فقرٍ أو قهرٍ أو ظلم سياسي؟ ما ذنب المعاق أن يعيش حياته في معاناة؟ أين العدل؟

- لن ترى العدل أبداً إذا قصرت نظرتك على الحياة الأولى، لكن لو اعتقدت في وجود حياة أخرى تسدد فيه الديون و يعوّض فيه المظلوم لتغير رأيك.

- والذي لم يقتنع بوجود حياة آخرة؟ أو لم تصل إليه تلك الأدلة  
و لا المعلومة أصلاً؟ هل كُتب عليه أن يعاني في الدنيا ثم يعذب في  
الآخرة؟

- لو اقتنعت أن الآخرة هي عدلٌ مطلق و أن صاحبها أدري بها و  
بنا لوجدت كل أجوبتك.

- أقول لك شيئاً؟ أو بالأصح أضرب لك مثلاً؟ (سارة) أختي  
أقصد أخت (يوسف)، فتاةٌ تجمدت حياتها و توقف بها الزمن عند  
اليوم الذي تخرجت فيه في جامعتها... لا عمل لا زواج لا حب... ولا  
تتخرط في علاقة عاطفية حذراً أن تفقد زهرتها في لحظة ضعف،  
و كل من يتودد إليها إنما ليطلب فراشها لا ليطلب يدها، تحاول أن  
تحرك ماء حياتها الراكد ببعض الأنشطة التي تشارك فيها، لكنها  
تحذر السياسة مخافة أن تخرج يوماً من بيتها و لا تعود إليه، تشارك  
في أنشطة ثقافية لكنها تتجنب مناقشات الأديان خوفاً أن يهتز بها حبل  
الأمل في أن تجد تعويضها في الآخرة... البعض يراها قديسة و البعض  
يراهها ضحية ظروف صعبة، لكن أنا أراها ضحية أفكار و تقاليد  
أضاعت زهرة عمرها.

- إذن فأنت تريدها أن تطرد من رأسها تلك الأفكار و التقاليد  
البالية في نظرك و تطلق لجسدها و عقلها العنان... ماذا بعد؟

- ستقابل يوماً ما نصفها الآخر الذي لن يكون بالتأكيد أسير  
هذه الموروثات.

- أو لا تقابل فتصبح مثل (نيكول).

- على الأقل لن تكابد الحرمان و الكبت اللذين تعانيهما .

- على الأقل هي لم تدخل في دوامة الاكتئاب التي دخلتها (نيكول).

- ذلك لأن عقلها يدافع عن سلامته فيعتصم بأفكار الإيمان والشرف و يجد فيها تعويضه .

- فلماذا لم يدافع عقل (نيكول) عن نفسه وعن سلامته؟

- لعلَّ هذه النقطة فعلاً هو ما كسبته (سارة).

سكت لثوانٍ ثم ابتسم و قال:

- أقول لك شيئاً غريباً؟ برغم أنني أرى (سارة) فتاة جميلة بل ومغرية وبرغم أننا نعيش تحت سقفٍ واحد، إلا أنني أراها أختي فعلاً، يبدو أنه سحر القلادة، لدرجة أنني لو كنت قابلتها في ظروف أخرى لأعجبت بها وبسلامها الداخلي و لربما أحببتها .

ضحكت (سالمة) و قالت:

- إذن فأنت يمكن أن تقع في الحب فعلاً و تخلع بدلة الدونجوان الذي لا يكتفي بامرأة واحدة لأكثر من أسبوع .

أجابها ضاحكاً:

- فكرتك خاطئة عن الشاب الدونجوان، أي كازانوفاً مهما تعددت

علاقاته قابل لأن يقع - وبسهولة - في الحب .

ابتسمت وقالت:

- وهل وقع (الدونجوان جوزيف كازانوفيا) في الحب؟

أجابها بجدية:

- يبدو ذلك.

ضحكت وقالت:

- لا أصدقك، (جوزيف) المليونير الوسيم يترك فاتحاته اللواتي من

كل لونفي العالم و يجئ ليقع في الحب هنا؟

- وهذا ما أشعر به فعلاً رغم غرابته، فتاة أسرتني بذكائها و

حكمة عقلها برغم ما بيننا من اختلاف في كل شيء... أظنك تعرفينها

جيداً!



## (٥٢)

غالباً لو سألتُ الناس هنا ما هو معنى التوتر أو الملل فلن يجدوا  
إجابة... قالت (سلمى) لنفسها...

هذه معاني لم يختبروها هنا ولم يجربوها .

الحياة هنا كأنها تسير بالعرض البطيء و لا أحد يلهث وراء شيء،  
ويبدو أنني الوحيدة - من دونهم كلهم - التي كنت أشعر بالملل أول  
ما سقطت في فجوة الزمن تلك... هل لأنني من اعتدت حياة السفر  
والنشاط ووسائل التكنولوجيا؟ أم لأن فلسفة الحياة هنا مختلفة تماماً؟  
لا أحد تقريباً يصنع شيئاً بمفرده بل كل الأنشطة جماعية، لا مجال  
للانفراد بالنفس ولا وجود لما نسميه في زماننا بمساحات الخصوصية،  
هذه تعبيرات حديثة ممنوعة من الصرف هنا لأنها ببساطة عملات  
غير معروفة.

من ينفرد بنفسه ولو لليلة يقلق عليه من حوله ويفقدونه كأنه  
مريض، و من يريد الانفراد بأفكاره فعليه الخروج إلى شاطئ النيل أو  
إلى أحد البساتين، وهذا أمرٌ لا يمكن أن تفعله فتاة بمفردها بل لا بد  
لها من صحبةٍ من النساء.

وفي مقابل إيقاع الحياة البطيء فإن دورة الحياة البشرية هنا  
سريعة، بعض الفتيان و الفتيات لا يعرفون فترة المراهقة لأنهم ببساطة  
يكونون أزواجاً وزوجات وقتها، طبيعي جداً أن تُزف فتاةٌ وهي بنت

الثانية عشرة من عمرها! والأسر ( العاقلة ) تترىث حتى تتم الفتاة سن الخامسة عشر فتكون قد نضجت قليلاً!

قد تجد شاباً هنا في الثلاثينات من عمره ويحمل حفيده فوق كتفه!

هنا لا يحملون همّاً لتكاليف الزواج و لا حتى لتدبير بيت الزوجية، الوالد يقرر تزويج ابنه فتخطب له أمه أو أخته أو إحدى ذويه، والزفاف يتم خلال أسابيع في غرفة يخصصها له أبوه في دارهم، فقط عليه القوم هم من يشترطون مسكناً مستقلاً لابنتهم وهذا أحياناً يكون بيتاً منفصلاً أو جناحاً مستقلاً في دَوَّار والد العريس.

الحياة هنا جنة المسنين، ليس فقط لأنه لا مجال لشعورهم بإحساس الوحدة، بل لكمّ الوقار الذي يعاملون به مهما بدر من نرق العواجيز من أحدهم.

لولا مكتبة جدي وهذه الدروس التي أواظب على إعطائها لتطبعت بهم ولذابت شخصيتي التي أتيت بها، صحيح أن جلساتهم مسلية وثرثرتهنّ ممتعة و لكن ذلك لأنهنّ لم يجربنّ معنى أن تكون للفتاة رسالة غير البيت والأسرة.

وأخيراً أقنعت أمي و أقنعت بعض الفتيات في مجلسي أن نتمشى سوياً ساعة العصاري - من يومٍ لآخر - قرب النيل أو أحد البساتين القريبة، جميلٌ فعلاً أن تستمتع بالطبيعة البكر من حولك ولا تحتاج للخروج في سفرٍ إلى الواحات أو إلى شاطئ بعيد لم تهتك المدينة عذريته بعد .

أقصى ما تجده من تلوث هنا ما قد تثيره عربة أو كارتة يجرها  
حصان من غبار، أو دخان يتصاعد من كومة قش صغيرة اعتاد أن  
يشعلها أحدهم لسبب لم أعرفه أبداً!



وذات عصرية خرجت (سلمى) مع بعض رفيقات الدرس وقررن  
التمشية قرب أحد البساتين هذه المرة بدلاً من تمشية النيل، وبعد  
جولة لم تطل قررن العودة، و لما كان طريق العودة قريباً من بيت  
إحداهن دعتهن أن يعرجن معها على بيتها، فاستجاب بعضهن واعتذرت  
(سلمى) هي وإحدى الفتيات - (منيرة) - لأن بيوتهن في الطرف الآخر  
من الطريق، ومضت (سلمى) و معها (منيرة) في طريقهن.

(منيرة) فتاة حديثة السن أقرب إلى الطفولة لكن (سلمى) تحبها  
لذكائها وخفة ظلها فلا تعاملها على أنها طفلة، وفي وسط الطريق  
اقتрحت (منيرة) أن يعرجن من خلال أحد البساتين لأنه يختصر  
الطريق كما أنها تحب أن تدخله كلما مرّت عليه كي تقتطف بعض  
أوراق شجرة النبق التي فيه، وأخذت تشرح (لسلمى) فوائد الاستحمام  
بمنقوع ورق النبق هذا وأنه أيضاً وقاية من السحر والحسد .

لم تُرد (سلمى) أن تدخل معها في نقاش لا يناسب سنها فطاوعتها  
ومضت معها، ولما خرجا من البستان وقفت (منيرة) عند مفترق صغير  
وقالت:

- أنا بيتي من هنا وبيتك من هذا الاتجاه الثاني كما تعرفين.

ولم تنتظر من (سلمى) رداً وإنما انطلقت في طريقها وهي تحجل  
بقدمٍ وراء أخرى، ووقفت (سلمى) مترددة للحظات وهمّت أن تتأدي  
على (منيرة) لتوبخها على تركها في منتصف الطريق، لكنها لمحت  
بعينها برج الحمام المميز القريب من دارها فأدركت أن (منيرة) كانت  
على صواب.

ومضت (سلمى) مسترشدة بقمة برج الحمام وانعطف بها الطريق  
بمياً فانعطفت معه لكنها أدركت بعد قليل أنها تتعد عن هدفها، إذن  
كان هناك زقاق أو ممر فرعي من الطريق كان ينبغي أن أسلكه، فعادت  
أدراجها تبحث عن هذا الممر، وعبثاً حاولت ذلك وإنما وجدت ممراً  
يأخذها إلى الجانب الآخر بعيداً عن اتجاه برج الحمام.

وقفت (سلمى) في غيظ حانقة على كل الطرق التي هنا؛ ليس  
فيها طريق واحد مستقيم إنما كلها متعرجات و تقاطعات، قررت أن  
تعود إلى النقطة التي تركتها عندها (منيرة) لكنها لم تصل إليها،  
تسارعت دقات قلبها وبدأت في التعرق لما أدركت أنها تتوه، همّت أن  
تركض في أي اتجاه ولكن كل اتجاه كانت تحس أنه سيأخذها بعيداً  
عن المدينة.

أنا لم أته من قبل في أي دولة زرتها ثم أتوه هنا على أطراف  
بلدتي!

وقفت في حيرة ثم قررت أن تمضي في أي اتجاه تشعر أنه سيقربها  
إلى أي بيت تلجأ إليهم طالبة العون والإرشاد، ومضت في الطريق

الذي أحست بخيالات أسطح البيوت تتراءى في أفقه، لكنها كلما مضت  
أحست بأنها تبتعد، وأحست بالدموع تتجمع في عينيها وبرغبة في  
الصراخ كي يسمعا أي أحد لكنها كتمت صراخها وقالت لنفسها:  
لن يسمعي هنا إلا مارٌ بالصدفة.

وجفلت أن يكون هذا المار أحد الذئاب البشرية، وطاقت بخيالها  
كل حوادث الاختطاف والاعتصاب التي رأتها في السينما أو التي سمعت  
عنها من وسائل الإعلام، لكن سحبها من خيالها صوت أحد الذئاب  
الحقيقية يعوي من بعيد، وكذبت إحساسها بأن صوت الذئب يقترب  
منها خصوصاً وأن الشمس بدأت تميل في طريقها نحو المغيب.

لكن إحساسها لم يكن كاذباً وأصبح صوت الذئب أكثر اقتراباً  
و لم تدر ماذا تفعل، الحل الوحيد أن تسقط مغشياً عليها، أن يطفئ  
عقلها أجهزته حماية لها من التلف بسبب الخوف الرهيب الذي تشعر  
به.

يبدو أن عقلها قد اعتاد الإغماء هذا العام...

وبدأ عقلها بالفعل يستعد لذلك كأنه يستجيب لإرادتها، لكن  
سحبها من بئر الإغماء صوت رصاصة انطلقت في الهواء واختفى  
صوت الذئب ليفاجئها مكانه صوت شاب يصيح فيها:

- ماذا تفعلين هنا؟ من أنت؟

أجابت وهي تتفجر بالبكاء:

- أنا بنت الحاج (محمد البكري) وقد تهت في طريق عودتي للبيت .

اقترب منها الشاب وهو يقبض على بندقيته بيمناه واضعاً إياها فوق كتفيه الاثنين بشكل أفقي و يسحب فرسه بيده اليسرى وبيتسم ويقول:

- أنتِ (سالمة) أم (توحيدة)؟

استغربت (سلمى) منه ثلاث مرات؛ مرة لأنه يعرف اسمها واسم أختها وأخرى لأن لهجته مختلفة قليلاً عن لهجة أهل البلد وثالثة لأن ملامحه أوروبية شقراء ، فقالت و قد أخذ بكأؤها يهدأ وبدأت تطمئن قليلاً:

- أنا (سالمة)، هل تعرفنا؟

- بالطبع، وإن كنتِ أنتِ لا تذكريني جيداً لأنني كثير السفر وبالأمس فقط قدمت من الشام بعد غياب، أنا (عبد الحميد) ابن الحاج (إدريس الحسيني)، والدتي هي ابنة خالة والدتك و والدي ابن عمتها الغير شقيقة.

- طبعاً طبعاً، حمداً لله على عودتك سالمًا.

قالتها (سلمى) وهي تدعي المعرفة الوثيقة بينما ذاكرة(سالمة) تخبرها بصدق وجود هذا الشخص وهذه الأسرة فعلاً في محيط أقاربها، و تهتدت وحمدت ربها أن بعث لها هذا الشاب المنقذ...ويا له من شاب!

- هيا اركبي لأوصلك .

انتبهت (سلمى) من خواطرها و قالت بحذر:

- هل سنركب معاً؟

- بالطبع لا، ستركبين أنتِ و أنا سأسحب الفرس .

وعبثاً حاولت (سلمى) أن تضبط قدميها على ركاب الفرس من توترها الذي لم يهدأ بعد، ففوجئت ب(عبد الحميد) يتكئ على إحدى ركبتيه على الأرض وينصب لها الركبة الأخرى كي تتخذها متكئاً تصعد من فوقه، وأحست (سلمى) أنها تعيش داخل إحدى قصص الأميرة والفرس، و حانت منها التفاتة سريعة نحوه لتتظر أين تتجه عيناه وهي تركب فوجدته ينظر للأفق البعيد ولا يحاول اختلاس نظرة ما .  
ومضى بها يقود الفرس وهي تشعر وكأنها في حلم عجيب، حتى أفاقت على صوته وهو يقول:

- أحسست وكأنك لم تتذكري والدي و والدتي جيداً .

- بلى بلى أذكرهما وأذكر والدتك يرحمها الله ولكن اعذرني إذ لم أتعرف عليك سريعاً .

- هذا لأنني كثير السفر .

وأخذ يقص عليها حكاية عائلته التي هي عائلة أمها وهبوطها من القدس إلى مصر لتستوطن رشيد، لكنهم احتفظوا ببعض الأراضي والبيوت في القدس في رعاية العائلة الأم هناك، وأنه يتبادل مع إخوته

وأبناء عمومته السفر إلى هناك لتفقدتها، كما أن له تجارته ما بين موانئ الشام والإسكندرية، و لذلك فهو كثير التغيب عن رشيد .

وحكت هي بالمقابل سبب تواجدها في ذلك المكان كما حكت عن مجلسها و الدروس التي تعقدتها، و لم تدرِ لم أخبرته أنها و صاحباتها يتمشين دائماً بعد كل درس، ثم امتد بهما الحوار إلى مكتبة جدها وما قرأته منها فوجدته يجاريها في معارفها و إن كان يهتم أكثر بكتب الشعر وأدب الرحلات.

وهبط الحصان بجناحيه أمام باب الدار، و حكت لأهلها سريعاً ما حدث ففسرت حكايتها طلاقة الرصاص التي سمعوا دويها منذ قليل، وشكر الوالد (لعبد الحميد) صنيعة وحمد الله على سلامة ابنته وإن كانت عيناه يملؤهما اللوم لها.

وبعد أن انفض الجمع سحبتها (توحيدة) من يدها إلى غرفتهما وهي تقول:

- ما بك يا (سالمة)؟

ردت باستغراب:

- ما بي؟

- انظري إلى المرأة و أنتِ تعرفين، هذه اللمعة لم أرها في عينيك منذ سنين!



## (٥٣)

صياح و عراق بين (نوف) و (نواف)، وكلاهما لا يسمع الآخر وكل منهما يكيل للآخر الاتهامات:

- أنا لست ملزمة أن أكون رسول الغرام بينك و بين ضرتي، بل لست ملزمة أنا أتعامل معها أصلاً، ماذا كنت تريدني أن أصنع؟ أن أطارحها الغرام نيابة عنك؟
- أنتِ تعمدتِ جرحها وتطفيشها وتقطيع ما بيننا، كان بإمكانك التسوية... افتعال أي مشكلة، لا تقولي أنك فجأة فقدتِ براءتك ونفدتِ جعبتك من حيل النكد... ابتكار أي خصام تمر به الأشهر المتبقية، ألا تأبهين على الأقل لحجم المشاريع التي تديرها (كوليت)؟
- وماذا يجبرني؟ قل لي ماذا يجبرني على ذلك؟ أنت من الأنانية وحب الذات بحيث تريدني أن أحافظ أنا لك على زوجتك، ومن الطمع بحيث لا تكتفي بالانسجام الذي ملأ حياتنا بعد تحولنا... تأبى أن تقنع به وتطمع هل من مزيد.
- أنتِ تريدين تقرير مصيرنا ووضع اختياراتنا وحدك، تسلبيني حقي في الاختيار، صدقتِ أنك صرتِ فعلاً الرجل في معادلة حياتنا، لو كان بيدك لألغيتي وجودي تماماً وطلقتِ (كوليت).

ونقاش طويل يدور بهذه الوتيرة في دوائر متعاقبة متشابهة كأنك تستمع إلى شريط أغنية يدور و يعيد نفسه، حتى قطع (نواف) هذه الدوائر وخرج من دوامتها ليقول:

- هيا أصلحي ما أفسدتيه .

فسألته باستنكار:

- وكيف ذلك؟

- اذهبي إليها وطيبى خاطرها بأي حجة .

- أذهب إليها؟ هل أنت غبي!

وبهت (نواف) من الكلمة فقال في غضب:

- أنا غبي؟ أنتِ طا... .

ثم تدارك لسانه وخيم الصمت المطبق عليهما فاستدار (نواف) وخرج من الغرفة .



أخذ (نواف) يدور حول نفسه مثلما يدور عقله حائراً يفكر كيف يتصرف، إنه بعد أن ابتسمت له الحياة مع (نوف) ووصل إلى مدار شاهق من الرضا والمتعة، ها هي الحياة تنقلب به وتسقطه في غور عميق من الشقاء مع (نوف) و (كوليت) في آن واحد، وبعد أن كان يعدّ الشهور الباقية كي ينعم بالسعادة معهما بعد أن فهم دهاليز ومataهات

عقل المرأة وقرأ دليله وتعليمات تشغيله من الداخل، إذا به الآن في طريقه لأن يخسرهما معاً.

أي عينٍ نارية أصابته سهام الحسد منها في مقتل؟...

لا... لن أستسلم، إنني لم أبني كل ما بنيت إلا لأنني إنسان قوي، فلن أنهزم أمام تقلب نفسيات و عواطف النساء وغيره الضرائر.

ولكن ما العمل؟ لا بد أن أتدارك الأمر مع (كوليت) والآن.



سحب جرس الباب (كوليت) من بحر دموعها فتجاهلته في البداية، ولكنه أصرّ على انتشالها من دوامات بحر أحزانها، فقامت وغسلت الخطوط والدوائر السوداء التي ذابت و سالت حول عينيها وعلى خديها، نظرت إلى شاشة الباب...آخر إنسانة كانت تتمنى لقاءها الآن...

(نوف) التي يبدو أنها أخذت قراراً ألا ترجع حتى تدخل أو تحرق الجرس...فلننظر ماذا تريد مني من أوغرّت عليّ زوجي...قالت (كوليت) لنفسها.

فتحت (كوليت) فدلفت من تحسبها (نوف) لتفاجأ بأنها تحتضنها في تعاطفٍ و مواساة، انتزعت (كوليت) نفسها من أحضان جسد (نوف) وقالت:

- ماذا تريدين مني؟

أجابها (نواف) :

- لكِ الحق أن تغضبي وأن تظني كل الظنون فيَّ وأن تحمليني  
مسئولية تغير (نواف) عليكِ.

- وهل هناك تفسير آخر؟

- برِّيك، لو كنت أنا من غيرته ناحيتك، فماذا يدفعني للمجيء  
إليكِ؟

- كي تلبسي قناع الحمل الوديع، كي تغسلي يديكِ من دمائي، كي  
تشهدي لحظة إجهازك على حياتي مع (نواف).

- مهما قلت لكِ ومهما حلفت بأيمان المسلمين...والمسيحين أيضاً!  
فلن تصدقيني، و لكنني سأسألكِ أسئلة وأنتِ سيده أعمال أي لكِ  
عقل يفكر بعيداً عن العواطف، فخذي أسئلتني بشكل مجرد وعلى أنها  
ليست مني.

سكتت (كوليت) وهي تنظر إلى (نواف) في ارتياب فأكمل هو:

- منذ متى تغير (نواف) عليكِ؟

أجابت (كوليت) بعد صمتٍ مرتاب:

- في آخر يومٍ كان معي فيه في بيروت.

- ألم تسألني نفسك لماذا ذلك اليوم؟ لو كنت أنا من أوغرت  
صدره نحوك فلماذا لم يكن متغيراً منذ لحظة وصوله؟

فكرت (كوليت) ثم قالت:

- ما أدراني ما قلتيه له في مكالمة هاتفية مثلاً في ذلك اليوم.

- وهل عهدك (بنواف) أنه الرجل الذي ينقلب فجأة بمكالمة هاتفية؟ بل و يأخذ هذا الموقف بغير أن يواجهك؟

فكرت (كوليت) أكثر وقد أخذت كلمات (نواف) تتسلل فعلاً إلى عقلها ثم قالت:

- فماذا حدث إذن؟ ما هذا التغير الكبير الذي أصابه؟ وفجأة؟

تتهد (نواف) و قال:

- طالما أنك سألتِ سؤالاً كهذا إذن فأنتِ بدأتِ تسمعين لي... (نواف) مسحور... بل معشوق عشقاً سفلياً.

ضيققت (كوليت) نظرات عينيها و قالت في سخرية وقد تحولت ثقتها إلى شكٍ من جديد:

- وهذا العشق السفلي غيَّره عليّ أنا فقط؟ وهو الذي جعله يشركك فجأة في إدارة أعماله بعد أن كان يرفض مجرد فكرة عملك؟ والسحر هذا هو الذي طار بكم من الرياض إلى دبي؟

- لك كل الحق ألا تصدقي حرفاً مما أقول، ولكن سؤال آخر وفكّري فيه جيداً؛ في الأيام الماضية لك في دبي وفي آخر يومٍ له في بيروت، ألم تلاحظي على (نواف) أي تغير؟ فيه هو ذاته؟

فكرت (كوليت)؛ إن (نواف) فعلاً ليس هو (نواف)، بعض حركات جسده مختلفة، أحياناً يضع يده على خصره كما النساء، عندما يضحك يغطي فمه عفويًا بكف يده. ثم تذكرت حديثه الأخير معها، لقد فلتت منه بضع كلمات عن نفسه بصيغة المؤنث.

فكرت ثم قالت في هدوء:

- فعلاً هناك تغير، ولكن لماذا لم يتغير عليك أنت أيضاً؟

- ومن قال ذلك؟ أقسم لك بالله أن (نواف) لم يمسنني منذ أن عاد من بيروت، و لما لاحظنا عليه تغيره أخذته أسرته إلى شيخ كبير فأخبرهم بخبر عشيقته السفلية تلك التي عشقته منذ كان في الرياض قبل أن يأتني، و أنها كي تتصرف عنه يجب أن يغادر الرياض لمدة عام لأنها موطنها، و لهذا جئنا إلى مكتب دبي كي يدير أعماله منه، وكان لا بد أن أكون معه في المكتب كي أتدارك أي بادرة تبدر عليه، و وجود (أسيل) في حضني هو ما يمنع أي أذية لي، فالأطفال الرضع محصنون من أذية الجآن.

كلام مترابط جعل (كوليت) تكاد تصدق، وجعلت تحديق في عيني (نوف) الواسعتين فلم ترَ فيهما إلا صدقاً، حتى قالت (كوليت) لنفسها: ما أجمل عينيك يا (نوف) غير أن عيوني خضراء وأنت لا! ثم تداركت نفسها و استسخفت تفكيرها و قالت:

- ولماذا سنة؟

تههد (نواف) وقال بعفوية:

- حتى يعود الشِعْرَى!

- ماذا؟

سألت (كوليت) باستغراب فقال هو:

- هكذا قال لنا الشيخ، كلام لم نفهمه عن تعامد نجوم وطاقات  
كواكب، خلاصة ما فهمناه أن الطاقة السالبة لتلك العشيقة بدأت مع  
تعامد الشروق الاحتراقي لنجم الشِعْرَى وستزول مع عودة تعامده، على  
أن يبتعد (نواف) عن الرياض كي يمنع طاقتها عن النشاط من جديد.

- وما الذي يجعلني أثق في تلك القصة؟

- وماذا ستخسرين؟ من جعلك تصبرين الشهور الماضية يجعلك  
تصبرين مثلها لبقية العام، فلتؤجلي أي قرار لكِ حتى ذلك الوقت.

قالت (كوليت) في براءة:

- هل تتصحيني أن أعود إلى بيروت حتى يعود ذلك الشِعْرَى  
ولكي لا أثير غيرة تلك العشيقة؟

وفهمَ (نواف) زوجته وطريقتها في رمي الأسئلة التي تبدو عفوية  
بريئة لكنها فخاخ تختبر بها من أمامها، فقال فوراً:

- بل ابقِ بجواره، لعل وجودنا نحن الاثنتين يقوي فيه الحنين إلينا  
ويُضعِف تلك العاشقة الفاجرة!

صممت (كوليت) لثوانٍ ثم قالت:

- هل أصبحت حبيبتك فجأة يا (نوف) و تريدین مصلحتي؟

- لستِ عدوتي و لستِ أيضاً حبيبتي، أنتِ ضُرّتي ولكننا شركاء في مركبٍ واحد، و وضعنا القديم لم يكن يضرني سوى ما أقارنه من تضيق (نواف) عليّ و تساهله معك، ولكني أعتقد أن ذلك سوف يتغير بعد أن يعود إلينا (نواف)...على الأقل سيسمح لي بأن أعمل.



وفي اليوم التالي كانت (كوليت) تطير عائدة إلى بيروت، فلا معنى لأن تنتظر عودة الشعريّ في دبي تاركة أعمالها ومسئولياتها في لبنان.

وظن (نواف) أن العاصفة قد مرت و انتهت، لكن سحابات الحزن ودوامات الغضب كانت قد تجمعت في قلب (نوف)، و كلمة الطلاق التي كادت أن تند منه جعلتها تفكر في جدية:

لن أكون تحت رحمة كلمة يلقيها عليّ زوجي في لحظة غضب...

لن أعود (نوف)...بل سأبقى (نواف)...

حتى بعدما يعود الشعريّ!



## ( ٥٤ )

لم تصدق (سالمة) أن (جوزيف) يُلمح لها بهواه، إنها كانت تنظر إليه فقط كرفيق رحلة الأقدار هذه... اثنان يتعاطف كلٌّ منهما مع ظروف الآخر المشابهة لظروفه كما يتعاطف الخاضعون معاً لجلسات العلاج الجماعي، أما أن يتحول هذا إلى حب؟ بالتأكيد هو يمزح أو أن مشاعره تخدعه...

- بالتأكيد أنا لا أمزح، و لست قليل التجارب في النساء حتى تخدعني مشاعري.

- وكل هؤلاء النساء اللاتي كنّ في حياتك؛ قلت لهن أيضاً كلمات الحب؟

وابتسم (جوزيف) في نفسه، (فسالمة) التي يظنها فريدة من نوعها تتحدث كما تتحدث فتيات اليوم.

- هل تعلمين شيئاً يا (سالمة)؟ جميع من عرفتهنّ من الفتيات لم أقل لواحدة منهن كلمة أحبك، كنت واضحاً تماماً في علاقاتي ومختصراً مسافاتي.

- ولكن كيف يا (جوزيف)؟ كيف؟ لن أحدثك عما بيننا من اختلافات في كل شيء تقريباً فلعلّ هذا هو ما جذبك إليّ، ولكنني سأذكرك بظروفنا إن كنت قد نسيتها.

- بالتأكيد لم أنسها، لكن كما تعلمين نحن مخيرون في البقاء أو العودة...ابقي معي ولا تعودي للماضي.

- أنت؟ هل ستظل (يوسف) أم ستعود (جوزيف)؟

- سأعود (جوزيف).

ثم قال و هو يبتسم في ثقة:

- انتظري حتى أستعيد ذاتي الحقيقية: اسمي و جسدي و أموالي و حياتي التي في أمريكا...حياة رائعة أتمنى أن تشاركوني كل شيء فيها.

- ومن تراها أمامك الآن هي (سلمى)، يمكنك أن تنتظر الأشهر المتبقية ثم تعرض حبك عليها.

- لكنني أحببت عقلك أنت يا (سالمة) قبل أن أعجب بجسد (سلمى) الذي في تاريخي الكثير مثله بل والأحلى منه، أحببت حكمتك، نظرتك للأمر، إن لديك إجابة سهلة لكل أسئلة الوجود و الحياة المعقدة، أحببت عبقريتك التي تستوعب في شهر ما يحتاج غيرك لشهور طويلة كي يستوعبه.

- لكنني قُدرَ عليَّ أن أكون (سالمة) و يجب أن أعود (سالمة)، لا أستطيع أن أغير القدر المكتوب.

- ألا تقولي أن الله قد أعطانا الإرادة الحرة؟ إذن فنحن نستطيع الاختيار و نستطيع تغيير المكتوب و إلا كنا مسيرين غير مخيرين، ثم لعلك إن اخترت البقاء هنا يكون هذا هو قدرك المكتوب أصلاً.

سكتت (سائلة) فقد كانت حجته مقنعة تماماً، ثم قالت:

- فما بال (سلمى)؟ إن قراراً كهذا لا يخصني وحدي، لا بد أن توافق هي أيضاً، ولا أظن أنها بطريقة حياتها التي كانت تعيش بها هنا ستطيق حياة الماضي، أنا أظنها الآن تعد الشهور والأيام.

- افترضني أن (سلمى) أعجبتها حياة الماضي، أو أنها وقعت في الحب هناك فقررت البقاء، هل كانت لتستأذنيك؟ أم ستختار لنفسها ما تريده فحسب؟

فكرت (سائلة) في حيرة ثم قالت:

- لكن الصواب أن يتصرف الإنسان بناءً على قناعاته هو لا على قناعات غيره.

- حتى إذا كنت لا تريدني أو تخافين من حجم اختلاف ما بيننا، فكري في نفسك يا (سائلة) وفي مستقبلك هنا.

- أقسم بالله لك يا (جوزيف) أن كلامي ليس رفضاً لك أو خوفاً منك، إنني معك أكون على راحتني و أحس كأنك كل أهلي، لكن (سلمى) ما ذنبها؟ إنها بمثابة ابنتي فكيف أكون أنا نية هكذا معها؟

وأحس (جوزيف) بخبرته الواسعة في النساء بالحيرة الحقيقية التي فيها (سائلة) فقال ضاغطاً على مشاعرها:

- كيف تتركين المستقبل إلى الماضي؟ كيف تدفين موهبتك بعد أن رأيت النور؟

- ليس بالمستقبل الرائع كما تظن، هي فقط مجرد تكنولوجيا واختراعات استوردناها منكم، لكن الواقع أليم والحياة كلها توتر وأمراض نفسية لم نكن حتى نسمع عنها.

أجاب (جوزيف) بحماس:

- وقلت لك إن ما أرسمه لحياتنا من أحلام إنما أرسمها في أرض الأحلام... سنتزوج وتهاجرين معي إلى أمريكا و تختارين الدراسة التي تحبين، لا تضيعي وقتك الآن في محاضرات كلية (سلمى)، بل عليك من الآن أن تحدد أي المجالات التي قرأت فيها تستهويك أكثر فنخطط لدراستك لها في أمريكا، فلنبدأ من الآن في التخطيط لمستقبلنا هناك.

- وأنت يا (جوزيف)؟

- ماذا عني؟

- أنت تعلم أنني مسلمة ولا يمكن أن أتزوج إلا من مسلم، هل ستقبل أن تعتق الإسلام؟ أنت أصلاً لا تؤمن بوجود أديان!



## (٥٥)

لا . هذا غير ممكن طبعاً .

فكرت (سلمى) في بالها ...

لا يمكن أن أقع في الحب هكذا، وأين؟ هنا في الماضي في زمنٍ غير  
زمني وكيانٍ غير كيانٍ؟

ما الذي دهاني؟ حتى (توحيدة) لا تكف عن النظر لي بطرف  
عينها وهي تبتسم في خبث، ألهذا الحد تفضحني عيناى؟

ألهذا الحد لا أكفُّ عن التفكير فيه طوال الوقت؟

ولماذا؟ هل لجماله اليوسفي؟

أنا لست بهذه السطحية، و سبق وأن تعاملت في أسفاري خارج  
مصر بل وفي مصر مع من لا يقلون عنه وسامة وجاذبية .

هل ما أشعر به رد فعل عاطفي حيال ظهوره في ذاك الموقف  
العصيب كفارسٍ منقذٍ يركب حصاناً أبيضاً؟

لكن فرسه كان أحمر اللون!

ألهذا الحد تفيض مشاعر الأنثى تجاه البطل الذي يلفها بثياب  
الأمان؟

لكني لست عاطفية لهذا الحد .

أسبب حديثه العذب و كلامه الشيق عن أسفاره؟

كان ذلك ليفتن غيري من الفتيات ممن لم تسافر معشار ما سافرت.

أم بسبب ثقافته و حبه للأدب؟

فلمستُ بقليلة الثقافة حتى أنبهر بكلامه هذا.

لأنه مسَّ ذلك الوتر في قلبي والذي كان قد أصابه العطب منذ صدمتي في (هشام) فبدأ الوتر يعزف من جديد؟

لماذا أصلاً أحاول تبرير ما أشعر به؟ بل لماذا أقاوم مشاعري بكل تلك القوة؟

لا بد أن أعترف أنه قد هزَّ كيأتي بقوة... نعم يجب أن أعترف أن ما كنت أنكره من أن الحب شرارة تدلع فجأة في القلب كان حقيقةً أنا الآن أكتوي بنارها.

لكن ماذا بعد؟ هل سأجرؤ على هذا القرار؟ وهل سترضى جدتي (سائلة)؟

هل سأتحمل أن أعيش باقي حياتي في حدودته سالف العصر والأوان هذه؟

وضحكت وهي تفكر:

أستطيع وقتها أن أجني مالاً طائلاً وأنا أتنبأ للناس بما سوف يحدث في المستقبل.

لماذا أصبحت فجأة لا أضيّق بحياة الناس هنا ولا عدت أعتبرها  
بدائية بل وصرت أعدد مزاياها في نفسي؟

لكن... من قال أن (عبد الحميد) أعجب بي أصلاً؟ من قال أنه  
سيقدم للزواج من أرملة وهو البكر الذي لم يسبق له الزواج؟  
ولماذا أكثر من ترديد اسمه كأنه نغمٌ عذبٌ فوق شفّتي؟

لا... لا... ما أفكر فيه بعيد عن المنطق وما أشعر به مجرد فورة  
مشاعر فجرتها شهامته و وسامته، أراهن أنني لو رأيتَه ثانيةً سينطفئ  
ذلك الإعجاب المراهق.

نعم... لا بد أن أراه مرة أخرى حتى أطفئ تلك النار التي اندلعت  
في غير تنورها وأصرف العفريت الذي حضر في غير محله... ولكن  
كيف؟

إنها العفريته (منيرة)، يمكن أن أكرر معها المشوار السابق، لقد  
ألمحت له أننا نتمشى عقب كل درسٍ من دروسي، وذكرت له مواعيد  
وأيام الدروس ، فإما قابلته بالفعل في الموعد المتوقع فأنظر كيف يصنع  
قلبي تجاهه، وإما أن لا يحضر فأفهم أنني أعيش أوهاماً من جانب  
واحد، فيكون طرد هذه الأوهام أيسر.

ما هذا التفكير يا (سلمى)، من قال لك أنهم يفكرون الآن كما  
يفكر عشاق ما بعد قرن ونصف؟

العشاق هم العشاق في كل مكان وزمان، منذ عنتره وعبلة إلى  
قيس وليلى إلى روميو وجولييت إلى أحمد ومنى!



ها قد وصلنا أنا و (منيرة) إلى نفس نقطة ذلك اليوم، بعد أن  
كررنا أنا وهي ورفيقاتنا نفس النزهة السابقة، لابد الآن أن نقف أنا  
وهي نتحدث قليلاً في انتظار أن يظهر أو لا يظهر، لايمكن أن أصرف  
(منيرة) وأقف بمفردي فأبدو كالمهوفة عليه، ولابد أن أصطنع أي  
مواضيع أكلم فيها (منيرة) في انتظار ظهوره، الحمد لله أن الشرثرة  
فطرة في لسان النساء لا تحتاج لمجهود.

لماذا يبدو الوقت متجمداً لا يتحرك؟ يبدو أنه لن...

يا ربي، هل هذا هو؟ نعم هو بحصانه يتراءى من بعيد و يتجه  
ناحيتنا، لا بد الآن أن أصرف (منيرة) لكن بعد أن يرانا معاً.

- (منيرة): لقد سقط الشال مني، يبدو أنني فقدته عند شجرتك  
التي تصرين على اقتطاف أوراقها.

- هيا بنا نرجع لنستعيده.

- أنت أخف مني، اركضي في طلبه و أنا سأنتظرك هنا.

وبالفعل انطلقت (منيرة) تحجل حجلتها المفضلة، وها هو (عبد  
الحميد) يقترب منها حتى تميزت ملامح كلٍ منهما لعين الآخر فنظرت  
له (سلمى) بابتسامة سريعة ثم تصنعت الخجل و أسدلت خمارها على  
وجهها.

- كيف حالك يا (سائلة)؟

- كيف حالك أنت يا (عبد الحميد).

ابتسم وقال:

- أراك ما عدت تخافين الذئاب.

- ليس بعد أن إطمأنتت أن هناك من يتصدى لهم ببندقيته.. هل

تأتي عصر كل يوم في هذا المكان أم أنها مصادفة؟

ابتسم (عبد الحميد) لما فطنه مما وراء سؤالها ثم قال:

- عندما آتي رشيد أحب أن أتمشى قبل الغروب هنا أحياناً، لكن

يبدو أنني أحببت ذلك المكان فصرت آتية كل يوم.

اخضبَّ وجه (سلمى) بالحمرة حتى أحست بحرارته تلفح خمارها

ثم استجمعت نفسها و قالت:

- لكنك لا تلبث أن تسافر تاركاً المكان و رشيد كلها.

- يبدو أن المكان و رشيد وأهلها قد ملكوا عليَّ أمري حتى ما

عدت أشتهي السفر الكثير، وإذا اضطررت لسفرٍ ما فأحب

أن أصطحب هذا المكان معي.

- وكيف تصطحب مكاناً معك؟ هل هذا ممكن؟

- قولي لي أنتِ إن كان ذلك ممكناً أم لا.

وضحكت (سلمى) ضحكة خفيفة و كتمت صوتها كي لا تفضح  
نبض قلبها أمامه، وقالت:

- أظن أن الحاج (محمد البكري) أقدر مني على إجابة هذا  
السؤال.

وحمدت الله أن ظهرت (منيرة) وهي تحمل في يدها الشال الذي  
سقط منها عمداً في البستان، فقالت:

- (منيرة) قادمة ولا بد لي أن أنصرف.

- وإجابة السؤال؟

- إجابته الآن عندك.

ومضت إلى حيث وقفت (منيرة) تراقبهما من قريب، فلما جاءتها  
أعطتها شالها وقالت لها:

- أليس ذلك الشاب هو صاحب الذئب؟

- نعم هو، لما رأني أنتظرك وحدي جاء ليطمئن أن  
ليس هناك مكروه.

- إمممم؛ يبدو أنني مدينة بالاعتذار للشال.

- اعتذار للشال؟ كيف ذلك؟

ردت (منيرة) بخبث:

- كنت أُلومه على سقوطه منكِ لكن يبدو أنه كان ضحية مثلي!
- يا لكِ من عفرينة سيئة الظن.

●●●

## ( ٥٦ )

تجمّد (يوسف) و (سعيد) في مكانيهما لدقائق طويلة وكأن شريط الزمن قد علق بهما على تلك اللحظة، وأخذ (سعيد) ينظر في بلاهة إلى من يظنه (جوزيف) ولكن يحس الآن و كأن روح (يوسف) قد تلبسته، ثم قطع (سعيد) الصمت الطويل وأعاد شريط الزمن للدوران وقال:

- أختك (سارة)؟

رد (يوسف) وهو يبتلع الكلمات داخل فمه وبعد أن تحول للغة الإنجليزية مرة أخرى:

- كأنها أختي و أنا فقط أرد غيبتها.
- وهل ما قلته عنها يعيها من وجهة نظرك كأمركي؟
- أقصد أنه يعيها بمقاييسكم أنتم.
- وهذه الكلمات المصرية الفصيحة؟ و كلامك معي كأنك تعرفني من قبل وتعرف شخصيتي ومبادئتي؟ و معرفتك بالكثير من حياة (يوسف) و (سارة)؟
- عادي...هذه مجرد كلمات عربية أحفظها من زياراتي الكثيرة لبلاد عربية.
- لكنك لم تلاحظ أن أسئلتني الأخيرة كانت بالعربية وبرغم ذلك أجبتني، وأنني الآن أكلّمك بالعربية أيضاً!

بهت (يوسف) ولم يدرِ بماذا يجيب، فقال (سعيد) بحذر:

- أأنَّكَ لأنت (يوسف)؟

تهتد (يوسف) وقال لـ (سعيد) بالعربية:

- اجلس وسأقص عليك القصة كلها!

وبعد أن استغرق قرابة الساعة في حكاية قصته كان طوالها (سعيد) فاغراً فاه كأنه يستقبل الكلام من خلاله وليس من خلال أذنيه، ثم قال:

- وهذا يفسر تلك التغيرات والتصرفات الغريبة التي طرأت على (يوسف) الذي في مصر، والمقالب والأفكار الشيطانية التي لم أعدها فيك أبداً.

رد (يوسف) وقد تحولت ملامحه إلى الغضب:

- وأنا الآن يفترض بي أن أقتلك أو على الأقل أضربك ضرباً مبرحاً جزاء ما قلته على (سارة).

تلعثم (سعيد) واحمر وجهه خجلاً وقال:

- هذا كلام مزاح، مجرد تهيوأت أنخيل فيها أن البيئة حول الإنسان وثقافتها السائدة تجعله...

قاطعه (يوسف) وقال:

- هل كنت حقاً تحب (سارة)؟

زاد وجهه (سعيد) احمراراً وقال:

- أقسم لك أنه كان حباً مكتوماً في صدري و لم أحاول حتى أن أصارحها به لأنني أعرف ظروفه وأنني لن أقدر على الزواج و...

قاطعه (يوسف) مرة أخرى و قال:

- عندما نعود إلى مصر يكون لنا حديثاً آخر في هذا الموضوع.

صاح فيه (سعيد):

- نعود؟ هل قلت نعود؟ هل تتوي فعلاً أن تترك ما أنت فيه؟

رد (يوسف) باستغراب:

- هل تريدني أن أبقى (جوزيف) كما أنا؟

- هل فقدت عقلك؟ تسوق لك الأقدار كل ذلك النعيم فتركه بكل بساطة وغباء؟

ضيق (يوسف) من عينيه وقال:

- هل تريدني أن أغتصب حياة الرجل؟ أمواله وحياته بل وجسده

أيضاً؟ مالك يا شيخ (سعيد)!

طأطأ (سعيد) رأسه و قال:

- إنه اختبار عسير حقاً.

ثم ابتسم وقال:

- أعد له أمواله واحتفظ بهذا الوجه الجميل.

ابتسم (يوسف) وقال:

- أشكرك على هذه المجاملة وأذكرك أن الحال من بعضه.

- أنا أتحدث عن جد، هل حقاً تنتوي العودة إلى مصر؟ ألم يكن حلمك الهجرة إلى أمريكا؟ كيف تترك هذا الحلم و تعود إلى كابوسك القديم؟

- أنا الآن أدخرت ولا زلت أدخر مبلغاً محترماً من المال يضمن لي أن أبدأ حياة طيبة في مصر؟

- وهل المسألة مال فقط؟ ألا ترى فرق الحياة في كل شيء؟... كل شيء! إن حياة الموظف العادي هنا أهنأ من حياة المليونيرات عندنا، ألا تسير في شوارعهم يا رجل؟  
- و (جوزيف) ما ذنبه؟

- (جوزيف) وأهله بل وسائر الأمريكان الآن كلهم في الأصل مهاجرون مستعمرون لهذه الأرض من أهلها الأصليين، اعتبر نفسك مهاجراً أوروبياً أخذت مكان هندي أحمر!  
- وأمواله؟ بل ماذا عن جسده؟

- أرسل له كل أمواله فقد كونها بجهدده وهي من حقه، أما حكاية الجسد والجنسية فلا يد له فيها، هو وُلد بهما، أنت تعرف رأيي؛ الإنسان مواطن عالمي، تاريخ الأرض كله هجرات قبائل و شعوب، كل

شعوب أوروبا الحاليين هم شعوب هاجرت منذ قرون و استوطنت مكان غيرها...قبائل ساحت في أوروبا و استعمرت أرض من كانوا قبلهم، منهم من جاءت من أقصى شمال أوروبا أو وسطها أو من غرب آسيا بل ومن الهند أحياناً...اليابانيون الذين يسكنون آخر أطراف الأرض ليسوا هم أهل اليابان الأوائل و إنما شعب آخر يسمى (شعب الأينو) لم يبق منه إلا بضعة آلاف...كل الأمريكان السود هنا أُختطفَ أجدادهم من أفريقيا، لو خيَّرت واحداً منهم الآن لما اختار أن يعود لأرض أجداده... الجنسية مجرد ورق وجواز سفر، كل أعراق الأرض اختلطت ببعضها، جسد جوزيف هذا ستجد فيه عرق من الجرمان أو الواندال أو الهون أو الأنجلوسكسون بل ربما هو خليط من كل تلك القبائل الأوروبية القديمة، أنت نفسك بل كل مصري ستجد فيه عرق سامي أو حامي أو تركي، الفراعنة لم يبق منهم إلا الآثار حتى لغتهم انقرضت، الإنسان مواطن عالمي والحدود من صنع أهل السياسة.

- وماذا عن ذاتي أنا؟ كيف سأعيش بهذا الفصام في ذاتٍ بغير جسدها؟

- هل من فقد ذراعه أو تشوه وجهه في حادث يفقد ذاته؟ ألا يجري بعض الناس عمليات تجميل تغير ملامحهم بالكلية؟ أنت (يوسف) في أي جسد كنت، وحالك هذا قدرٌ تغير و رزقٌ جديد لك أن تقبله أو أن تركله بقدمك.

- وأمي وأختي؟ هل سأغترب عنهما للأبد؟ أنا لا أطيق أن أحرم منهن.

- دع الأمر لي، أنا مستعد أن أسافر لأشرح لهما ومعني شريط فيديو مسجل منك باللهجة المصرية تطعمه بالأدلة التي لا يعرفها سواكم لتؤكد كلامي، ثم قم باستقدامهما إلى أمريكا كما فعلت معي، وعلى الأقل بذلك نضمن ألا يؤذيها (جوزيف) أو ينتقم منهما بحيلة من حيله تلك.

فكر (يوسف) ثم قال:

- إنك لغويٌّ مبين، لقد كنت أغلقت باب ذلك التفكير منذ البداية وأنت الآن تعيد إيقاظ الشياطين في عقلي.

- هذا لأنك طوال عمرك بطيء التفكير ونظرتك للعالم تحت قدميك و غارق في بحور الفلسفة النظرية حتى وصلت إلى الخامسة والثلاثين من عمرك ولم تنجح في شيء سوى أن بعثت تلك القلادة. ثم أخذ يزين له:

- اختراعي الآن اقترب من الظهور إلى النور، وعمماً قليل ستبدأ تجربته على المتطوعين، أنت تعرف ما يقوله خبراء شركة الأدوية عنه وتوقعاتهم له بأن يكون طفرة عقارية لا تقل عن طفرة الفياجرا أو البنسلين، تخيل أننا نؤسس سوياً شركة لإنتاجه وتسويقه، تخيل حجم الثروة التي تنتظرنا...فكر ولا تُضِعْ الفرصة فلم تتبق إلا أشهر قليلة!



## ( ٥٧ )

قرارٌ ليس سهلاً ذلك الذي تتويبه يا (نوف)..قالت لنفسها .

وليس أمامك إلا شهور قليلة لاتخاذ الجواب النهائي الذي لا رجعة فيه، ستودعين أنوثتك و أمومتك بعدها إلى الأبد .

هل سينسيك الإرث الذكوري من جسد (نوف) كل ذكريات اللون الوردى ولمسات الحرير و الحناء؟

هل ستعوضك مشاعر الأبوة تجاه (أسيل) عن أحاسيس أمومتك نحوها؟

أكثر ما يغيظني أن (نوف) لم يفكر للحظة في أن يحتفظ بثوبه الجديد بينما لا أعتز أنا بهذا الثوب قدر اعتزازه هو بثوبه .

لا يهم...لن أخسر بقدر ما سأكسب؛ الحرية...القوة...الاستقلالية؛ هذه بعض مكاسب فقط، و لكن الأهم أن يرى (نوف) كم خسر بطمعه وأنانيته، و أنه أضاع الفرصة التي يتمناها كل أزواج وزوجات العالم في الوصول إلى قمة الانسجام و الذوبان كما وصلنا .

يا ربي...ما هذا التفكير؟ لا يمكن أن أتخذ قراراً كهذا كمجرد ردة فعل تجاه (نوف)، لماذا أضعه دائماً في عقلي و محور تفكيري؟ يجب أن أتخذ قرارى لنفسي و بنفسى المجردة والمستقلة .

سأبدأ من الآن في تعويد نفسي على التأقلم على هذا الوضع للأبد، ستكون شهور اختبار.

لقد أتقنت الكثير من خبايا وأصول العمل، لا حاجة إذن ل (نواف) في العمل، بل لا حاجة لنا بكل هذا الكمّ من المشاريع وطموحات التوسع، سأكتفي بالاحتفاظ وإدارة ما هو قائم، وكل مشروع له إدارته المسؤولة عنه، و يتولّى متابعتهم جهازنا المحاسبي المركزي، ويكفيني أن أتابع الخطوط العريضة والحسابات النهائية واتخاذ القرارات العاجلة.

لقد حلّت بذلك معضلة متطلبات العمل التي اضطررتي للاستعانة (بنواف)، فليتفرغ هو لرعاية (أسيل) كأى أم صالحة!

- ماذا؟ لا داعي لنهايي إلى المكتب؟ ماذا تقصدين؟

- أقصد أن (أسيل) بحاجة إلى مزيد من رعايتك، المربية لا تهتم بها إلا إذا أحست برقابتك المستمرة عليها، وأنا قد ألممت بكل خيوط العمل في يدي.

سكت (نواف) و أخذ يدقق في عينيّ (نوف) التي بادلتها نظرة بنظرة، فقال لها:

- ما خطبك يا (نوف)؟ ماذا يدور في رأسك؟

هزّت كتفيها لأعلى و قالت:

- لا شيء، لقد اقترب موعد عودتنا وأريد أن أعيش دور الرجل بحذافيره في الشهور القليلة تلك... وفرصتك أنت أيضاً أن تمارس دور الأنتى والأم كاملاً.

- وهل نبتت تلك الفكرة فجأة في رأسك؟ أم أنها ردة فعلك تجاه ما كان لنا مع (كوليت)...أنا غير موافق على ذلك.

- للأسف لقد أخذت قراري، وأخبرت العاملين في المكتب أن السيدة (نوف) لن تداوم معنا بعد اليوم وستكون كل المراجعات معي كما بالسابق، لا أظن أنك ستحب أن تكسر كلامي أو تضطرنني لأن أجعل الأمن يمنعونك من الدخول.

بهت (نواف) وهو لا يصدق ما يسمع، فأكملت (نوف):

- و أرجوك ألا تثير المشاكل - في المكتب أو في البيت - فأضطر لإعادتك إلى الرياض.

- ما خطبك يا (نوف)؟ ألم نكن قد تجاوزنا كل المشاكل و بدأنا حياة جديدة؟

نظرت له بحدة و عتاب ثم قالت:

- جيد أنك ما زلت تتذكر ذلك، و بالتأكيد تتذكر من منّا أفسد هذه الحياة الجديدة وعليه أن يتحمل تبعات ذلك.

- إذن فأنت تعاقبينني!

ردت عليه بتهكم:

- لا سمح الله يا زوجي العزيز.

ثم أكملت بجديّة:

- إنما هي خيارا لنا الحرة ومن بدأ طريقاً فليكملمه .

انتبه (نواف) لكلماتها الأخيرة ففكر ثم قال :

- ماذا تتوین بالضبط في نهاية العام يا (نواف)؟

سكتت لشوانٍ ثم قالت :

- لا أنتوي إلا ما أجده خيراً لنا جميعاً .



أحياناً يهياً لـ (جوزيف) أن (سالمة) تتهرب من حبه الذي يعرضه عليها فتتججج بمصير (سلمى) وبالاختلافات التي بينهما وبعقبة الدين التي تضعها أمامه .

وأحياناً يظن ظن اليقين أنها تبادلته نفس الشاعر، تفضحها في ذلك نظرات عينيها إليه المليئة وداً وارتياحاً، وأن ما تقوله ليست معوقات تضعها وإنما عقبات تناقشها معه كي يتجاوزها سويّاً .

إنها من قوة الشخصية لتقولها بصراحة: أنا مجرد زائرة من زمن بعيد و أنت في نظري حفيد أحفادي... لقد أنهت هي من قبل صداقات (سلمى) بكل الشباب بكلمة واحدة...

قال (جوزيف) لنفسه...

أما أن تناقش ما تناقش وأن تسألني كم فتاة قلت لها كلمات الحب، بل و تقرأ باهتمام الأوراق التي جمعتها لها عن الدراسة في أمريكا وتشاهد الأفلام الأمريكية كي تتعرف على الحياة فيها؟ فهذا معناه أنها على أقل تقدير تفكر فيّ وفيّ عرضي بكل جدية .

أنا أصلاً (كجوزيف) أتعجب من قلبي وتعلقه بها، صحيح أنها جميلة وخفيفة الظل جداً ولا أمل حديثها، لكنها واحدة من عشرات وربما مئات - لا أذكر عددهن أبداً - الفتيات اللاتي عرفتهنّ، ومنهن من كانت أخف ظلاً أو أمتع حديثاً، ومنهن الفاتحات اللاتي زينت صورهن أغلفة المجلات، فلماذا (سالمة)؟

هل كما قلت لها من قبل إن الدونجوان عندما يقع في الحب فإنه  
يقع بعقله لا بقلبه؟ أم أنها مغامرة فريدة أن أتزوج فتاة جاءت من  
الماضي البعيد؟

مغامرة لم ولن يقوم بها أحدٌ سواي!

أن يكون عندك ما ليس عند أحدٍ غيرك، فذلك إحساس فائق  
النشوة و الزهو.

لكني فعلاً وجدت في (سالمة) ما لم أجده في كل من عرفت من  
فتيات، وجدت فيها سلاماً نفسياً و تصالحاً حقيقياً مع الذات، وجدت  
فيها حضناً دافئاً برغم أنني لم ألمس حتى يدها، وجدت عندها  
وضوحاً في الرؤية وأجوبة كثير من الأسئلة التي كانت تعصف بذهني،  
حتى و ن لم أقتنع بأجوبتها كل الاقتناع؛ إلا أن كلامها مترابط ونظامها  
متكامل ليس فيه تناقض ولا ثغرات.

لكني أشفق عليها و على نفسي مني، أخاف تقلباتي، أخشى أن  
تكون نزوة أفيق منها بعد فترة.

أحس وكأنها تشدني إلى الماضي أكثر مما تعيش هي معي  
الحاضر.

وحتى الإسلام الذي صارحتني بوجود تحولي إليه كي تتزوج مني  
- ويرغم أنه إجراء شكلي لا يهمني كثيراً - إلا أنني غير مرتاح إليه،  
صحيح أنها أقتنعتني بأن للسماء يد و اتصال مع الأرض إلا أنني لم  
أقتنع بعد بصحة أي دين، فضلاً عن أن أعتنق أكثر هذه الأديان غربة  
عن ثقافة العصر...

- ولماذا يجب أن أتحول للإسلام؟

- لا يمكنني كمسلمة أن أتزوج من غير ديني.

- هذه شكليات تجاوزتها الأيام، الدين مكانه قلب أي إنسان فحسب، الدنيا تغيرت جداً يا (سالمة) و تجاوزت الماضي كثيراً.

ردت عليه بكل عفوية وهي تنظر للأفق البعيد:

- لا شيء تغير، لا جديد في هذه الدنيا.

رد عليها مصعوقاً و عيناه تتسعان كأنهما فنجاني قهوة:

- ماذا؟ أنت تقولين ذلك؟ أنت من رأيت الفروق والتغيرات بعينيك؟

حولت نظرتها إليه و قالت:

- ولذلك أعني تماماً ما أقول، شكليات، كل ما تغير في الدنيا مجرد شكليات لكن الأساس واحد، فقط طريقة تعاطي الناس مع الأمور والتي يظنونها قد تغيرت بينما لم يتغير منها سوى مظهرها السطحي، قل لي أنت ماذا تغير؟

قال وعيناه تدوران في الهواء:

- انظري لكل ما حولك وقارنيه بالماضي.

- لذلك أقول لك لم يجد جديد، الناس كانت تتقل بالدواب فصارت تتقل بالمركبات و الطائرات لكن السفر هو السفر، كانت تبيع وتشتري بالذهب ثم بالنقود و أخيراً بالكروت الممغنطة لكن البيع

والشراء واحد...الناس منذ قديم يأكلون ويتزوجون ويبنون البيوت والمدن ويربون أبناءهم ويزرعون ويتاجرون وقيّمون الصناعات ويكونون المجتمعات و يضعون لها القوانين وأنظمة الحكم، ما الجديد إذن؟ مجرد تغيير في الشكليات.

حتى أنظمة الحكم مبادئ الفكر الحديثة كلها أصلاً قديمة، حتى الديمقراطية والشيوعية وضعت مبادئها منذ قرون بعيدة، أقصى التزمّت الديني وأقصى الانحلال الخلقي عرفهما التاريخ منذ آلاف السنين، كل المعاملات المالية - بل حتى فكرة و معاملات البنوك - هي معاملات قديمة جرى تطوير أشكالها، حتى أنواع الترفيه بل حتى الألعاب الأولمبية فكرة قديمة، حتى مجالك الفني الذي أبدعت فيه يا (جو) له جذور تاريخية من المسرح أو اختراع القصة أو رسم الشخصيات الخرافية، أنت فقط أضفت له تقنيات التكنولوجيا، حتى النوادي عرفتها معظم الشعوب، كل أنواع الفنون لم يضاف هذا العصر إليها فنّاً واحداً سوى السينما التي هي مجرد تطوير لفن المسرح القديم... أقول لك شيئاً؟ سمّ لي نشاطاً واحداً جديداً تماماً طرأ على البشرية منذ مئات السنين البعيدة!

فكر (جوزيف) وطال به التفكير و لم يفلح عقله للوصول إلى جوابٍ واحد، فغير مسار السؤال و قال:

- لكن عصرنا هو عصر التوير، عصر الانفجار المعرفي والعلمي، عصر الاتصال بلا حواجز، امتزاج كل الحضارات و الثقافات، كل شيء على مائدة واحدة أمام الجميع، بضائع الدنيا في سوقٍ واحد والفرز

بينها على قدم وساق، والبضائع الجيدة تطرد الرديئة، حتى أصبحت الدنيا كلها تقريباً على ثقافة واحدة...ملابس واحدة... لغة عالمية واحدة...ذوق واحد، كثير من الأفكار و الثقافات واللغات ماتت و غيرها في الطريق لأن يموت، فلن يبقى إلا ما يصلح للحياة أو بعض ما يحافظ عليه أهله كطقوس بعض الأديان و فنون و آثار و إبداعات فنانهم.

- ومن قال أن هذا هو نهاية المطاف، قد يأتي غدٌ قريب يُسِف فيه كل ذلك نسفاً، بل إن هذا العصر لم يقدم أي فكرٍ جديد...أي فلسفة جديدة، كل ذلك اقتاتته عصركم من عقول أصحابها الذين ماتوا منذ مئات السنين، حتى فكر هذا العصر و فلسفته سُمي بما بعد الحداثة؛ لأنه ببساطه لم يقدم شيئاً سوى نقده لمرحلة الحداثة التي لم تقدم شيئاً هي الأخرى يستحق أن يطلق عليها اسمه!، هذا عصر لم يقدم فكراً جديداً فُصّب كل جهده في تطوير التقنيات و تطبيقاتها و وسائل الراحة والرفاهية، لكن لا يلبث الناس أن يملؤا ذلك الفراغ ليجثوا وراء الفكر والفكرة...وراء الأصالة.

- إذا خيرتك بين العيش في ماضيكِ أو في هذا العصر - بغض النظر عني أنا - فماذا تختارين؟

صمتت (سالمة) في حيرة ثم قالت:

- لست أدري، كلا الزمنين له ميزاته و عيوبه، الماضي يطغى عليه إحساس الظلام والرتابة والحاضر تملؤه أحاسيس الضياع والتوتر، الماضي كان يحتاج للإفاقة والحاضر يحتاج بوصلة و علاجات نفسية،

إن عدت للماضي فلن أفقد أبداً ما في الحاضر من تكنولوجيا ولكن  
سأفقد ما فيه من أنهار علم ومعرفة، وإن بقيت في الحاضر هذا  
فسأفقد دفء الماضي وسلامة نفسي...

سكتت لثوانٍ ثم نظرت في عينيه وقالت:

- أنت تستطيع أن تكون عامل الترجيح بينهما ولكنك أكثر حيرة  
وضياعاً مني!

●●●

## ( ٥٩ )

ما كنت أظنه مستحيلاً قد حدث، وما كنت أسخر منه وقع لي،  
وما كنت أضيّق بمقامي فيه صرت لا أريد أن أتركه، والعصر الذي  
كنت أعدّ الأيام حتى أعود إليه أصبحت لا آبه له، والمشاعر التي  
كنت أقرأ عنها فأضحك من سذاجتها أنا الآن غارقة فيها، وخالة  
(عبد الحميد) جاءت لتشرب القهوة مع والدتي، والحياة هنا التي  
كنت أراها فيلمًا من أيام السينما الصامتة دبت فيها ريشة الألوان  
وصدحت فيها أعذب الألحان...ولكن...

ولكن ماذا بعد؟ إن قراراً مصيرياً يجب اتخاذه الآن، أبقى أو أعود؛  
تلك هي المعضلة...إنه قرار لمصير جدتي (سالمة) أيضاً وكيف لي أن  
أعرف رأياها؟

و (توحيدة) تصدح بزغرودة طويلة عذبة رقص قلبي بها طرباً،  
وجاء (عبد الحميد) ووالده بعدها بيوم لزيارة والدي رسمياً، وامتلاً  
عقلي حيرةً بمشاعر متضاربة، واستأذن (عبد الحميد) من أبي أنه  
سيحتاج للسفر إلى الشام لمتابعة تجارة له هناك و منها إلى القدس  
ليُهيئ بيته للعروس، بينما سيتابع أبوه وإخوته إعداد بيته هنا فيكون  
لنا بيتان؛ في رشيد وفي القدس...

ماذا؟ القدس؟ هل يمكن أن يرى (عبد الحميد) يوماً أن الحياة في  
القدس أفضل فيقرر أن نستقر هناك؟ إنهم جميعاً بالطبع لا يعلمون  
شيئاً عن المصيبة التي في انتظار القدس خلال قرنٍ من الآن.

وسرحت (سلمى) بخيالها؛ إنها الآن في موقف صعب، وجواب نهائي يجب اختياره لها و (لسالمة) ولأبناء هذا الزواج، سواء أكنت أنا الزوجة أم (سالمة)...

لكن المستقبل يقول إن (سالمة) عاشت و تزوجت وأنجبت في مصر حتى جئتُ أنا إلى الدنيا، إذن فاحتمال الاستقرار في القدس غير وارد...

لكنك الآن يا (سلمى) تقررين بإرادة حرة و تختارين ما قد يغير المستقبل، فما العجب إذن أن يغير (عبد الحميد) الماضي هو أيضاً و يقرر الاستقرار في القدس؟

لكن من قال أن زوج جدتي (سالمة) الذي أتى منه نسلها هو (عبد الحميد)؟ لعله كان شخص آخر وأنا الآن أغير الماضي برمته وأصنع مستقبلاً مختلفاً، لو استطعت فقط أن أدرك باقي مستقبل (سالمة) فأعرف من تزوجته؟ لو استطعت سؤالها هي شخصياً عن طريق (حسن) و (برقان)؟

لكن (سالمة) الآن لا تدرك إلا ماضيها الذي كان قبل لحظة الاستبدال، وباقي ماضيها لا تعرفه هي الآن، وإنما أنا التي أكمله الآن وأقرر اختياراته.

وأحست (سلمى) بعقلها يكاد يعطب من ذلك التفكير المتداخل الذي لا تعرف أين الماضي فيه وأين المستقبل، فقررت أن تحصر تفكيرها في الحاضر فقط، حاضرها هي مع (عبد الحميد).



## ( ٦٠ )

لا أظن أن كلام (نوف) الأخير معي مجرد تلميح أو محض تهديد  
أو سحابة غضب تأخذ وقتها وتتمر

قال (نوف) في نفسه...

(نوف) أخذت قرارها و بدأت في تنفيذه، تتصرف في كل شئون  
العمل بدون الرجوع إليّ في أي شيء، جمّدت كل المشاريع التي تحت  
التخطيط أو في إطار دراسة الجدوى، و اكتفت بمتابعة المشاريع القائمة  
بالفعل.

لن تصدق أن (جويل) هي من تنقل لي الأخبار الآن أولاً بأول، وأن  
(كوليت) هي من طلبت منها أن تساعدني ظناً منها أن تغير (نوف)  
وقراره بمنع (نوف) من العمل إنما هو شطحة من شطحات سحر  
(نوف).

الميزة الوحيدة في قرار (نوف) بمنعي عن العمل أنها جعلت  
(كوليت) تصدق حكايتي لها عن عشيقته الرياض السفلية.

طلبت (نوف) من مكتب الرياض كل ملفات المشاريع التي تحت  
إشراف (كوليت) وأخذت تدرسها ورقة ورقة، لم تتخذ فيها أي قرار  
حتى الآن، فحق الإدارة بيد (كوليت)، وأي عقود تصرف ببيع أو شراء  
أو تحرير شيكات كبيرة يجب أن يوقع عليها (نوف) و (كوليت) معاً.

تتعامل معي بتحفظ و تحفز في آنٍ واحد، ولا ترد على معظم مكالمات (كوليت) والتي برغم الإهانة التي وجهت لكرامتها تتصل بمن تظنه (نواف) للاطمئنان عليه...كم أنت عاطفية وحنونة أيتها المرأة. لدرجة أن (كوليت) تستقصي الأخبار مني...أنا و (كوليت) و(جويل) أصبحنا جبهة واحدة!

بدأت (نوف) في تكوين صداقات و علاقات اجتماعية خاصة بها هنا في دبي، لم تعد تشاورني في أي شيء.. احتججت... تعاركت...صرخت، و هي تمضي في طريقها لا تأبه بشيء..

(لا أنتوي إلا ما أجده خيراً لنا جميعاً)...كلماتها تلك ترنّ في أذني طوال الوقت.

سأكون مغفلاً إن لم أفهم أن (نوف) قد قررت قلب المائدة على الجميع والاحتفاظ بكيانها الجديد حتى بعد عودة ذلك الشِعْرَى... مصيبة...

ما العمل إذن؟ كلما واجهتها إما أن تتكرر وإما أن تجيبني بسخرية واستخفاف وتحدي.

هل أفصح الموضوع بين أهلي وأهلها ليضغطوا عليها؟ سيقع الخلاف بينهم في إرسالي إلى مستشفى (الأمل) للصحة النفسية أو إلى أحد الشيوخ لرقيتي وإخراج الجنّ من جسدي، لكن سيثقف الجميع على جنوني.

واستمر (نواف) يفكر لعدة أيامٍ حتى هداه تفكيره لما رآه الحل  
الأمثل...

هل تريد أن تلعب دور الرجل؟ إذن فلتلعبه بجميع قواعده!



- أين ذهبت يا (نواف)؟
- سافرت...ملكت الوحدة وال الفراغ بعد تقاعدي الإجباري  
فوضعت نفسي في أول طائفة.
- و (أسيل) معك؟
- وهل تستغني الرضيعة عن أمها؟ طبعاً معي فلن يكون هناك  
من هو أحسنّ عليها من أمها.
- ووقعت كلمات (نواف) على قلب (نوف) كالغصة، فهمت أنه  
يضغط على مفتاح الأمومة عندها، فقالت:  
- وأين ذهبتم؟
- لم أقرر بعد، ولكن تأكدي أنني لن أكون في السعودية كلها.  
ردت بتماسك:  
- ومتى ستعود؟
- لم أحدد، شهرين...أربعة...سنة...عدة سنوات...لست أدري،  
لكنني سأعود إلى الرياض عندما تبلغ (أسيل) سن المدرسة!

- هل تظن أنك تلوي ذراعي (بأسيل)؟

- بالطبع لا، أنتِ الآنِ رجلِ تتمناه ألف امرأة بل ومن جميلات العالم، ستتزوجين وتتجبين غيرها، أما أنا فبالتأكيد لن يمسَّنِي رجل كما تعلمين سأعيش من أجل (أسيل)، فاطمئني عليها بالأول ولا تفكري فيها كثيراً.

دمعت عينا (نوف) رغباً عنها لكنها تماسكت و قالت:

- أفهم من ذلك أنك ستحرمني منها للأبد؟

- لا أحد يجرؤ أن يحرم طفلة من أمها، إلا إذا استغنت الأم عن أمومتها... بالإذن يا (سيد نواف)! فلا زالت رحلتي طويلة.

ثم أغلق الخنط بينما انفجرت (نوف) في وصلة بكاء عنيفة.



## ( ٦١ )

لم تكن الحيرة بين الحاضر والماضي هي الحيرة الوحيدة في عقل  
(سالمة)، إنها منذ أسبوع ترى كل ليلة في منامها ما تراها رؤيا حق  
وليست مجرد أضغاث أحلام.

ترى (سلمى) تجري في الحقول في رشيد نحو (هشام) الذي يجري  
نحوها هو أيضاً وكلُّ منهما ينادي على الآخر باسمه في شوق و لهفة...

هشام...سلمى

ولما اقتربا من بعضهما ظهر فجأة (عبد الحميد) وصرخ فيها؛  
احذري يا (سلمى) هذا ليس (هشام)، وفجأة تحول (هشام) إلى ذئب  
مفترس حاول أن يهجم على (سلمى) لكن (عبد الحميد) قبض حفنة  
من طين الأرض ورماه بها فبدأ يحترق وأخذ لهبه يصعد في السماء  
ولكنه جذب (سلمى) معه في صعوده، فأخذت تصرخ وتنادي علي (عبد  
الحميد) الذي قبض حفنة طين أخرى ورماه بها فتحول إلى دخان  
تصاعد حتى ابتلعه طبق طائر كان يرابض في السماء، بينما سقطت  
(سلمى) بين ذراعي (عبد الحميد) و قد تحولت ملابسها إلى ملابس  
العروس، وانطلقت حولهم الزغاريد من كل مكان.

يا... (عبد الحميد) مرةً أخرى؟

قالت (سالمة) لنفسها...

أول مرة رأيته فيها كانت مصادفة عندما كنت مع أمي نزور أمه في بيتهم، وجاء هو من طلب كان يقضيه في الخارج ، كنت وقتها لم أناهز الـ ١٢ بعد ، ومنذ أن وقعت عيناى عليه وقع في قلبي من وقتها، كنت لا أترك أمي تزور أمه مرة إلا وذهبت معها، كنت أحياناً أراه وأحياناً أخرى يكون في بعض أسفاره برغم أنه كان لا يتجاوز الـ ١٥ من عمره وقتها، لا أنسى المرة التي نظر لي فيها من بعيد و ابتسم ابتسامات ذات معاني، لكنه أمه ماتت بعدها وانقطعت زيارات أمي لبيتهم و سافر هو في سفرٍ طويلٍ من أسفاره، وما لبث قلبي أن تعافى من جراحه فلا مجال لغلبة مثل تلك المشاعر في أيامنا تلك.

يا الله...تدور الأحداث وتتعامد إشراقات النجوم وتقلب بنا الدنيا وتسقط (سلمى) في بئر الماضي لتقع في حب (عبد الحميد) مكاني؟

لكن القلب الذي ينبض في صدرها هو قلبي أنا... (عبد الحميد) ذكرياتي أنا...أنا أولى به حتى وإن قرر المقام في القدس التي يكثر من زيارتها فلن أتردد لحظة حتى بعد أن عرفت ما عرفت من مصير القدس!

ثم جاءت الحيرة الثالثة من (جوزيف) الذي يغريها بأحلام أرض الأحلام لتزدهر مواهبها هناك فتكون عالمة أو فيلسوفة كبيرة و ليست مجرد أنثى تلد و تُربى أولادها ثم تموت ويواربها تراب النسيان.

(جوزيف) الآن نفسه في وضع لا يحسد عليه!

بدا متوتراً وهو يخبرها برؤيا مزعجة يراها هو أيضاً كل ليلة تقريباً، لقد تعلم ألا يهمل الأحلام و الرؤى:

- أرى (يوسف) وهو يخلع ثيابي التي في أمريكا ليعطيها لي، وتبدأ ملامح كل واحد منا تتبدل لتعود إلى ملامحه الأصلية، لكن يظهر (سعيد) فجأة و ينهره عن فعل ذلك و يجذب الثياب بعنف ويلقيها فوق (يوسف) فتعود ملامحنا كما كانت، ثم يرميني (سعيد) بحفنة من كيماوياته فتتشق الأرض من تحتي لأسقط بمؤخرتي فوق قمة الهرم المدببة و أستيقظ لحظتها كل مرة من منامي و أنا أصرخ من الألم!

- الرؤيا لا تحتاج إلى تعبير، لكنك كنت مطمئناً لصدق (يوسف) معك بل وبدأتما في التعاون سوياً.

- أنا لا أثق في (سعيد) هذا، بالتأكيد هو من لعب في مفاتيح عقل (يوسف).

- ومن أدري (سعيد) بحقيقة ما حدث لك و (ليوسف).

- أنت لم تتعامل مع (يوسف) إنه إنسان طيب حد السذاجة وإلا لما فكر منذ البداية في أن يعود إلى هنا بعد نهاية العام! لا بد أنه سقط سقطة في الكلام مع (سعيد)، و سعيد هذا ذكي جداً و طموح جداً.

- ولم لا تتصل (بيوسف) وتنتهي حيرتك وتوترك.

- بالفعل اتصلت به، صحيح أنه فئد لي مخاوفي، لكني لست

ساذجاً، ليس هذا (يوسف) الذي أعرفه، صوته مختلف ونبراته مرتبكة وكأنه طفلٌ صغيرٌ يتهرب من مصيبة فعلها، بل إنه وبدون مناسبة أخذ يحدثني على أن أموالى فى الحفظ والصون وأنه مستعد لأن يبدأ فى تحويلها من الغد، وهذا الكلام بالذات أكد لى مخاوى فى صدق أحلامى.

صمتت (سالمة) تفكر ثم قالت:

- يجب أن تكون مستعداً لكل الاحتمالات، حتى إذا اكتفى فقط بإعادة أموالك إليك فهى ليست بالشىء القليل، وحتى إذا افتقدت حياتك فى أمريكا فهذه الأموال الطائلة تستطيع أن تهجر بها إلى أمريكا أو حتى كندا كمستثمر.

- إلا هذا الاحتمال، لا يمكن أن أراضى بهذا الوجه وذلك الجسد، شكلى وجسدى أهم من أموالى ومن حياتى فى أمريكا و من أى شىء آخر.

وفكرت (سالمة)...

من حق (جوزيف) أن يغضب إذا فقد وجهه وجسده اللذان يعشقهما، لكنه غاضب حد الاكتئاب.

وأنا التى يفترض أنها هى الأنثى لم أهتم كثيراً لذهاب صورتي والذى هى بحمد الله أكثر جمالاً من صورة (سلمى) التى سأكمل بها حياتى إن اخترت البقاء مع (جوزيف)، ولم أهتم كذلك بوضع معيار الشكل فى مفاضلتى بين حياة الحاضر و الماضى.

(جوزيف) يريدني أن أستغني عن كل ماضي... ويغتم هو لفقد  
مظهر واحد من حاضره...

(جوزيف) نرجسي بشكل كبير، الشكل والمظهر والإبهار أهم عنده  
من الجوهر، هذا النرجسي يصعب عليه أن يحب إلا ذاته أو ما يدور  
معه في الفلك حول ذاته، بل من العسير عليه أن يتنازل عن أن يكون  
ساحر نساء...

يبدو أن الاختيار أصبح أسهل الآن!



## ( ٦٢ )

- مصيبة يا (يوسف)..مصيبة!
- نظر (يوسف) بدهشة إلى (سعيد) وقال:
- ماذا دهالك؟
- psycho chemical weapon!
- نظر له (يوسف) في بلاهة و قال:
- ماذا؟
- أعني سلاح كيميائي نفسي...هناك من يعبث في التركيب من ورائي، مجرد إحداث تغيير صغير في أوضاع الجذور الحرة التي في التركيب الكيميائي للعقار، والنتيجة أن العقار ينقلب من علاج لمراكز الإدمان في المخ إلى سلاح كيميائي يدمر مراكز الإدراك في المخ.
- وكيف عرفت ذلك؟
- في البداية نهتني (نيكول) أنها تشك في وجود فيروس أو حصان طروادة يتجسس على الكمبيوتر عندنا، ثم زادتي وقالت أنها تشعر أن هناك من يتعقب خطواتنا حتى أحياناً ونحن ننتزه، لم آبه كثيراً لكلامها فأنا أعرف ما عانتة في أيامها الأخيرة وأعرف أنها تعشق أفلام الجاسوسية والمغامرات، ولم يكن

لدي ما أخاف عليه فمعظم أسرار العقار تعمدت ألا أدونها  
وإنما موجودة هنا...

وأشار (سعيد) إلى رأسه، ثم أكمل:

- لكنني بدأت أنتبه لما حولي فلاحظت أن المعمل لا يكون كما  
أتركه كل يوم، هناك من يعبث بأدواتي و عيناتي، بل وبدأت ألاحظ  
نقصاً - وإن كان ضئيلاً - في ميزان و كميات العينات، وبحيلة بسيطة لا  
مجال لشرحها لأنك لست متخصصاً عرفت أن المتسلل يجري تجارب  
مختلفة عما أجريه أنا... هذا ليس له إلا التفسير الذي قلته لك؛  
هناك من يراقبنا من وراء الستار ويعمل بشكل موازٍ معي لتطوير ذلك  
السلاح.

سكت (يوسف) و بدا عليه التركيز الشديد ثم قال:

- وهذا يفسر ذلك الرجل الذي جاءني منذ أيام ولم أهتم بكلامه  
وقتها كثيراً.

- أي رجل؟

- رجل خمسيني يبدو عليه الوقار الواضح و الغموض و شدة  
الأناقة و يتكلم بكل ثقة و قوة، و طلب مني تحديد موعد قريب للنقاش  
في شراء حق الملكية الفكرية و إنتاج عقارك، ساعتها لم أهتم كثيراً  
بكلامه فأنت تعرف أننا مشغولون باللمسات الأخيرة لإنتاج الفيلم.

قال (سعيد) في غضب:

- ولماذا لم تخبرني وقتها يا (يوسف)؟

رد عليه بحدة:

- قلت لك أنني كنت مشغولاً بالفيلم، وشيء طبيعي أن تهتم شركة أو هيئة بشراء عقارك، وما أنت قد عرفت أن هناك من يبحث وراءك، فماذا أنت صانع؟

هدأ (سعيد) وإن بدا عليه التوتر ثم قال:

- لست أدري إن كان المهتم السري بالعقار مخابرات أو هيئة أو منظمة، لكن ما أدريه بكل تأكيد أنني لن أسمح بتحول عقاري من نعمة إلى نقمة، من دواء إلى مخدر أو إلى سلاح سيستعمل أول ما يستعمل ضدنا.

- ولماذا يذهب تفكيرك لهذا؟ لماذا لا يكونون باحثين آخرين من الشركة و يقومون بتجارب تأكيدية على تجاربك؟

- أنت طيب لدرجة كبيرة، ولماذا يُجرونها من ورائي؟ خوفاً على جرح مشاعري مثلاً! وهؤلاء الذين يراقبونني؟ وهذا الذي جاءك مفاوضاً؟ هل يختبرون ولاءنا مثلاً؟  
سكت (يوسف) وهو يفكر ثم قال:

- وهل تظن أن أيًا ممن تخمنهم سيتركوك وشأنك؟ فضلاً عن أن يتركوني أنا أيضاً؟

وساد الصمت المتوتر بينهما لدقائق حتى قال (سعيد):

- اسمع، لقد كانت فكرة سوداء أن زينتُ لك البقاء هنا، لا بد أن نخرج منها بأقل الخسائر و أكبر المكاسب، وأول هذه المكاسب هو الخروج برأسي ورأسك سليمين.

- وعقارك؟ والفيلم الذي شارف على الاكتمال؟ والشعرى الذي قارب على العودة...سامحك الله يا (سعيد).

صاح (سعيد) محتجاً:

- وما أدراني أن عقاري كان ليجذب حوله القراصنة؟ وهل قرار عودتك أو بقائك كان ليغير من الوضع شيئاً أو ليطردهنا الجواسيس؟ لا تخلط الأوراق ودعنا نفكر في رويّة...لا بد من حيلة تجعلنا نخرج بأقل الخسائر!



## ( ٦٣ )

(سلمى) الآن مخطوبة لـ(عبد الحميد)، وسفره إلى الشام والقدس جاء لها كحبل إنقاذ من حيرتها، عليها أن تحسم قرارها فيما بقى لها من أسابيع.

كان سفره أيضاً اختباراً لحبها أن تفيق منه كما أفاقت من قبل لما سافر (هشام) إلى أمريكا، لكن ذلك لم يحدث و لم يزد لها بعده عنها إلا شوقاً إليه، و لا يكاد يمرّ يوم دون أن تُخرج صورته الزيتية التي رسمها له أحد الرسامين الأجانب المحترفين في الشام و أهداها (عبد الحميد) لها قبل سفره.

إذن فالحب لا يزال عنصراً في المعادلة، وموافقة (سالمة) العنصر الثاني، والقدس هي العنصر الثالث، وخرج الاختيار بين الماضي والمستقبل تماماً من المعادلة، فما عادت تحس بالفرق وتساوت عندها مميزات وعيوب الزمنين، بل اعتادت (سلمى) حياتها التي هي فيها وصارت تستمتع بما كانت تضيق به من قبل، حتى بجلسة القرفصاء المؤلمة في أعمال المنزل أو في المرحاض!

لكنها حافظت على رسالتها في تعليم و تثقيف من حولها من فتيات، والتهام ما في مكتبة جدها من كتب، حتى جاء يومٌ فوجئت فيه ب (خضرا) تحضر درسها... لقد أتيت في أوانك يا (خضرا) فما أحسبك جئت إلا برسالة.

وكما توقعت (سلمى) فقد انصرف الجميع بعد الدرس وبقيت (خضرا) في الانتظار، وسكتت (سلمى) تماماً وكأنها كانت تتوقع بقاء (خضرا) بعد الدرس لتقول لها شيئاً، فبادرتها (خضرا) وقالت:

- هل وصلت إلى قرار؟ أم لا زالت الحيرة تأكل قلبك؟

لم تشأ (سلمى) أن تدعي عدم الفهم فقالت:

- المشكلة أن الأمر لا يخصني وحدي، ولو قررت البقاء فلا بد من موافقة جدي.

- وبافتراض أن جدتك وجدت حياتها في المستقبل ولا تريد أن تعود، فهل سيَسهُلُ بذلك عليك الاختيار؟

ردت (سلمى) على الفور:

- بالتأكيد!

ثم سكتت قليلاً وقالت:

- ولكن حكاية القدس هذه تقلقني، صحيح أننا لن نعيش - لا أنا ولا حتى أولادي - حتى نرى النكبة، وربما ألا يقرر (عبد الحميد) الحياة هناك أو أقنعه أنا بالاستقرار الكامل هنا، لكن مجرد القلق ينهشني.

- مع أنه يفترض أن تكون معرفة الإنسان للمستقبل عامل أمان له، وأنه سيعرف أين تكمن العقبات فيتجنبها وأين تكمن المفانم فيغترفها.

- أو يحدث العكس، فيرى العقبات و يسير نحوها رغمًا عنه، ويرى المكاسب ولا يستطيع اغتنامها مهما حاول، ولذلك أوقنت أن معرفة الإنسان لغيره شيء سيء، لكنني لست أدري ماذا أصنع بذلك الجنين الذي دبَّ في قلبي.

- وإذا قلت لك أن (عبد الحميد) كان جنينًا يومًا ما في قلب (سالمة) وهي بعدُ لا تزال على أعتاب المراهقة؟

- غريبة! لم تخبرني ذاكرة جدتي أي شيء عن ذلك.

- لأنه لم يكن بينهما إلا نظرات خاطفة وابتسامات، وعدا ذلك فهي مشاعر دفنت في حنايا قلبها لما باعدت بينهما الظروف وقتها.

هزّت (سلمى) رأسها بينما أكملت (خضرا):

- وإذا قلت لك أن (جوزيف) يعرض على (سالمة) حبّه والهجرة إلى أمريكا وأنها مترددة لأسباب كثيرة منها ظهور (عبد الحميد) في الصورة مرّة أخرى؟

تعجبت (سلمى) و قالت:

- أو عرّفت جدتي بحكايتي مع (عبد الحميد)؟

ابتسمت (خضرا) ولم تعلق فقالت (سلمى) في استنكار:

- ومترددة في الهجرة إلى أمريكا؟ و مع شاب مثل (جوزيف)؟

- إذن لو أنتِ مكانها فمن تختارين: (عبد الحميد) والقدس؟ أم  
(جوزيف) وأمريكا؟

سكتت (سلمى) فقد أصبحت تفهم لغة (خضرا) وما ورائيات  
كلامها، فكل كلام لها وراءه كلام، وأنها تفتح لها أبواب الاختيار من  
جديد.

وهنا استدارت (خضرا) لتتصرف، ثم وقفت وقالت:

- بالمناسبة؛ (يوسف) عاد ليتردد في أمر عودته إلى جسده وبلده  
فأصبحت الخيارات الآن أكثر وأصعب!

•••

## ( ٦٤ )

دخل (أورهايون) قبو فيلته حيث وجد (داهار) ينتظره ووجهه يتهلل ويشع بالنار، لكنها نار البشر و الفرحة، وما إن رآه (داهار) حتى هتف بكل إجلال وهو ينحني بحركة مسرحية :

- الأستاذ الأعظم والرئيس المبجل ( نسيم أورهايون )!

وكانه يحيي ملك من ملوك العصور الوسطى.

قهقهه (أورهايون) وهو يقول:

- تعجبني خفة ظلك يا (داهار)، ممن اكتسبتها يا عفريت!

رد (داهار) وهو يضحك هو أيضاً:

- هل تصدق إذا قلت لك أنني اكتسبتها من المصريين؟ لقد كانت

فترة بناء الأهرامات من أجمل أيام حياتي، فبرغم ما كابده العمال في بنائها من مشاق لكن كانت تخرج من النكت منهم ما يجعلني أستلقي على قفاي من الضحك.

- وبالتأكيد وراء سرورك هذا خبرٌ مفرح غير استعراض ما عندك من خفة ظل.

رد (داهار) بكل ثقة:

- بالتأكيد، ولو كنتُ إنسياً لطلبت منك مليون دولار ثمن هذه البشارة.

قال (أورهايون) باهتمام:

- ها ؟ هات ما عندك .

- قلادات (حسن) و (برقان) الثلاث...نزلت طاقاتهم كثيراً .

صاح (أورهايون):

- أنقسم؟

ضحك (داهار) وقال:

- واللوات والعزى .

ثم دخل في وصلة ضحك و هو يقول:

- عن أي قَسَم تتحدث؟

سكت (أورهايون) ثم قال في اهتمام:

- حانت لحظة الانتقام، الآن تطير بين القلادات، وكل قلادة تصل

إليها تخاطرني بوجودك عندها كي أتلو من هنا طلسمها المعادي لها،

ليتني أستطيع رؤية وجه البرغواطي وإبنة وقتها .

وفي أقل من ساعة كانت القلادات الثلاث مطفأة!



## ( ٦٥ )

- والعمل يا (برقان)؟ بل كيف انطفأت القلادات أصلاً؟

هزَّ (برقان) رأسه في أسى وقال:

- ما أعرفه يا شيخ (حسن) أنها لا تطفأ إلا بتلاوة طلسم معادي،  
وما علمته أن (داهار) كان يطوف حولها في ذلك الوقت.

- إذن فهو (أورهايون) بكل تأكيد.

وهز رأسه في أسى و هو يقول:

- هل انتهى الأمر على ذلك النحو؟

وفوجئ بصوت والده يأتيه من خلفه و يقول:

- لا لم ينته بعد، لكنه صار أصعب!

التفت (حسن) و (برقان) إلى حيث يقف الشيخ (محمد) وراءهما  
فأكمل قائلاً:

- القلادات يمكن إعادة شحنها بشرطين؛ أن يتراجع من قرر  
البقاء في وضعه الجديد عن قراره، وأن يذهب بنفسه حاملاً القلادة  
إلى حيث عُثر عليها أول مرة فتستعيد نشاطها من جديد!

صمت الثلاثة يفكرون ثم قال (حسن):

- كلا الأمرين أصعب من بعضهما، فأن يتراجع من قرر البقاء  
عن قراره فهذا أمر ليس لنا فيه حيلة، والأصعب مسألة إعادة الشحن

هذه، لعل قلادة الهند هي الحلقة الأسهل، بل و لعل قلادة بابل يمكن إعادة شحنها بكثير من المغامرة من (يوسف) أن يسافر بها إلى هناك وهو في ثوبه وجسده الأمريكي هذا، لكن ماذا عن (سالمة) وقلادة القدس؟

رد الشيخ (البرغواطي) وقال:

- ولماذا تسافر (سالمة) إلى القدس؟ إن (سلمى) مالت إلى البقاء في الماضي أكثر بكثير مما مالت جدتها إلى البقاء في الحاضر، فلتسافر (سلمى) بها إلى القدس!

رد (حسن) في دهشة:

- إنها لن تسافر إلى القدس إلا بأن تقنع أسرتها بأن يسافروا لزيارة أهلهم هناك وهذا شبه مستحيل، أو أن تسافر زوجة (لعبد الحميد) وهذا إن حصل فمعناه أنها قررت ألا تعود.

رد الشيخ (محمد) وهو يهيم بالانصراف:

- دع الأمر لصاحب الأمر، وادعوا الله أن يلهم كل واحد من الستة بالصواب في قراره.



## ( ٦٦ )

- معنى خطتك هذه يا (سعيد) أنك قررت التخلي عن حلمك ومشروعك.

رد بأسئ:

- أتخلى عنه مؤقتاً خير لي من أن أتخلي عن مبادئى... لا يمكن أن أسمح لعقاري أن يتحول من نعمة للبشرية إلى نقمة عليها.

- لكن، هل نحن متأكدون من ظنوننا؟ أم أن القصص والأفلام قد شطحت بخيالنا ونظرية المؤامرة التي تعنتها قد جمحت بتفكيرك؟

- هذه هي مشكلتك يا (يوسف)، لا بد أن يخرق الشيء عينيك حتى تراه بوضوح، إما أن نتصرف الآن وبسرعة قبل أن يدركوا أننا نشعر بنواياهم، وإما أن نصل إلى نقطة كشف الأتعة واللعب على المكشوف، ووقتها لن نستطيع الفرار من أيديهم.

- ومتأكد من نجاح خطتك؟

- على الله، المهم أن تكون أنت متأكد من قرارك النهائي بالعودة (كيوسف) فالموعد قد اقترب جداً.

نظر له بعتاب ثم قال:

- لا تتس أنك أنت من زينت لي البقاء، والآن دعنا نراجع خطتنا، في البداية ستعود أنت إلى مصر بحجة زيارة والدك المريض فعلاً.

- بالضبط، وسأترك كل أوراق مشروعى وأسطواناته وعينات تجاربي هنا كي لا أثير أي شك.

- لكنك بذلك تترك للصقر ما يريد صيده من الحمام.

- حمام بلا لحم، مجرد جسد بلا روح، روح العقار أحتفظ بها هاهنا ...

ووضع أصبعه على عقله الذي أصبح يشير إليه كثيراً هذه الأيام،  
ثم أكمل:

- لم أدونها في أي ورقة ولا على أي أسطوانة، أحتفظها كما أحتفظ سورة الفاتحة، هل رأيت مسلماً يقرأ الفاتحة من المصحف!

هز (يوسف) رأسه و عقب قائلاً :

- وأنا سأجاري ذلك الرجل الغامض إن جاءني مرة أخرى و بل سأتفق معه على الأمور المادية، فأنا بالنسبة لهم (كجوزيف) لست إلا صائد صفقات و طائر مسافر يكره أن يتقيد بمشروع ثابت على الأرض.

- والأهم أن تفاوضه بصدق، أنا أعلم أنك مفاوض بارع لكنك ممثل رديء.

- أنت لا تترك أي فرصة تتقطني فيها إلا واقتصتها.

- هذا والله من خوفى عليك ليس إلا.

- لا تخف، هي أيام و يخرج الفيلم للنور و أسوي أموري المالية مع (جوزيف) ثم أطيّر بحجة البحث وراء قصة أخرى في بلد آخر.

- وأنا سأنتظر عودتك في مصر... (يوسف) جسداً وروحاً...  
ثم أكمل في أسى:

- ليتولني الله وليعوضني خيراً عن حلمي الذي لم يولد بعد، يكفيني أنني قطعت شوطاً كبيراً في تجاربه، وأتحت لي الفرصة والإمكانيات لتجريب معادلاته معملياً، ومن يدري؟ فلعل الفرصة تأتي مرة ثانية لإنتاجه.

سكت (يوسف) لدقيقة ثم قال:

- ستكون حسن النية كثيراً إن ظننت أن الأمر سينتهي ويُنسى بمجرد فرارنا.

- على الأقل أكون قد صنعت كل ما بوسعي وأديت ما يخلص ضميري.

- ليس بعد... هناك مهمة أخرى يجب عليك أن تؤديها!  
نظر له بدهشة:

- ما هي؟

- يجب أن تأتي معي لبابل في العراق!

رد عليه بدهشة أشد:

- ماذا؟ بابل؟ والعراق؟

- ألسنت من وسوست لي بالبقاء حتى انطفأت القلادة؟

هل تظن أنني بشكلي الأمريكي هذا أستطيع السفر

إلى هناك وحدي؟

ثم أكمل وهو يضحك:

- المهم أن تكون لا زلت تتقن اللهجة العراقية!

...

## ( ٦٧ )

أيام وليالي لم تذق فيهم (نوف) إلا طعم التفكير، فقدت شهيتها لكل شيء، تشعر وكأنها حجر سابح في الفضاء لا يعرف له هوية ولا يحدد لنفسه اتجاه سباحة.

تفتقد ابنتها...تفتقد ذاتها التي كانت متجسدة أمامها في شخص (نوف)..تفتقد حتى (نواف)، بل تفتقده بشدة!

تبكي كلما نظرت في المرأة فتراه أمامها ينظر إليها، لم تكن تدري أنها تحبه إلى هذه الدرجة...تعشقه لدرجة أنها تتحسس جسده الذي بحوزتها فتشعر أوصالها وتذوب حنيناً إليه، ثم لا يلبث حنينها إليه أن ينقلب غضباً عليه وعلى كل الرجال؛ لا يقدر أحدهم معنى أن تفنى أنثى في حبه فلا يذوب في كيانها كما تذوب هي في كيانه، وإنما يأبى إلا أن يسكب حبه في عدة كؤوس بجوار كأسها.

لقد أحسنت لي ذراعي يا (نواف)..سلبتني كل شيء بحركة واحدة، تعلم تماماً أن هرموناتك الفائزة في جسدي لن تصنع مني رجلاً مهما ألحّت عليّ وطأتها، ففي كياني أنثى وردية لا يمكن أبداً أن ترتدي الثوب الأزرق.

تدرك أن (أسيل) بالنسبة لي كمقلة عيني...لا تُستأصل ولا تُستبدل.

لكنه العند يا (نوف)..لن أستسلم بهذه السهولة، فأنت أكثر ضياعاً مني، ستعود يوماً ما بعد أن تتقطع بك السبل في بلاد الله، وبعد أن تياس من نجاح ضغطك عليّ...إنما هي معركة عضّ على الأصابع والخاسر من يبدأ بالصراخ!

وغرقت (نوف) وسط أفكارها ودموعها حتى بللت وسادتها...  
لا تدري هل ما تراه الآن هو منامٌ يأتيها في يقظتها؟ أم هو مشهدٌ حقيقي يتجسد لها في منامها!

هي بين بين...لكن ما تراه الآن واضحٌ وجليٌّ كأكثر لحظات حياتها وضوحاً .

تراه يدخل عليها غرفتها، ملامحه واضحة تماماً رغم أنها لم تراه من قبل، تسمع صوته في أذنيها وهو يقول لها:  
- السلام على من اتبع الهدى و العقل.

اعتدلت (نوف) في جلستها على سريرها بعد أن كانت ممددة عليه  
وقالت:

- من أنت؟

- أنا (محمد البرغواطي) يا ابنتي!

صرخت في دهشة و ذعر:

- من؟ وكيف أتيت إلى هنا؟

- جاء بي من أتى بكِ إلى هذا البلد وذلك الجسد .

نظرت له بغضب و قالت:

- ما حلَّ بي من هذه المصائب إنما هو بسببك و بسبب ابنك وعفريتك .

- وهذه التي تسمينها مصيبة هي ما تريدين البقاء فيها وتمتتين عن العودة منها .

اندهشت قليلاً و قالت:

- وهذه أيضاً تعرفها؟

لم يردَّ البرغواطي فأكملت (نوف):

- وأتيت كي تساعد (نواف)؟ أم لكي تتقذ قلائدك؟

- بل جئتِ لِكِي أسألكِ بضعة أسئلة، والأمر إليكِ بعدها فانظري ماذا تختارين .

نظرت له (نوف) مستفهمة فقال:

- لو استسلم (نواف) و التمَّ شملكِ معه ومع (أسيل)، فمن منكما أبوها ومن أمها ؟

صمتت (نوف) ثم قالت:

- هي بين أبويها على كل حال .

- فما بال إخوتها؟

دهشت و قالت:

- إخوتها؟ أين هم إخوتها؟

- أجيبني أنتِ على سؤالك؟ أين إخوة (أسيل)؟ ألا تشتاقيين إليهم؟

فطنت (نوف) لمقصد الشيخ من سؤاله فسكتت ونزلت دمعة خفيفة من عيناها و ثم تفاجأت بالشيخ يمدّ يده إلى غطاء سريرها الذي يغطيها ويرفعه بحركة مفاجئة فانكشف عن ساقها، فانتفضت (نوف) وهي تصرخ:

- هل جننت؟

فأجابها بهدوء:

- مما تخجل يا سيد (نواف)؟ ألسنت رجلاً مثلي؟

طأطأت (نوف) رأسها ثم رفعتها و الدموع تملأ عيناها وقالت:

- وهل يرضيك ما يصنعه معي يا شيخ؟ هل يرضيك طمعه؟ لقد دُبتنا في بعضنا كالسمن السائل في العسل، فأبى إلا أن يجرحني بل ويطلب مني أن أراضى ضرتي و أحتفظ له بها حتى يعود إليها .

- هل أسألك سؤالاً محرّجاً بعض الشيء؟

- تفضل .

- ماذا كانت نظرتك (لكوليت) عندما اختلتي بها؟ بل كم مرة اغتسلتي هذا الأسبوع؟

احمرَّ وجه (نوف) بشدة ثم قالت:

- أنا لم أقصر معه في شيء.

- ومن اتهمك بالتقصير؟ ولكن لماذا تتظن إلى الرجال نظرتك إلى النساء؟ (كوليت) برغم أنها ضرتك ولكن انظري كيف اشتهيتها لما صرتي رجلاً... آدم غير حواء يا (نوف).

- تقول ذلك لأنك لرجل مثله.

- أتدرين شيئاً؟ أنا لم أعرف في حياتي غير (أم حسن)، لكن هذا التوحيد ليس هو الأصل بين الرجال، فالله لم يخلق كل الرجال على غدد رجل واحد، وقلَّ بين الرجال من لا يعرف إلا زوجته ولا يرى غيرها، وصدقيني حتى العصفورين في القفص تقوم بينهما المشاكل أحياناً، وتأكدي أن كأس الدنيا لا يخلو أبداً من شوائب في شرابه ورواسب في قعره، فانظري إلى الجزء المملوء من كأسك بدلاً من أن تكسريه.

سكتت (نوف) وأطرقت رأسها وهي تقول:

- وماذا أصنع الآن يا شيخ (محمد)؟

- القلادة لا تزال في يدك، والشعرى لم يعد بعد، وهاتفك لا يزال

في جيبك.

وتناولت (نوف) القلادة في يدها وأمسكتها بقوة، ثم أغمضت  
عينها لثوانٍ ل تمنع دموعها من النزول ثم قالت وهي تفتح عينيها:

- ولكن يا شيخ (محمد)... شيخ (محمد) أين أنت ؟

ولم تجد (نوف) أحداً أمامها، وأفادت من حضرتها، فلم تدر هل  
كانت ترى ما تراه في منامها أم في صحوها؟ إنها لا تشعر أنها كانت  
نائمة بل وجدت نفسها متكئة على ظهر سريرها.

هل كانت تهيؤات أحلام يقظة؟ لا...إنها تمسك القلادة في يدها  
وطرف غطاء فراشها مكشوف عن ساقبها.

وهبت من فراشها وأسرعَت تبحث في غرفتها؛ النافذة موصدة  
والباب مغلق بالمفتاح من الداخل كما اعتادت أن تفعل كلما سافر  
(نواف)...إنها لا تشعر بالأمان إلا من حرارة أنفاسه تدفئ وجنتيها.

وتركت دموعها تهطل غزيرة هذه المرة، وأسرعَت إلى هاتفها  
تتصل (بنواف)، ورد عليها في أقل من ثانية و كأنه كان يتوقع اتصالها،  
وقبل أن تقول هي أي شيء بادرها قائلاً:

- لقد كان معي أنا أيضاً يا (نوف)!

وغرقا سوياً في وصلة طويلة من بكاء الحنين و نحيب الشوق!



## ( ٦٨ )

- دائماً ما تأتئين في الوقت الذي أحتاجك فيه يا سيدة (خضرا).
- ها...هل وصلتي إلى قرار؟
- كما قلت لي سابقاً، فالقلب الذي دق (لعبد الحميد) هو قلب جدتي، منذ أخبرتني ذلك وأنا أراه جدي بقدر ما أراه حبيبي، و (عبد الحميد) إنما أعجب وتقدم للزواج من (سالمة)، إنها الأقدار وقد جعلت لكل منهما نصيباً في الآخر.
- قلت لك سابقاً أنك الآن تختارين بإرادتك الحرة و...
- قاطعتها (سلمى) وقالت:
- أعرف ذلك، لكنه حاجز نفسي تولد عندي قبل كل شيء، كما أنني إن بقيت هنا فأنا ألغي بذلك كياني (كسلمى) وأذوب في قالب جدتي حتى وإن أصبحت الحياة هنا تروقني أكثر من المستقبل، لكن لا مناص للإنسان من أن يعيش أقداره وأيامه هو...
- وسكنت قليلاً ثم استطردت:
- لكنني سأعيشها من الآن فصاعداً بعقلٍ ونظرةٍ مختلفين.
- بالمناسبة؛ (سالمة) و (جوزيف) اتفقا أخيراً أن زواجهما ضرب من الجنون.

قالت (سلمى) بدهشة:

- كيف تعرفين هذه الأخبار يا (خضرا)؟

ابتسمت (خضرا) و سكتت ألا تعليق، فأكملت (سلمى):

- أنتِ غويطةٌ جداً...لم تخبريني بذلك إلا بعد أن أخبرتك  
قراري كي لا تؤثري عليه، و لكن صدقيني فأنا لم أقرر العودة  
رغبةً في (جوزيف)، إنني الآن أشعر بانعدام وزن، لا أجد نفسي  
لا معه ولا مع (عبد الحميد)، و لكنني أريد مساعدتك.

- و كيف أساعدك؟

- أنا الآن مخطوبة (لعبد الحميد)، وربما يقرر الأهل إتمام  
الزواج قبل عودة الشعري، وأريد أن أعرف منك جواباً نهائياً  
من جدتي في هذا الزواج، هل أتممه أم أفسخه؟

ردت (خضرا) في استنكار:

- هل ستتزوجين (عبد الحميد) و تمنحيه جسد جدتك و أنتِ  
فيه؟ أم ستتمنعين عنه حتى تعود (سالمة)؟

- لا هذا ولا ذاك! أنا لذي خطتي لكنها متوقفة على قرار  
جدتي...وعلى رحلة إلى القدس لا بد منها...وكل ذلك قبل  
أن يعود ذلك الشعري.



## ( ٦٩ )

- لا داعي لكل هذا القلق يا (جوزيف)، العقدة الأصعب في رجوعك تم حلها، و (يوسف) أخبرك أنه سيعود لأصله و لن يبق مكانك، بل واعترف لك صراحة أنه فكر بالفعل في عدم العودة، لكن أموراً أقوى دفعته لصرف النظر تماماً عن ذلك .

رد عليها والهم يكسو ملامحه:

- بل كانت هذه هي الحلقة الأضعف (فيوسف) بطبعه ليس مغامراً ليقرر تغيير حياته للأبد ويبقى في جسد (جوزيف)، كان سيتراجع وقت الجد ويخاف من ذلك التغيير الذي بلا عودة، ولكن بقيت الحلقة الأقوى؛ مسألة تنشيط القلادة يا (سالمة)...أن يذهب (يوسف) إلى العراق وهو في هذا الثوب الأمريكي لهي مغامرة منه، وأكد أجزم أن (يوسف) الآن يفاضل بين المغامرتين - أن يظل (كجوزيف) بقية عمره أو السفر إلى بابل - وبالتأكيد سيختار أهونها على طبيعته المستكينة غير المغامرة.

نظرت له متأمة ثم قالت:

- ألهذه الدرجة تشفق من فكرة أن تفقد ذاتك الأولى؟ ماذا ستفعل حين تشيخ و تفقد جمالك وشباب جسدك ولا أريد أن أقول إن أصابك حادث أو مرض لا قدر الله.

رد عليها بكل ثقة:

- في حالة الشيخوخة سأكون قد عشت في حياتي كل ما كنت أتمناه حتى الثمالة و الشبع منها، ثم أعيش ما في فترة الشيخوخة من جمال، فالشيخوخة لا تخلو من مميزات، أما في حالة المرض أو الحادث « لا قدر الله»

وأشار مبتسماً بأصابع يديه علامة ما بين قوسين وهو يكمل:

- فأنا أفضل الموت على أن أعيش عاجزاً أو مُشوّهاً!

دهشت (سالمة) من كلامه و قالت:

- يا ااه، ألهذه الدرجة تعشق ذاتك يا (جوزيف)؟

- ليس عشقاً للذات يا (سالمة) و لكنها حياة واحدة، فإما أن أعيشها كما ينبغي أو لا داعي لهذه الحياة أصلاً.

ابتسمت (سالمة) و قالت:

- إذن فهذا العام كان وقتاً مستقطعاً من حياتك كأنك دخلت في غيبوبة توشك أن تفيق منها.

- بالعكس...لقد تعلمت الكثير هذا العام، ورأيت من المعاني في الحياة ما لم أكن أراه، وجدت الله الذي كنت أبحث عنه، وأفتعتيني أنتِ أن الله يدُّ في الأرض ورسائل أرسلها لنا، وسيكون هدي في المرحلة المقبلة أن أفتش في هذه الرسائل حتى أصل إلى الرسالة التي تقنعني منهن.

وسكتا للحظات ثم قال هو:

- وأنت يا (سالمة)؟ هل هذا هو قرارك النهائي؟

ابتسمت و قالت:

- كما قلت لك، فإن رؤياي عن (سلمى) و (عبد الحميد) قد تغيرت في منامي، وصرت أرى أنني أنا التي تسقط من السماء بين ذراعي (عبد الحميد)...ولكن كما أخطرتني (برقان) فإن عودتي متوقفة على نجاح (سلمى) في إعادة حفز القلادة في بيت المقدس.

هز رأسه في أسى و قال:

- خسارة يا (سالمة)، أنت أكثر ما سأفتقده بقية حياتي، والخسارة الأكبر أن تدفني أنت مواهبك وعبقريتك في رعاية زوج وإرضاع أطفال.

- سيكون الأمر مختلفاً جداً هذه المرة، لن أروضهم حلياً فحسب، لقد رأيت وتعلمت بل ورضعت الكثير من حضارتكم هذه السنة، لكن أرضنا أخصب من أرضكم، تخيل لو زرعنا بذوركم الجديدة في أرضنا؟ سيكون نباتنا أفضل وأعظم فائدة بكثير، سأرضع أبنائي - بل وأبناء من حولي - بذور النور ليزرعوها حين يكبروا في الأرض الطيبة ليخرج نباتها حسناً خالياً من تشوهات عصركم.

ابتسم (جوزيف) وقال:

- أَلن ترضعيهم كراهيتنا ورفض ما عندنا؟

ابتسمت بدورها وقالت:

- المهم أن تتركونا أنتم لنزرع نباتًا مختلفًا عن زرعكم.

- أتدريين ما أتمناه الآن يا (سالمة)؟ أتمناه بكل صدق وبغير أن  
تفهمني ما يرييك مني؟

- ماذا؟

قال وعيناه تتضحان بنظرات الصدق بينما يغالب دمه أن يهطل:

- أتمنى أن أحتضنك ولو لمرة واحدة قبل أن تذهبي عني إلى  
الأبد!

ابتسمت (سالمة) ونظرت إلى الأرض ثم رفعت عينها وقالت:

- أن تعرف أن ذلك لا يمكن حتى وإن كان حضنًا بريئًا بلا ريبة،  
بل وحتى إن كنت أتمناه أنا أيضًا! ولكن هناك حل!

نظر إليها متسائلًا فقالت:

- سنغمض أعيننا معًا ونتخيل ذلك، على أن تقسم لي أنك لن  
تراني في خيالك إلا حضنًا بريئًا كأنني أمك.

- أقسم لك بالله على ذلك يا...أمي!

وأغمضا أعينهما سويًا، وسمح لدموعه أن تنزل بغير حساب.

## ( ٧٠ )

برجاء ربط أحزمة المقاعد، اقتربت طائرتنا من الهبوط في مطار  
(أحمد آباد).

مالت (نوف) برأسها على كتف (نواف) وقالت:

- لماذا أصريت على أن نساfer من الرياض إلى جدة ومنها إلى  
أحمد آباد، رغم وجود طيران مباشر لها من دبي؟

- أحببت أن نبدأ رحلة عودتنا من نفس نقطة التحول الأول، بل  
ولم أرد أن تكون فترة دبي وقتاً مستقطعاً من حياتنا.

ابتسمت وقالت:

- وكم تحب أن نمكث بعد تحولنا؟

غمز لها بعينه وقال:

- أطول مدة ممكنة...أريد أن نعوض حرمان العام كله.

ابتسمت في حياء وهي تنظر إلى الأرض ثم رفعت رأسها إليه  
وقالت:

- أما اشتقت إلى بيروت؟

قال (نواف) محذراً:

- (نوف)...هل بدأنا؟

- هذه المرة فهمتني خطأ، أنا فقط أسأل حتى أستغل أيام غيابك  
في تجهيز معرضي في الرياض.

وضحكا سوياً و عجالات الطائرة تحتك بمدرج أرض المطار.



## ( ٧١ )

كان يفترض بي أن أطلب من (جوزيف) نسبة أكبر من ١٠٪ من أرباح الفيلم.

قال (يوسف) لنفسه وهو يبتسم في غبطة...

أفكار الفيلم أساساً لم تكن لتأتيه لولا أن حلَّ مكاني وفي بيتي وفي حارتي.

وخبراء شركة بيكسار يتوقعون نجاحاً باهراً للفيلم...ستصبح من أصحاب الملايين يا (يوسف)!

ولكن - ويا للورطة - فإن حفل الافتتاح في غضون أيام قليلة، لقد حزن (جوزيف) لذلك كثيراً فقد كان يتمنى الحضور هو، ولكن مسئولو الشركة لم يجدوا أي مبرر لطلبي منهم تأجيل الحفل لأسبوعين، اليوم الواحد سيساوي ملايين، وعودة الشغرى لن تكون مبرراً وجيهاً عندهم للتأجيل، وإنما ستكون دليلاً يؤكد أن قصة الفيلم قد أثرت على عقل (جوزيف)!

حزن (جو) بينما ارتبكت أنا...فمطلوب مني إلقاء كلمة في الحفل بعد عرض الفيلم.

الأرباح المنتظرة والنجاح المتوقع قد واسيا (جوزيف) عن حضور الحفل لدرجة أنه تحمس وقال لي أنه سيكتب هذه الكلمة ويرسلها إليّ لكي ألقبها.

في البداية تنفست الصعداء لخروجي من هذه الورطة، لكنني بعد ذلك فكرت؛ الفيلم و الحارة وأبطالهما من حياتي أنا...الفيلم أقرب إليّ بكثير من (جوزيف).

وهكذا وجدتي أعدّ هذه الكلمة بنفسى...برؤيتى وفلسفتى أنا .

بينما (نيكول) مشغولة تماماً في إعدادات هذا الحفل...

اخترت بدلتى، واتفقت لي مع مركز التجميل الذي سيعيدني في أبهى صورة لليلة الاحتفال، واتفقت مع مصور له سمعته على جلسة تصوير لنشر هذه الصور على المجلات و صفحات تواصلى الاجتماعى. الحماس الذي عندها والفرحة التي تشرق في عينيها لا يكونان من مجرد صديقة!

إنها لا تملّ من تكرار البروفات لكلمتي في الحفل عدة مرات يومياً، وحمدت الله أن الكلمة نالت إعجابها و إن كانت قد استغريتها:

- من أين لك بهذا الكلام يا (جو)؟

ويوم الحفل كانت معي - منذ الصباح - خطوة بخطوة، وفي قاعة الاحتفال تلمع عيناها بدموع الفرح الصادق، وفي أثناء العرض تلتفت إليّ في كل مشهد لتتقل لي بتعبيرات وجهها تفاعلها مع المشهد .

وانتهى عرض الفيلم إيداناً بأن تضح القاعة بالتصفيق، وإيداناً لدموع الفرح أن تهطل أخيراً من عينيها، وإيداناً لي بأن ألقى كلمتي والتي لا أعرف كيف سألقيها في حين أن قلبي يصم أذناي من قوة دقاته .

لا أذكر كيف قلت كلمات الديباجة الأولى المعتادة والمليئة بالشكر لهذا والترحيب بذلك، و لكنني أذكر جيداً أنني ألقيت الكلمة نفسها في ثبات وثقة:

- الطفل الصغير لا يهتم أبداً بالنظر إلى نفسه في المرآة، لكنه عندما يبلغ المراهقة يهتم بمراقبة التغيرات التي تطرأ عليه، وفي شبابه الجميل يكثر من النظر في مرآته بزهو وإعجاب، ثم في منتصف عمره تتحول نظرة الإعجاب إلى قلق وهو يراقب ظهور تجعيدة هنا أو نبات شعرة بيضاء هناك، أما حين يهرم فإنه يعود كما كان طفلاً... لا يهتم بوجود المرآة!

عندما كنت صبياً صغيراً و كان والدي يصحبني إلى مدينة الملاهي كنت أحب دخول بيت المرايا لأضحك على الصور المضحكة التي تظهرني بها، لكنني اليوم و أنا أتجهز للحفل ذهبت إلى مركز تجميل لديه مرآة بلجيكي فاخرة مزودة بإضاءة قوية تظهر أدق التفاصيل.

لكن لماذا اعتبرت مرآة اليوم أصدق من مرآة الملاهي؟

ولماذا يهتم الشباب و الفتاة بالنظر إلى المرآة ولا يهتم الطفل ولا العجوز؟

هل لأننا نهتم بنظرة الناس إلينا؟ لكن ماذا لو كانت نظرة الناس كلهم خاطئة؟ وعقولهم تخدعهم؟ و كانت مرآة الملاهي - مثلاً - هي الصادقة؟

هل لو كانت أجسامنا نحن البشر في الحقيقة كما نراها في  
مرآة الملاهي؟ هل كنا سنضحك عليها؟ أم سنعتبر أن هذا هو الشكل  
الطبيعي لأي إنسان؟ وهل إذا جاءنا وقتها من الفضاء إنسان على  
شكلنا الحالي، هل سنضحك على شكله؟ أم سنتمنى أن نكون مثله؟  
ما هو المقياس إذن؟ هل هناك نموذج أعلى للجمال و الكمال؟ أم  
أن مقاييسنا النسبية هي الفيصل؟

أحياناً يكون ما تراه أنت جميلاً يراه غيرك قبيحاً، وما تراه  
مضحكاً قد يبكي عليه غيرك بحرقه.

الفرعون و الشاب الأوروبي و الأمير الذين ضحكنا على تصرفاتهم  
و ردود أفعالهم في الفيلم، لو كانوا لم يولدوا إلا في حارة الفيلم و في  
زمانها الحالي، كيف ستكون أحوالهم و تصرفاتهم؟

هل يمكنك أن تحكم على تجربة إنسانية بغير أن تعيش نفس  
ظروفها؟ هل يمكنك أن تدرك مقدار ما أنت فيه من تقدم أو تأخر  
بغير أن تقيس نفسك بغيرك؟

ماذا لو جاء أحفاد أحفادنا بمفاهيم جديدة و شاهدوا هذا الفيلم  
فاعتبروا أن ما عند أهل هذه الحارة من دفء إنساني واجتماعي أهم  
من أي تقدم تكنولوجي أو ثراء مادي؟ ماذا لو اعتبروهم بالتالي أرقى  
منا؟

أين هو إذن المقياس الحقيقي و المطلق للتقدم؟

يقولون أن مقياس أصالة الفن هو قدرته على الخلود عبر الأجيال  
باختلاف أذواقهم، فما هو المقياس إذن في أي تقدم آخر؟

هل يمكننا أن نجد هذا المقياس الحقيقي و هذه المرأة الحقيقية؟  
أم سيأتي علينا يومٌ نشيخ فيه فلا نهتم للنظر إلى أي امرأة!  
وانتهت بذلك كلمتي...

وخيم الصمت على الحضور لثوانٍ قبل أن يهبوا واقفين في  
عاصفة من التصفيق!

...

## ( ٧٢ )

- لقد غيرت الكلمة التي أرسلتها إليك تماماً يا (يوسف)؟

- وهل أعجبتك يا (جو)؟

- جداً، أنا لم أكن لأكتب مثلها، لكن المشكلة أنها حولت الفيلم من كوميدي إلى تراجيدي بل قل فلسفي.

ضحك (يوسف) و قال:

- هذا في حفل الافتتاح فقط، لكن العروض الجماهيرية ستخلو من هذه الكلمة بكل تأكيد .

ابتسم (جوزيف) و قال:

- أتدري؟ لو فاز هذا الفيلم بأي جائزة كبرى أو حتى بالأوسكار فسأعمل على أن يُلقى من يتسلم الجائزة نفس هذه الكلمة، إن لم أكن أنا الذي سألقيها .

- وهل ستدعوني أنا و (سعيد) لحضور ذلك الحفل؟

- سأدعوك أنت أما (سعيد) فلا أظن .

قهقه (يوسف) و قال:

- أعتقد أن غضبك منه سيزول عندما تعرف أنه سيسافر معي إلى بابل لإعادة تنشيط القلادة.

استغرب (جوزيف) وقال:

- ولماذا يسافر معك؟

- تخيل أنت؛ أمريكي أشقر يتجول في بابل بحثاً عن مغارة هاروت وماروت، بالتأكيد سيكون الوضع أأمن لو كان بصحبته شاب عربي يتكلم اللهجة العراقية بطلاقة.

- وهل وافق (سعيد) على هذه المخاطرة؟

- هذا أقل شيء يرد به الجميل لي و لك - على حد تعبيره - وإن كان عقاره لم يظهر للنور بعد .

- في هذه الحالة سأدعوه بل و سأدعو كل أسرته و أحبابه .

ضحك (يوسف) ثم قال:

- أتمنى وقتها أن نرى (نيكول) معك ولكن ليس كسكرتيرة أو كصديقة، صدقني يا (جو) هذه فتاة من ذهب .

- بالتأكيد أن رحلة ذلك العام قد غيرت كثيراً من تفكيري و مفاهيمي .

ثم ضحك (جوزيف) و قال:

- وإذا قلنا أفلامكم في مصر فإن النهاية السعيدة هي أن تتزوج أنت من (سلمى) و (سعيد) من أختك (سارة).

- قد تحدث الثانية، أما الأولى فهي صعبة، سيكون قلب (سلمى) مثخناً بالآلام و عقلها في حالة عدم اتزان وستكون في حاجة لبعض الوقت حتى تحدد لها هوية.

- بالمناسبة؛ لا بد أن نلتقي في أقرب فرصة بعد عودتنا.

ضحك (يوسف) وقال:

- في أقرب حفل زواج من هذه الحفلات.



## ( ٧٣ )

- ما هو ذلك الطلب المُلحِّ يا (سالمة) والذي يجب أن تخبريني إياه بنفسك وعلى انفراد؟ لو علم أبوك أننا تقابلنا هنا وحدنا لفسخ الخطبة.

- ماذا أصنع يا (عبد الحميد)؟ نحن لا نجلس سوياً وحدنا أبداً عندما تأتي لزيارتنا، فلم يكن أمامي سوى تلك الحيلة، والبركة في (منيرة) وفي الذئب الذي جمعنا أول مرة.

ابتسم (عبد الحميد) وقال:

- قولي ما عندك إذن قبل أن يلحظنا أحد الثعالب فيخبر أباك.

- (عبد الحميد): أنا أريد أن يعقد زواجنا في المسجد الأقصى!

- ماذا؟ ولم ذلك؟

- أنت تقول أنك جهزت بيت عائلتكم القديم الذي في القدس وأنا سنسافر إليه بعد زواجنا هنا في رشيد وتكون حياتنا بين المدينتين، وأنا أحب أن أبدأ حياتي معك من هناك وأن نأخذ بركة الحرم القدسي في عقد زواجنا فيه، وطالما في كلتا الحالتين سنسافر، فما المانع إذن؟

- المشكلة أنه في هذه الحالة لا بد أن يسافر أهلك معك للقدس لعقد ذلك الزواج، ومشكلة العرس أيضاً، هل سنقيم حفله هنا قبل عقد زواجنا؟

- وما المانع أن نقيم عرسنا هنا بدون عقد، ثم نساfer بعده مباشرة إلى القدس ومعه من تيسر حضورهم من أهلي وأهلك؟ وصدقني لو علم أبي أن هذه رغبتك وأنتي أوافق عليها فسيحب أن يحج إلى الأقصى كما حجّ من قبل إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي.

سكت (عبد الحميد) يفكر ثم قال:

- وأنا من كنت أظنك ستحاولين إقناعي بعدم جدوى إصلاح ذلك البيت هناك والاكتفاء ببيت رشيد خصوصاً وأن ليس لي تجارة هناك.

- بل خير ما صنعت هو إصلاح وتزيين ذلك البيت، وسواء احتفظت به بعد ذلك أو وهبته لأحدٍ من أهلنا هناك، فما أجمل أن نبدأ حياتنا ببركة هذه المدينة... إذا كنت تحبني بصدق يا (عبد الحميد) فاسع لذلك بكل ما في وسعك.

- ومتى تحبين أن يكون ذلك؟

ابتسمت في فرح وقالت:

- في أسرع وقتٍ ممكن.

ثم قالت في نفسها:

- قبل أن يعود الشّعري.



## ( ٧٤ )

كانت رحلة (يوسف) و (سعيد) إلى بابل ومغارتها أسهل بكثير مما تخيلاً، فقط كان على (يوسف) أن يخرج لسانه العربي ويحاول - قدر ما أسعفته المسلسلات المدبلجة التي تواظب أمه على مشاهدتها - أن يجعل لكتته شامية.

وجود (سعيد) معه كان قراراً صائباً تماماً...

ذلك الوغد لا يزال يتقن اللهجة العراقية برغم مرور كل تلك السنوات...

قال (يوسف) لنفسه.

أَتَمَّا مُهْمَتَهُمَا وَغَادَرَا الْمَغَارَةَ وَبَابِلَ وَالْعِرَاقَ كُلَّهَا فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ، لَمْ تَتَّبِقْ سِوَى أَيَّامِ قَلَائِلٍ وَيَعُودُ الشَّعْرَى وَلَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ (يُوسُفَ) وَقْتَهَا فِي سِيَّاتِلِ كِي يَتَسَلَّمَ (جُوزَيْفَ) شَقْتَهُ وَأَمْوَالَهُ وَحَيَاتِهِ... وَ (نِيكُولُ)!

ولكن قبل أن يتم ذلك فلا بأس من الترويح والسياحة لعدة أيام بعد ذلك العام الطويل، ولا بأس أن يكافئ صديقه (سعيد) ويحاول تعويضه عن حلمه الذي تجمد مرة أخرى، هي بضعة أيام يقضونها في (إسطنبول) قبل أن يعود (يوسف) إلى سيئاتل وييمم (سعيد) وجهه شطر القاهرة ليقابل (يوسف) من جديد ولكن في ثوبه الأصلي.

هما الآن في حضرة مسجد (سلطان أيوب) و ساحتها المزدحمة،  
ومنه استقللاً التلفريك إلى قمة التل المطل على خليج القرن الذهبي.  
جلسا على أحد الموائد البسيطة في مقهى (بيير لوتي) القابع في  
جمال فوق تلك التلة، ولا يملكان سوى الصمت المستكين في حضرة  
تلك الإطلالة الرائعة لذلك المقهى على خليج القرن الذهبي، منظر  
قد تنسى معه أن تتنفس، ولا يريدان للوقت أن يمر، حتى ذلك الرجل  
الذي ينتظران حضوره في موعدٍ ضربوه بينهم؛ يتمنيان أن يتأخر عن  
موعدِه...

رجل عربي يصعب أن تحدد لهجته بالضبط ، اتصل (بيوسف)  
على محموله وقال أنه من طرف (حسن البرغواطي) وأن لديه ما  
يقوله بخصوص اختراع (سعيد)...لو قال لهما أي اسمٍ آخر لفرأ منه  
ومن إسطنبول كلها، وقطع عليهما حبل الصمت الجميل:

- السلام عليكم، (سامر كتبي) الذي هاتفتكم بالأمس.

وبعد السلامات والتحيات والتعارفات قال (سعيد):

- لهجتك غريبة يا أستاذ (سامر)، من أي البلاد أنت؟

ابتسم (سامر) وقال:

- أنا سوري الأصل وتربيت في السعودية ومعني جواز سفر سوداني  
وزوجتي الحالية تونسية و أقيم حالياً بين تركيا ومصر.

ضحكوا جميعاً ثم قال (سامر):

- والأخ (يوسف) أيضاً، ملامحه أوروبية يندر أن تجدها في مصر؟

نظر (يوسف) و (سعيد) إلى بعضهما ثم قال (سعيد):

- ماذا أخبرك عنا الشيخ (حسن) بالضبط؟ وهل تعرفه جيداً؟

قال (سامر):

- الشيخ (حسن) له فضل كبير عليّ إذ عالجني منذ سنة تقريباً

من « أمرٍ ما »

أشار بأصابع يديه ما بين قوسين ثم أكمل:

- ولم يتقاض مني فلساً واحداً، ومن يومها والود بيننا متصل، حتى هاتفتني منذ فترة وذكر لي اختراع الأخ (سعيد) وأنه يبحث عن تمويل لصناعته، هو يعلم أنني رجل أعمال متنوع الأنشطة ومتشعب العلاقات جداً، وطلب مني دراسة هذا المشروع الذي يعتقد أنه سيكون ناجحاً.

نظر (سعيد) إلى (يوسف) ثم أخذ يشرح (لسامر) تفاصيل

مشروعه حتى استوقفه (سامر) في النهاية وقال:

- ولكني لم أفهم؛ طالما كنت تجري تجاربك في معامل تلك الشركة

الأمريكية، فلماذا تركتهم فجأة؟

تردد (سعيد) قبل أن يقول:

- لا أدري إن كان صواباً أن أصارحك برغم أن معرفتنا ببعضنا ما زالت حديثة، لكنني أشعر بالثقة بك.

ثم أخذ يشرح له قصة التجسس على حاسبه و العينات التي يُعبث بها و الشخص الغامض الذي حاول مفاوضة (جوزيف) حول العقار وخوفه من تحويل العقار إلى ذلك المخدر الكيميائي النفسي، وأشار له إلى بعض مخاوفهم من وجود منظمات أو مخبرات تلاحقهم.

هنا ابتسم (سامر) ثم قال:

- ولماذا لم يخطر ببالك أن يكون ذلك التجسس من شركة منافسة؟

- رد (سعيد) باستغراب:

- ماذا؟

- كل الشركات - وبالذات شركات العقاقير و الأدوية والكيمائيات - تقعات على التجسس على بعضها البعض، وكثير من الباحثين العاملين في هذه الشركات يكونون جواسيس لشركات منافسة، يزودونهم بأخر الأسرار والمكتشفات، وبالتأكيد كانوا يعبثون وراء تجاربك ويتجسسون على حاسبك الآلي كي يقتنصوا منها أسرارك قبل نجاح تجاربك وقبل تسجيل حقوق ملكية عقارك... حسناً فعلت أنك احتفظت بأسرارك

في عقلك، وغالباً فإن من جاء ليفاوض السيد (جوزيف) هو مدير في إحدى تلك الشركات جاء ليشتري منه حق إنتاج العقار.

قال (سعيد):

- لكنه لم يفصح عن ذلك (لجوزيف) وتكلم معه بطريقة غامضة أثارت ريبته.

رد (سامر):

- وهل كنت تريد منه أن يأتي ليقول؛ مرحباً أنا مدير شركة كذا التي تجسست على اختراعكم وأريد اقتناصه منكم!

نظر (سعيد) إلى (يوسف) في حيرة، في حين لم يتمالك (يوسف) نفسه فانفجر في موجة من الضحك حتى كاد أن يقع من على كرسيه، ثم قال (لسعيد):

- درس قاسٍ لك يظهر عقلك من نظرية المؤامرة التي تراها في كل ما حولك.

ابتسم (سامر) ثم قال:

- لكن هناك شيء لم أفهمه؟ من هو (جوزيف) وما هو علاقته (بيوسف)؟ وكيف وصلتكم إليه؟

هدأ ضحك (يوسف) وإن لم يتوقف وقال:

- انظر، هو موضوع معقد ويصعب شرحه و يطول، والأفضل أن نتحدث في العقار نفسه و نتاجه.

قال (سامر):

- كلام (سعيد) عن اختراعه مبشّر ويستحق الاهتمام و الدراسة، لكن يجب أن أتأكد أنه ليس هناك من لديه حق إنتاج هذا العقار ولا براءة أفكاره، لا أنا ولا المستثمرين الذين يمكنني جذبهم نريد مثل هذه المشاكل وبالذات مع الأمريكان.

تهد (سعيد) ثم قال:

- يمكنك أن تتأكد من ذلك، وإذا أحببت أن نوصلك بالسيد (جوزيف) نفسه للفتاهم معه سنوصلك، أمهلنا فقط بضعة أيام نعود فيها إلى مصر ويعود (جوزيف) إلى سياتل، و نقابل وقتها في القاهرة.

وهز (يوسف) رأسه و هو يقول في سرّه:

- ويعود فيها الشّعري.



## ( ٧٥ )

فعلاً إذا قدّر الله أمراً فلا بدّ أن تسير كل الظروف في اتجاهه .

قالت (سلمى) لنفسها ...

والد (سالمة) لا يوافق فحسب على عقد الزواج في القدس، بل  
يرحب بذلك بشدة .

وأماها تطلب السفر أيضاً معنا وتترك البيت في رعاية (توحيدة)  
(وصبح) التي تعافت من نفاسها .

وها نحن على أعتاب مسيرة يوم من القدس... سأحرص فور  
وصولنا على دخول المسجد الأقصى كي تتشط القلادة كما أخطرني  
(برقان) في منامي .

سيكون عقد الزواج بعد صلاة الجمعة، أي بعد ثلاثة أيام من  
وصولنا ...

سيكون الشعري قد عاد .

وتلى (حسن) طلسمه .

وعادت جدتي من المستقبل لتوكل أبيها في تزويجها من (عبد  
الحميد) .

هنئاً لك (عبد الحميد) يا جدتي .

وكم استوحش بيّتي في القاهرة و أسرتي الصغيرة فيه...

فهل ستعوضني أحضانهم عن ذكريات ذلك العام؟

هل سأعود (سلمى) التي كانت قبل عام؟

لا أظن ذلك أبداً!



## ( ٧٦ )

- لا تحزن سيدي (أورهايون) من إعادة تنشيط القلادات، فإنما هي مجرد جولة لك مع (البرغواطي).

قهقهه (أورهايون) و قال:

- متى ستقتنع يا (داهار) أنك رهيب القدرات لكن محدود العقل؟  
من قال لك أنني خرجت خاسراً؟

نظر له (داهار) في عدم فهم فقال (أورهايون):

- (البرغواطي) ولأنه يريد إصلاح ما أفسده ابنه ويريد مساعدة ضحاياه في المقام الأول، لم يهتم بأن يكشف لي جانباً جديداً من أسراره وقوته، تعطلت القلادات فأصرراً أن يعيد شحن طاقاتها، هو بذلك قد كشف لي عن بعض مراكز طاقاتهم وكيف يتعاطونها ويستقون منها ما فيها... لا بأس أن تخسر مباراة ودية في سبيل أن يفصح لك خصمك عن بعض أسراره وطريقة لعبه في مباراة البطولة المنتظرة.



## ( ٧٧ )

وتنفس (حسن) الصعداء بعد أن عاد كل شيء لأصله.

لقد مرَّ عليه العام كأنه دهر طويل، لو سأله أبوه الآن كم عمرك يا (حسن)؟ لقال إنه أكثر مما تتطلبه خزائن الأسرار بعشر سنين!

و (برقان) ينظر إليه بنفس النظرة الطفولية التي نظر إليه بها أول مرَّة قابله فيها وبيتسم كأنه طفل شقي.

واحتضن (حسن) كتاب الخزانة الثقيل و تنهد وقال (لبرقان):

- أخيراً انتهينا من ذلك الكابوس؟

- لا تتكر أنه كان عامٌ جميل ملئٌ بالمغامرات.

ابتسم (حسن) في أسى و لم يعقب فقال (برقان):

- أتدري؟ ذلك الطلسم الذي تُلِي في غير مواعده لهو من أهون

الطلاسم التي في تلك الخزانة، في حين أن هناك طلسم رهيب في

صفحة رقم ( ٢٢ )... لو تعلم ما يمكنه أن يصنع؟

رد (حسن) بدهشة:

- ماذا يصنع؟

- طلسمنا السابق لم يغير إلا حياة ستة أشخاص عاديين، بينما

ذاك الطلسم يمكنه أن يبدل ما بين رموز وقيادات البشرية

المتضادة، أن يبدل مثلاً ما بين رئيسي CIA و KGB! ما بين بابا الفاتيكان وإمام الحرم! بين رئيسي كوريا الشمالية والجنوبية... تخيل لو حدث ذلك لمدة عام؟ سنعيش عاماً من الجنون يا (حسن)...

وقبل أن يكمل كلامه نظر إليه (حسن) في ابتسامة باهتة ثم فتح غلاف الكتاب وأغلقه ثانية بكل قوة!



## ( ٧٨ )

صحيح أن (جوزيف) قد انتقم ممن أهانوه في موقف سيارات  
الأجرة...

وصحيح أنني سأترك الشارع والحارة بل وحي مصر القديمة كله  
ولن أشاهد أحداً منهم بعد ذلك...

لكن الصورة عندهم أن (يوسف) و ليس (جوزيف) قد أجبر على  
خلع ملابسه أمام الجميع...

والصورة أيضاً أن (يوسف) قد ابتلع إهائته و استمر يمارس  
عمله...

وانتقام (جوزيف) لم يغير شيئاً من هذه الصورة...

وهذا ال (بعليكة) لم تُرد إليه الإهانة بعد...

لا...لن أترك الحي قبل أن أثار لصورة (يوسف)، وليس على  
طريقة (جوزيف) في الضرب من وراء الستار، بل وجهاً لوجه مع ذلك  
ال (بعليكة)!

ولكن كيف؟

لا بأس من الاستعانة ببعض حيل (جوزيف) ، ولا بأس من استعمال  
بعض من المال الوفير الذي خرجت به من عام الشِعْرَى هذا ...

لقد أوصيت (سعيد) أن يحمل لي معه من سيائل لعبة أصبع النار التي اشتريتها من هناك خصيماً لهذا الغرض... لعبة رخيصة الثمن يستعملها الهواة المبتدئون وبعض من يحبون صنع المقالب في أصدقاتهم.

وبعض المال استأجرت بعض البلطجية... لا لن يقوموا هم بالمهمة، فلن أغسل صورتي إلا بأن أضرب (بعليقة) بيدي، لكنهم جزء مهم من الخطة...

- ولكن كيف يا (يوسف)؟ إن (بعليقة) معتاد الإجرام و محترف العراك؟

قال له (سعيد) في إشفاق بعد أن استمع إلى خطته، فرد عليه (يوسف):

- هل نظرت إلى جسده؟ إنه مهلهل من أثار المخدرات و السهر والعريدة و سوء التغذية، إنه فقط زارع للخوف بين قلوب السائقين، هو بغير أعوانه كالمراهق الحدث؛ مجرد حنجرة جوفاء.

- لكنه ميت القلب من كثرة ما عركته الشوارع.

- ولهذا طلبت منك لعبة أصبع النار...عنصر المباغثة!



وفي اليوم الذي حدده (يوسف) للثأر لكرامته، و بعد أن انتهى من شراء وتجهيز شقته الجديدة وانتقل إليها بالفعل مع أمه وأخته

(سارة)، سار مع من استأجرهم لموقف السيارات حيث يقف (بعليكة) واختار الوقت الذي يتواجد فيه أغلب السائقين... مهمة من استأجرهم فقط أن يضمنوا ألا يتدخل أحد في العراك بين (يوسف) و (بعليكة)...

- أرايتم يا رجال؟

صاح (بعليكة) وهو جالس على كرسيه في حشد السائقين ثم أكمل ساخرًا:

- (يوسف) أفندي نبتت له أظافر بعد أن جرى المال في يديه واستغنى عن مهنته القديمة، والآن جاء ليسوي حساباته القديمة معكم...

ثم نظر ل (يوسف) و قال:

- لكن الرجولة ألا تحتمي فيمن استأجرتهم.

رد عليه (يوسف) و قلبه يكاد يشق صدره خارجاً منه و نبضه كأنه الطبل في أذنيه:

- بل أنت من يحتمي فيمن يعيشون معك على عرق هؤلاء السائقين وتشاطروهم رزق عيالهم، لو كنت رجلاً حقاً واجهني رجلاً لرجل ولا يتدخل أحدٌ فيما بيننا، هيا أرني نفسك يا حقيير.

وكانه قال كلمة السر، فتحلق من بالموقف حولهما تلقائياً في دائرة، فتحسس (يوسف) لعبة النار المخبأة بين أصابعه وهو يدعو الله ألا يكون عرق يده قد أفسدها، وتمطع (بعليكة) في ثقة استهزاء

ليتلاعب بأعصاب (يوسف) ثم هبَّ فجأةً واقفًا وهو يفتح مطواته في الهواء في نفس الوقت ليرهب (يوسف)...

لا يدري (يوسف) كيف فعلها، لقد تمرن كثيراً قبلها على قذح زنادة اللعبة المفلوطة حول أصابعه كأنه خاتم بنفس لون الجلد، ويكون زنادةا موجهاً لبطن يده من الداخل، وبحركة من الإبهام يقذح الزناد ليشتعل كرة القطن الصغيرة المخبأة في يده معها، لتظهر في النهاية وكأنه يخرج قطعة من النار من يده.

هل تمرن بما فيه الكفاية؟ هل اشتعلت وحدها؟ لا يتذكر (يوسف) سوى تعبيرات وجه (بعليكة) الذي تفاجأ بخروج كرة صغيرة من النار في الهواء من يد (يوسف).

لحظة المفاجأة هذه هي ما كان ينتظرها، فاستغل تشتت ذهن (بعليكة) بسببها وهجم عليه بكل سرعته، وبقدمه التي يرتدي فيها حذاء سلامة صناعية ثقيل، و المبطن بمقدمة من الفولاذ لحماية أصابع القدم من الإصابات في المصانع، وبكل عزمته وقوته ركل (بعليكة) في قصبة ساقه.

رمى (بعليكة) جسده في الأرض وهو من شدة الألم يصرخ بشكل متواصل كصرخات المرأة التي تكابد آلام الولادة!

وقبل أن يتحرك أحدٌ من معاوني (بعليكة) صاح أحد الرجال الذين استأجرهم (يوسف):

- هذه تصفية حسابات بين الرجلين، دعونا نحن خارجها ولا داعي لحدوث مجزرة.

وتقدم (يوسف) من (بعليكة) الممدد على الأرض وهو يتلوى من الألم، و فكّ لسان حزامه ثم سحب بنطاله إلى ركبته، ثم بصق عليه. التفت (يوسف) إلى سائقي الموقف و قد تضاربت مشاعره تجاههم وهو يتأملهم، البعض كان وجهه مهللاً في صمت لا يجرؤ على إظهار فرحه، والبعض الآخر كان واجماً لا يصدق ما يحدث، وبعضهم كان خائفاً أن يطولوه (يوسف) بانتقامه.

اكتفى (يوسف) بأن جدحهم بنظرة باردة ثم قال لهم:

- ستظلون هكذا طوال حياتكم، وغداً ستبحثون بأنفسكم عن (بعليكة) جديد يتسلط عليكم.

ثم ولاهم ظهره وانصرف وهو يقول لنفسه:

- الآن - للمرة لست أدري كم - ولد (يوسف) من جديد!



## ( ٧٩ )

أخيراً وصلنا إلى كوكب (المنتهى) خلال سفرهما الذي لا ينتهي عبر بوابات السماء ودهاليز المجرات .

إنهما منذ أن طلب منهما (برقان) مساعدته في الوصول لأصحاب القلادات الثلاث والتخاطر معهم، والأصعب من ذلك التخاطر مع (سلمى) لما سقطت في بئر الماضي مكان جدتها (سالمة) وإخبارها بحقيقة ما حدث لها في منامها... منذ ذلك و هما مهتمان بمتابعة أحداث هذه القصة و متابعة أصحابها طوال ذلك العام .

ولذلك وقف (أبانوخ) متحيراً و قال ل (هلال):

- أنا أكاد أجن...إن كان يجوز لمثلنا أن يصاب بالجنون...هذه القلادات الأرضية وأصحابها الستة ليس لقصتهم نهاية محددة! عندما كنا في كوكب (تريسياس) وجدنا (سلمى) تختار البقاء مع (عبد الحميد) والزواج منه، في حين يجمع الطموح (بسالمة) إلى الهجرة إلى أمريكا و تتزوج من (جوزيف) بعد أن يرضخ لضغوطها و يعتنق دينها .

لكن لما وصلنا إلى كوكب (فيلون) وجدنا العوائق تقوم بين (سالمة) و(جوزيف) لتتزوج في النهاية من (سعيد) ويهاجران معاً إلى كندا ويكونان أسرة علمية ويعملان معاً في البحث العلمي .

لكن عندما وصلنا إلى كوكب (النوائل) لم يحدث أي شيء مما سبق وعادت (سلمى) و (سالمة) إلى حياتهما لأولى - ما قبل الطلسم - بينما وجدنا (نوف) تضرب بعرض الحائط كل شيء وتقرر البقاء في ثوبها الرجولي مكان (نواف) ثم لا تلبث بعد عام واحد أن تجتاحها الأمراض النفسية وتنتحر في نوبة اكتئاب!

وهكذا من كوكب لآخر، و كل كوكب نصل إليه نشاهد منه ونحن نراقب كوكب الأرض نهاية مختلفة لهذه القصة غير تلك النهاية التي شاهدناها أخيراً لما وصلنا كوكب (المنتهى)، فأى النهايات هي الحقيقة؟ رد (هلال) وقد ارتدى ثياب الخبرة التي تفرقه عن (أبانوخ) بقرابة الألف دورة شمسية:

- النهاية التي شاهدناها الآن على كوكب المنتهى هي الحقيقية، فهي قرارهم الأخير واختيارهم النهائي الذي اختاره أصحاب القلادات قبل أن يعود الشعري.

- لكن كل ما شاهدناه من نهايات أخرى كان يفترض أنها بعد أن يعود الشعري أيضاً.

- كانت تلك نهايات لعودة الشعري في تقويمات كواكب أخرى موازية، لكنها مختلفة عن تقويم كوكب الأرض، بينما النهاية التي شاهدناها الآن كانت بعد عودة الشعري في تقويمهم الأرضي... الاحتمال الأخير والاختيار الحر الذي اختاروه بإرادتهم النهائية فتجنبوا بذلك تلك النهايات والمصائر الأخرى.

هز (أبانوخ) رأسه في تعجب و قال:

- كل السيناريوهات كانت مطروحة و كل النهايات كانت متاحة كأنها حدثت بالفعل، لكن اختيارهم الحقيقي أبقى على نهاية واحدة وألقى الباقيين...دائماً ما أرى مثل ذلك يحدث في قصص أناس آخرين خلال رحلتنا عبر مجرات الكون و مع ذلك لا يستطيع عقلي استيعابه.

- أما أنا ولأنني أكبر منك عمراً بألف دورة فقد بدأت أفهمه، أما الشيء الذي لم أفهمه أبداً فهي تلك السيدة (خضرا)...

لقد رأيتها قبل مئات السنين الأرضية وهي تتناقش مع الجد الأكبر ل (سالمة) و (عبد الحميد) لما كان محتاراً في الهجرة من القدس إلى رشيد، ثم رأيناها مع (سلمى)، ورأيناها تناقش (نوف) في غرفة نومها لما فكرت أن تستولي على حياة (نواف)، بينما (نوف) تظنها الشيخ (البرغواطي)، ثم رأيناها بعد عشرات السنين الأرضية تدخل حياة (فريد) حفيد (جوزيف) و (نيكول) وهو ييئ لها حيرته في مسألة الهجرة من أمريكا إلى مصر والزواج من حفيده (سعيد) و (سارة)...

وطوال هذه الآلاف من الدورات و أنا أشاهدها مع أطيايف البشر وهي تحدثهم في قرارات حياتهم بطريقتها المألوفة تلك، ولم أعلم حتى الآن من تكون وفي أي زمن تعيش، وهل تحدث الناس في الحقيقة؟ أم في منامهم؟ أم تتخاطر مع لاوعيهم ... هل تحدثهم عن المستقبل الذي حدث بالفعل؟ أم عن الماضي الذي لم يأت بعد؟

وَعِبْتُ حَاولت أَن أَعرف أَيَن اِختفت في ذلك اليَوم المشهود  
واللقاء الرهيب في المَلحمة التي دارت بين حزب (البرغواطي) وحزب  
(أورهايون).

حتى بدأت أوقن أنني لن أدرك حقيقتها أبداً في هذه الحياة  
الدنيا!

تَمَّت

Obseikan.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر



أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامي

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء  
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع  
إلى الناشر